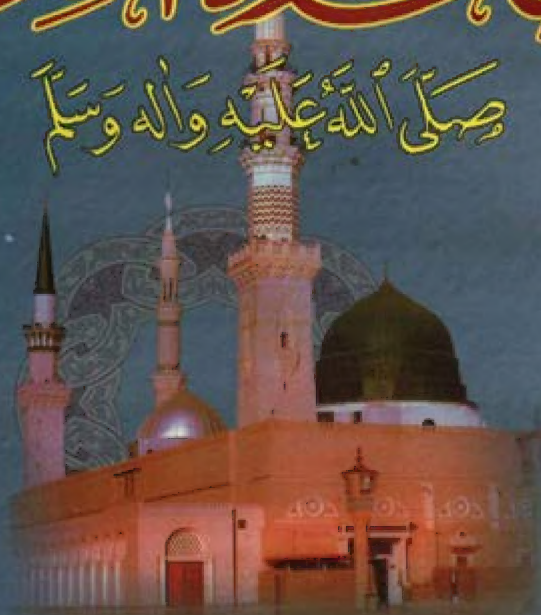


رَوَائِعُ تَرَاثِ الزَّيْدِيَّةِ

اِتِّبَانُ سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ



تَأَلِيفُ

الإمام المريد بالله أحمد بن الحسين بن هارون الحنفي

مَنْشُورَاتُ

مَكْتَبَةُ التَّرَاثِ الْإِسْلَامِيِّ

تَحْقِيقُ

عبد الكريم أحمد جديان

رَوَائِعُ تَرَاثِ الزَّيْدِيَّةِ

أَنْبَاءُ نُبُوَّةِ الْبَيْتِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

تَأَلَّفَ

الإمام المؤيد بالله أحمد بن الحسين بن هارون الحنفي

(٣٣٣ - ٤٢١ هـ)

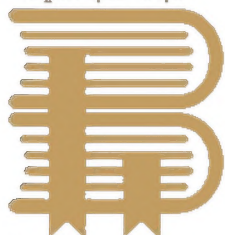
تَحْقِيقُ

عبد الكريم أحمد هديان



مَكْتَبَةُ نَوَافِلِ الْإِسْلَامِ

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابطہ بدیل < niktba.net

الطبعة الأولى

١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م

حقوق الطبع محفوظة للمحقق



منشورات

مكتبة التراث الإسلامي

الجمهورية اليمنية - صنعاء

ت: ٥٦٣١٥٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

" من حق الناس أن يسألوا كل رجل يزعم أنه مرسل لهم من عند الله: ما دليلك على صدق قولك ؟

فإذا قَدَّم لهم الدليل المنقح على صحة رسالته قبلوه واستمعوا له .

وقد جاء صالح إلى لمود يخبرهم بأنه نبي من الله ، ثم يصيح فيهم: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (٢٥٠) وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) ﴾ [الشعراء] .

ولكن لمود ردوا هذا النصح ، وطالبوا صالحاً بالبرهان على أنه ليس شخصاً عادياً . ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) ﴾ [الشعراء] . فكان طلب لمود معقولاً ، ولذلك جاءت الإجابة عليه سريعة .

وكانت الطريقة التي وجدت وعاشت بها هذه الناقة ، خارقة لما تعارف عليه القوم .

ودل مجيهاها على أنه أثر لقدرة عليا ، لا لقدرة الناس المعتادة .

وهذا النوع من الاستدلال يقوم على تفهيم الناس أن الشخص الذي يخدمهم لا يمثل نفسه ، ولكن يمثل رب الأرض والسماء . لذلك يعمل بقوته المطلقة ، لا بقوى البشر المحدودة !

وقد فرغ موسى إلى هذا الدليل ، لما كذبه فرعون في دعواه أنه مرسل من رب العالمين وقدده ، ﴿ قَالَ لَيْنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمُسْخُورِينَ (٢٩) قَالَ أُولَئِ هِيَ جِنَّتُكَ بِشْيءٍ مُبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأَتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) ﴾ [الشعراء] .

وكذلك صنع عيسى عليه السلام عندما عرض نفسه على بني إسرائيل ، فنبأهم بأنه رسول من عند الله سبحانه وتعالى .

ثم سرد أدلته على رسالته: ﴿ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخْبِئِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٤٩) ﴾ [آل عمران] .

وقد لوحظ أن أكثر الأمم - برغم ما سبق إليها من آيات باهرة - لم تستجب للحق ، ولم تسلّم بدعوى المرسلين ، لا عن قصور في الأدلة التي تسندهم ، بل على عناد وتبجح . ﴿ إِنْ إِلَهُكُمُ إِلَّا اللَّهُ فَخُذْ حَقَّكَ مِنَ اللَّهِ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣) ﴾ [آل عمران] .

والدليل على صدق أية دعوى قد يكون بأمور خارجة ، أو يكون بحقيقتها في نفسها .

فقد يزعم أحد الناس أنه مهندس ، ويقول: دليلي على ذلك أني أستطيع السير بقدمي على الماء ، أو الطير يجتاحي في الهواء . فإذا فعل ذلك سلمنا له !

وقد يقول: دليلي على ما أقول: أني أنبي - فعلاً - عمارة مدعمة
الأركان ، أو أصل بين شاطئين - مثلاً - يجسر متين ! فإذا فعل فقد دل
بقدرته الهندسية على أنه مهندس يقيناً . بل قد تستريح النفس إلى هذا
الاستدلال أكثر من راحتها إلى البراهين الخارقة الأول .

قال ابن رشد: « إن دلالة القرآن على نبوة محمد صلى الله عليه وآله
وسلم ليست كدلالة انقلاب العصا حية ، ولا إحياء الموتى ، وإبراء المرضى .
فإن تلك وإن كانت أفعالاً لا تظهر إلا على أيدي الأنبياء ، وفيها ما
ينفع الجماهير من العامة ، إلا أنها مقطوعة الصلة بوظيفة النبوة وأهداف
الوحي ومعنى الشريعة .

أما القرآن فدلالته على صفوة النبوة ، وحقيقة الدين مثل دلالة الإبراء
على الطب .

ومثال ذلك: لو أن شخصين ادعيا الطب فقال أحدهما: الدليل على أني
طبيب أني أطير في الجو .

وقال الآخر: دليلي أني أشفي الأمراض وأذهب الأسقام . لكان تصديقنا
بوجود الطب عند من شفى من المرض قاطعاً ، وعند الآخر مقنعاً فقط . .
ملخصاً بتصرف .

فالمعجزات إذن قد تكون ذاتية في الرسالة ، وقد تكون خارجة عن
جوهرها ، والتفاوت بينها واسع النطاق ، باختلاف البيئات التي ظهرت فيها
، والرسالات التي اقترنت بها .

وقد كان التعويل في العصور الأولى على الخوارق المادية فحسب ، أما ما تضمنته الأدبان من حقائق فكانت متروكة ثانوية . حتى جاء الإسلام فغض من شأن الاعجاز المادي ، ونوّه بالاعجاز العقلي والقيم المعنوية للرسالات ، وفرر إلى جانب ذلك أن الخوارق التي دعمت بها الديانات القديمة ، لم تمنع التكذيب بها أولاً ، فلا معنى لطلب التصديق بها أخيراً ، ﴿ وما منعنا أن نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ (٥٩) [الإسراء] ، ومن ثم اتجه تأييد الأنبياء وجهة أخرى .

المعجزة بين الرسالة الخاتمة والرسالات الأولى

جرت سنة الله في أنبيائه جميعاً أن يؤيدهم بالمعجزات الواضحة ، وأن يسوق بين أيديهم من الخوارق ما يلفت الأنظار ويستهوئ الأفئدة ، ثم ما يبني معالم اليقين وعناصر الاستقرار ودواعي الطمأنينة في النفوس . وكانت معجزات الأنبياء شيئاً آخر غير الرسالات التي يبشرون بها ويدعون إليها . فطب عيسى غير إنجيله ، وعصا موسى غير توراته . إلا أن الله شاء أن يجعل معجزة الرسالة الأخيرة شيئاً لا يفصل عن جوهرها ، فجعل حقائق الرسالة ودلائل صحتها كتاباً واحداً ، وجعل من أصول الدعوة وأساليب عرضها ، البرهان الأكبر لدعوى الرسالة ، والسناد الأعظم لصديق صاحبها .

فآي القرآن الكريم - بما تتضمن من دساتير العدالة الخلقية والاجتماعية والسياسية ، وبما تغرس في الطبائع من آثار الأدب والتربية والاستقامة - هي رسالة الإسلام ومعجزته .

وأعظم ما في هذه الآيات أن الفطرة الانسانية تجدد فيها بمجالها الحيوي الغد ، وتجدد في جوها المتنفس الطلق الحر .
ومن ثم كان القرآن كتاباً إنسانياً ، وكان نبي القرآن إنساناً كاملاً ، وكانت رسالة الإسلام في موضوعها وأهدافها إنسانية بحتة . ولذلك توجه القرآن - مباشرة - إلى العقل البشري يخاطبه ويفك عنه آصاره ، ويرد إليه اعتباره .

وأكد القرآن أن أصحاب هذا العقل وحده هم الذي يستطيعون فهمه وتبين معانيه ، ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَمَّا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمْ هُوَ أَغْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (الرعد) . بل إن أصحاب هذا العقل وحده ، هم الذين يفهمون رسالة الوجود ، ويفقهون أسرار الكون ، ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (١٩٠) . فلنكن إذاً معجزة نبي الإسلام عقلية ، وما دام البشر يحترمون عقولهم ، فستبقى لهذه المعجزة قيمتها ، أجل ستبقى لهذه المعجزة قيمتها ما بقي العقل أنفس شيء في الحياة ، وما استلهم الناس عقولهم في الحكم على الأمور ، وفي قيادة الانسانية إلى آفاق الترقى والكمال .

مقترحات كافرة

غير أن هذا المنطق لم يكن ليلقى القبول الواجب له عند أعراب الجزيرة ، وبقايا القرون الأولى ، وصرعى الأوهام والخيالات . إذ كان أقصى ما يفكر فيه هؤلاء أن يشاهدوا خارقاً يقلب البر نحرأ ، أو الخصب جدياً . وعندئذ يلقون السلم ويدخلون في الاسلام ، ولم يكن شيء من هذا الذي اقترحوه

عزيراً على قدرة الله . ولكن حكمة الله أثبت إلا أن تتعالى بقيمة العقل الإنساني الذي أخصوه ، وإنه لتعزيز على هذه القدرة العليا أن تعطي الإنسان عقلاً يصنع المعجزات - إذا ما اعتني به والتفت إليه - ثم ترك هذا الذي أعطت يضيع عبثاً ، وتستجيب لرغبات الجاهلين الذين سفهوا أنفسهم وأفكارهم ، وأبوا تحكيم مشاعرهم وعقولهم ، وطالبوا بمعجزات مادية ، قليلة أو كثيرة لتصديق نبيهم .

وكان لا بد في معاملة أولئك القوم من سلوك منهج يرغم آنافهم على احترام العقل الإنساني ، لمصلحتهم ولمصلحة الأحيال من بعدهم !! ولذلك تقرر أن تكون المعجزة الكبرى لمحمد صلوات الله وسلامه عليه هي هذا القرآن الكريم .

فيه كان التحدي ، عليه كان الرسول يعتمد في سيرته ، مع خصومه وأصحابه طول حياته . ومن بعده ظل القرآن كتاب الاسلام الناطق بدعوته وحقته معاً .

إلا أن الحكمة الإلهية اقتضت أن تبث في طريق الرسول أنواعاً من الخوارق التي أيد بها النبيون الأولون ، فجاءت هذه الخوارق تحمل طابعاً خاصاً ، ينبغي أن نعرفه حتى لا نتجاوز به حدوده الصحيحة .. هذه الخوارق ثانوية الدلالة في تصديق النبوة والشهادة لها ، والطريقة التي أرسلت بها من عند الله ، تشير إلى أن الحكمة الإلهية لم تعلق عليها كبير أهمية ، ولم تغض بها من قيمة المعجزة العقلية التي انفرد الرسول بها .

فقد حدثت جملة من هذه الخوارق بين المؤمنين ، الذين استقر الايمان في قلوبهم فعلاً ، والذين سبق لهم تصديق النبي صلى الله عليه وآله وسلم في دعوته ، لأنهم أعملوا عقولهم واحترموا إنسانيتهم ، وحدث بعض آخر أمام أعين الكافرين .

بيد أن الصورة التي تم بها تثير الدهشة ، إذ كانوا يقترحون معجزة فتانيهم أخرى ، أو يأتي ما يقترحون بعد سنين طوال ، وعلى وجه يبدو منه أن إجابتهم إلى ما طلبوا لم تقصد أصلاً ، وربما قمل مقترحاتهم كلها، فلا ينظر لها قط ، فما معنى ذلك ؟ وما السر فيه ؟!

حقيقة الاعجاز المادي

بين الله عز وجل أنه فصل في كتابه كافة أسباب الايمان وأسانيد النبوة ، ولكن الناس أبوا الرضى بهذا اللون من الاقتناع . ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ (٨٩) ﴿ [الإسراء] ، وماذا بعد أن كفروا ؟ طلبوا أشياء معينة ، زعموا أنها - وحدها - هي التي تدعوهم إلى الإيمان ، ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ (٩٠) ﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ تَحْتِهَا نَاجِيَةٌ فَنُفِثَ فِيهَا زُكُورًا ﴾ (٩١) ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ ﴾ [الإسراء] ... إلخ .

ودعك من المطالب التي أملها العناد والسخف من سلسلة هذه المفترحات الطويلة ثم تأمل .

أنفجح ينبوع من الأرض ينظر إليه البشر على أنه عمل تنزل قوى من السماء لاتمامه ؟ فما هو إذاً عمل القوى الانسانية ؟

إن المرء في طفولته يعتمد على أبيه دائماً في جلب كل خير وإتمام كل عمل ، أفليس من حق الأب إذا رأى ابنه جاوز الطفولة أن يضربه على يديه ، ويتركه يتحشم وحده مشقة السعي ، واقتحام المستقبل ، وتحمّل أعباء الرجولة ؟!

هكذا صنع الله مع عباده ، لقد أرضى الإنسانية في طفولتها بألوان صارخة من الخوارق ، حتى إذا اشتد عودها واستوى فكرها ، تركها لتستخدم مواهبها الفكرية ، ولتبين الصواب والخطأ . فإما هلكت عن بينة ، أو نجت عن بينة .

ويوم أن تعرف البشرية « العقل » في قبول دين أو رفضه ، فستعرف من تلقاء نفسها كيف تستغل هذا العقل في تفجير النوايا ، وتحويل رمال الصحراء إلى حدائق غناء . وهذا بعض ما طلب أعراب الجزيرة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليصدقوا رسالته . وقد طلبوا منه أن يرقى في السماء ، ولكن الله أحب أن يكشف لهم عن سقم البواعث التي توحى بهذه المطالب ، وأن يثير فيهم الإيمان بإنسانيتهم المهدرة ، وأن يرد الحرمة إلى عقولهم المحتقرة ، وأن يعلمهم تكريم البشرية المجردة بالإيمان بين البشرية ، المبعوث لمد ضيائها وبسط روائها . ولذلك يهتف القرآن عقب هذه المقترحات: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ (٩٣) [الإسراء] . وقد حدث بعدئذ أن رقى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في السماء ليلة الإسراء ، بعد تقديم هذه الافتراضات بأمد طويل ، فكان وقوع الارتقاء على هذا النحو ، دليلاً ناطقاً على أن الحكمة الإلهية لم تكثر قط بمطالب الكفار ، ولم تُعَرِّها أية قيمة ،

بل جاء الرقي في السماء ليلة المعراج ، مظهر تكريم نحت من الله لنبيه ، لم تنزل به الإرادة العليا على رغبة بشر ، ولم يرتب على إيقاعه ما يترتب - غالباً - على وقع التحدي ، من إيمان أو كفران ، بل تركت مسألة اتباع النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو التحلف عنه ، موكولة إلى المعجزة العقلية الفريدة ، معجزة القرآن الكريم ، ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩] .

وقد أقسم المشركون مرة أنهم يؤمنون لدى أية معجزة مادية تقع ، كما يضرب الشاب لوالده أن يرضي نوازع طفولته ثم يسمى بعدئذ رجلاً ! فأبى الله إلا أن يردهم إلى أفئدتهم وأبصارهم ، يتعرفون بها الحق ويثبتون بها عليه ، فإن معجزات الأرض والسماء لا غناء فيها إن لم يستتر القلب والعقل عما أودع الله فيهما من نور ، ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَازِلُكُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) ﴾ [الأنعام] . ويريد هذا المعنى جلاء ، قول القرآن في تصوير موقف الكافرين ، وبيان ما انطوت عليه أفئدتهم وأبصارهم من عناد وغباء ، ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (١٥) ﴾ [الحجر] . فماذا تجدي المعجزات المادية مع هؤلاء ؟! وهم إنما ضلوا لاستغراق قلوبهم وعقولهم ، وهم لو فتحت قلوبهم لاكتفوا بالقرآن أية لا تعلوها أية ، ومعجزة لا تدانيها معجزة ، ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا

عَلَىٰ أَذْيَارِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ (٢٥)
﴿ اعمدا .

النبي الانسان

ولكن كان القرآن هو الكتاب الذي يصور للإنسانية آفاق كمالها ، إن محمداً صلوات الله عليه وسلامه هو الرجل الذي حقق في شخصه وفي آثاره أعلى ما تشهده الإنسانية من مثل ، فقد رفع شأن « الضمير » عندما أعلن أن التقوى تستقر في القلوب الزكية ، ولا تغني عنها قشور العبادات ، وثبت قيمة العقل وجعله أصل دينه ، وأسس عليه المسلمون حضارة متشعبة الثقافات والفنون ، وصلت ما انقطع من تراث الإنسانية الفكري ، وكانت البذور المنتجة التي أورثت العالم حضارته الحديثة .

ثم إن هذا النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو المحرر الأول للإنسان ، والمقرر الأول لحرية العقل والضمير . لقد جعل الكون كله مسخراً لنشاط الإنسان الذهني والبدني ، وجعل الإنسان سيداً في نفسه ، سيداً لعناصر هذا العالم ، عبداً لله فقط ، فلا سلطة البتة لدهاقين السياسات والديانات ! ونسي الإسلام عربي ، ولكن الدين الذي جاء به لا جنسية له ، وأي جنسية لـدين يخاطب العقل حيث كان ؟ ويبي أدلته على النظر في فجاج الأرض والسموات ؟!

بين النبوة والعبقرية

تاريخ البشر حافل بأسماء الكثيرين من أصحاب المواهب الرفيعة ، والكفايات الضخمة . وعثهم الإنسانية في ذاكرتها ، وسجلت لهم في صحائف الخلود ما قاموا به من أعمال جليلة ، وروت للأجيال آيات مجدهم ، وآثار نبوغهم ، لتكون منه عبرة حافزة . والعظمة قدر مشترك بين ألوف من الناس ، ظهوروا في شتى الأعصار والأمصار ، ودفعهم امتيازهم المعنوي إلى اعتلاء القمة ، إلا أن العظماء يتفاوتون فيما بينهم تفاوتاً بعيد المدى .

ألا ترى كواكب السماء ونجومها ، إن بعضها أكبر من الآخر ألف ألف مرة ؟! ومع ذلك فالدراري الصغيرة ليست من الحصى والجنادل !

فإذا فحصنا تواريخ العظماء ، وفيهم الأنبياء من مبلغى الرُوحى ، وفيهم الفلاسفة من قادة الفكر ، وفيهم المخترعون من علماء الكون ، وفيهم الزعماء من قادة الجماهير ، وفيهم الأدباء من حملة القلم ، وفيهم ، وفيهم . فإن هذا التمحيص وما يستتبعه من موازنة وترجيح ، لا يميل بقدر أحد من أولئك العظماء ، من الحد الذي يهوي فيه إلى منازل السوق .

العابرة

كثيراً ما تكون العظمة امتداداً في موهبة من مواهب النفس ، بل كثيراً ما يكون هذا الامتداد على حساب المواهب الإنسانية الأخرى . فإما أصابها بالضمور والشلل ، وإما ردت النواحي الأخرى من شخصية العظيم إلى مثيلاتها في سائر الناس ، بل قد تكون أبعد سقوطاً وأشد ضراوة !! ومن هنا لا تعدم في سيرة كل عظيم من أولئك المشهورين نقطة سوداء وجانباً غامماً .

كان نابليون قائداً محنكاً مسعر حروب ، ولكنه كان ساقط الخلق ،
فاحش القدر .

وكان جاك روسو أديباً ثائراً ، من أعظم واضعي دساتير الحرية في العالم ،
ولكنه كان معوج السلوك ، هزيل الشرف .
وكان بسمارك داهية في السياسة لا يبارى ، وكان كذلك كذاباً مزوراً

وهناك من الفلاسفة والشعراء ، والمفكرين والمخترعين ، من تفحنتك في
أحوالهم وأعمالهم أمور شائنة ، تستغرب كيف يصدر مثلها عنهم !!
وهم - مع هذا كله - عباقرة ، لأن انتاجهم العلمي والأدبي ، وتراثهم
الرائع الفريد ، يسمو بهم فوق مستوى العامة ، والذين ظهرت سيرهم من
هذه الشوائب ، تراهم مبرزين في ناحية ، ومعتادين في ناحية أخرى ، أو
مرضى بما يفسد عليهم أفكارهم .

فأبو العلاء الأديب الرقيق المتشائم ، لو وهب معدة قوية ، أو بصراً حاداً
، لكان لفلسفته اتجاه آخر غير التبرم بالدنيا ، وتسخطُ الوجود فيها .
ومن أعظم زعماء العلماء من تراه أسير عقدة نفسية ، أو شذوذ جنسي
، أو أثر حادة !

ومنهم المصابون بجنون العظمة وتقديس الذات ، وكرهية شيء معين أو
محبة !

ولذلك تتسم حياتهم بالنقائص الموزعة على جانب مستور منهم ،
وجانب مكشوف للجماهير ، لا غبار عليه . وقد اعتبرت الحضارة الأوروبية

هذا التناقض شيئاً عادياً مألوفاً ، ومن ثم أباحت للعظماء أن تكون لهم شخصية مزدوجة ، ورأت أن تنتفع الأمم بمواهبهم ، وأن تتجاوز لهم عن سقطاتهم . والانجليز يعرفون أن « نلسن » مات وهو يختلس عرض غيره ، ولكنهم يفضون الطرف . ويعرفون أن « تشرشل » خان عهداً شخصية واجتماعية ، بيد أنهم يتعاملون عنها . فلندع هذا الفريق المعداد من زعماء العالم ولترتفع . أجل لترتفع كثيراً ، لنصل إلى مستوى أكرم وأطيب ، ولنتكلم عن صنف آخر .. هم

الأنبياء

لئن كانت العبقريّة امتداداً في موهبة واحدة ، أو في جملة مواهب ، إن النبوة امتداد في المواهب كلها ، واكتمال عقلي وعاطفي وبدني ، وعصمة من الدنيا ، ورسوخ في الفضائل ، وعراقة في التُّبُل والفضل .

هُمُ الرِّجَالُ الْمَصَابِيحُ الَّذِينَ هُمْ كَأَنَّهُمْ مِنْ نَجْمٍ حَيَّةٍ صُنَعُوا
أَخْلَاقُهُمْ نُورُهُمْ مِنْ أَيِّ نَاحِيَةٍ أَقْبَلَتْ تَنْظُرُ فِي أَخْلَاقِهِمْ سَطَعُوا
فَالَّذِينَ يُرْسِحُونَ لِلنَّبْوَةِ يُصْطَفُونَ هَا اصْطَفَاءً .

قلوب نقية تربطها بالملا الأعلى أواصر الطهر والصفاء . وعقول حصيفة ناضجة ، لا تتخدع عن حقائق الأشياء ، ولا يصيبها ما أصاب كبار الفلاسفة ، من شرود وعماء . وأجسام مرآة من العلل الخبيثة ، والأمراض المشوهة أو المنفرة . وصلة بالناس قوامها البر والخير . فليس يتصور في حق نبي لله ، أنه أحلّ بنق المروءة والفضل ، بلّة أن يرتكب ما يخذش الشرف ، أو يقدح في العصمة !

ثم إن الرسل أمناء على الوحي السماوي ، والهداية الاسلامية ، فكلامهم حكمة ، وحياتهم أسوة ، سريرتهم وعلايتهم سواء ، ليست لأحدهم صفة مطوية ، وصفحة مكشوفة .

طرائق معيشتهم الخاصة كمناهج دعوتهم العامة ، تنضح عفافاً واستقامة . ظلوا بين الناس ما شاء الله ، فكانت مجتمعاتهم بركة ، ثم قبضوا فخلفوا . أقدس مواريث ، وأقدس تركة ، وحسبك أنهم خيرة الله من خلقه ، ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَخْتَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام |] ، ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٧٦) ﴿[الحج |] . وأقدار الرسل تتفاوت سناء وسمواً .

فالرسول في قبيلة معدودة ، أفضل منه الرسول لمدينة فيها مائة ألف أو يزيدون ، أفضل منه الرسول لشعب بأسره .

وصاحب الكتاب المستقل أفضل ممن يحكم بشريعة سابقة ، ولا نزال نرقى في مراتب العظمة ، ولا نزال نخلق صعوداً نحو القمة ، ولا نزال نقطع أشواطاً بعد أشواط في مدارج الكمال البشري ، حتى نصل إلى مستوى تنحسر دونه أبصار العباقرة مهما طمحت ، وتنظامن عنده أقدار الأنبياء مهما عظمت ، لنجد صاحب الرسالة العظمى إلى خلق الله قاطبة ، ملتقى الفضائل المشرفة ، ومظهر المثل العليا ، التي صورتها الخيالات ثم صاغها الله انساناً يمشي على الأرض مطمئناً .

ذلكم هو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وذلكم منزله بين عباقرة الأرض وأمناء الوحي !

أفق للمجد يزهر على كل أفق ، وتسطع فيه أشعة متموجة تنطلق بالحب والحنان والرحمة ، والعقل والفراصة والحكمة . هيهات هيهات أن يدرك كنه ذلك أحد ، فالعظيم لا يعرفه إلا عظيم مثله ، ومن كمحمد في الناس !!؟
كيف ترقى رفيك الأنبياء يا سماء ما طاولتها سماء
لم يساووك في علاك وقد حال ساء منك دونهم وسناء

مسك الختام

كان المرسلون الأولون مصاييح تضيء في جوانب الليل الذي ألقى
بجرائنه على أنحاء الدنيا ، فلما بدأ فجر الانسان ينشق عنه الظلام ، وبدأت
أشعة الرسالة العامة تتهادى في الأفق ، انتقل العالم من عهد إلى عهد .
لا تذكروا الكتب السوالف قبله طلع الصباح فأطفأ القنديلا
والكلام في عظمة الشخصية التي حملت عبء هذه الرسالة يطول ،
وحسبنا أن الله عز وجل جمع في سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم من
شارات السيادة والنبالة ، ما تفرق في النبيين من قبل .

ولقد ذكر الله أسماء ثمانية عشر نبياً ، فيهم أولو العزم وأصحاب
الرسالات الأولى ، ثم قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ
فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُولَئِكَ
الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَيُهَادُّهُمْ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
لِّلْعَالَمِينَ (٩٠)﴾ [الأنعام] .

وهذا الأمر بالاقتراء كان ماثلاً في ذهن النبي صلى الله عليه وآله وسلم
وهو يقوم بتبليغ الدعوة . فلما طعن أحد المنافقين في تصرف له وهو يقسم

الغنائم قائلاً: هذه قمسة ما أريد بها وجه الله . كظم النبي صلى الله عليه وآله وسلم غيظه وقال: « رحم الله موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصير » .
ومن ثم قال المفسرون في شرح هذه الآية: إنما تومئ إلى فضل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على من سبقه .
فإن حصال الكمال التي توزعت عليهم ، التقت أطرافها في شخصه الكريم .

كان نوح صاحب احتمال وجلّد وصبر على الدعوة .
وكان إبراهيم صاحب بذل وكرم ومجاهدة في الله .
وكان داود من أصحاب الشكر على النعمة وتقدير آلاء الله .
وكان زكريا ، ويحيى ، وعيسى من أصحاب الزهادة في الدنيا ،
والاستعلاء على شهواتها .

وكان يوسف ممن جمع بين الشكر في السراء والصبر في الضراء .
وكان يونس صاحب تضرع وإخبات وابتهاال .
وكان موسى صاحب شجاعة وبأس وشدة .
وكان هارون ذا رفق .

حتى تنظر إلى سيرة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعد هذه السير السابقة ، فتراها كالبحر الخضم تصب فيه الأنهار .
فمبلغ العلم فيه أنه بشرٌ وأنه خيرُ خلق الله كلهم

موئل البطولات

من ذوي المواهب من يعيشون في عزلة قصية عن الجماهير ، ويؤثرون البقاء في البرج العاجي ، عما تستتبعه مخالطة الناس ، من سخط وتبرم .

ومنهم من يلقي بنفسه في معترك الحياة ومعه عدة النجاح ، مع عمق النظرة ، وذكاء الفكرة ، والبصر النافذ إلى أدواء الشعوب وأدويتها . غير أنه مع هذه المواهب الجليلة ضيق العاطفة ، لا يآلف إلا القليلين ممن هم على شاكلته في المزاج ، أو من يتفقون معه في الأهداف .

ومن العظماء من أوتي امتداداً في شخصيته ، وبسطة في مشاعره ، تحرف الناس إليه ، وتعلق القلوب به . ولسنا نقصد بهذا قوة السيطرة على العامة ، والقدرة على تحريكهم وتسخيرهم ، كلا كلا . وإنما نقصد هذا النوع من العظماء الذي يلتف به أصحاب الكفايات الكبيرة ، ويرمقونه بالإجلال ، ويقدمونه على أنفسهم ، عن طوعية واختيار .

وقد ظهر أفراد قلائل من زعماء الشعوب على هذا الغرار الفذ ، وتركوا في تاريخهم أثراً لا يمحي .

على أن الانسانية لم تعرف في ماضيها الطويل - ولن تعرف - رجلاً وقره الأبطال وكرمه العظماء ، وانطبعت محبته في شغاف القلوب ، كما عرف ذلك في النبي الكريم ، محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

كان أصحاب الشجاعة في القتال يحبونه ، لأنه أشجع منهم حين تحمر الحدق ويشند البأس .

وكان أصحاب الخندق في السياسة والتدبير يحبونه ، لأنهم يرونه أكثر منهم مرونة ، وأرحب أفقاً .

وكان الأحماد الأسخاء يرونه وقد ملك وادياً من الإبل والغنم ، فما غربت عليه الشمس إلا وهو منبج وهدايا للطالين والراغبين .
وكان العبّاد يرونه صواماً قواماً ، والزهاد يرونه عفيفاً مترفعاً ،
وأصحاب البيان واللسان يرونه فصيحاً معرباً . حتى المعجبون بالقوى المادية ،
كانوا يرونه مصارعاً يهزم العمالقة .

وهكذا ما عرف أحد من العظماء ميزة في نفسه يفخر بها ، إلا وجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على خلق أعرق منها وأرقى . ولذلك يرفع إليه بصره مثلما يرفع الناس أبصارهم إلى القمم الشواقق التي لا تنال ! ومع هذا الجلال الفارع ، وذلك الامتياز الرائع ، فقد كان هذا الرسول الأمين قريباً بسهولة طبعه من كل فرد ، فما يعز مناله على أرملة أو مسكين ، بل بلغ من اتساع عواطفه وتدفق مشاعره ، أن كل فرد كان يحس في نفسه أنه آثر الناس عند رسول الله ، وأقرهم إليه ، وأعزهم عليه . كالشمس ترسل أشعتها فيستمتع الجميع بها ، وبأخذ كل امرئ حظه من الدفء والحرارة والمتعة ، لا يحس بأن أحداً يشاركه فيها ، أو يزاحمه عليها . كذلك كان محمد صلى الله عليه وآله وسلم مع صحابته ، يأوون من نفسه الكبيرة إلى كنف رحيم .

الوصف بالعبرية

يقولون: إن النبوة هبة لا كسب ، وفضل يغدق ، لا نصيب يطالب به ويسعى إليه ، وهذا حق ﴿ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ﴾ [الزحرف: ٣٢] ، ﴿

أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمْ الْمَصْطَرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلَيَا تِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) ﴿الطُّور﴾ .

يَبْدُ أَنْ هَذَا الْحَرَمَ لَا يَتَرَلَّ اتِّفَاقًا ، وَلَا يَدْرِكُ اعْتِبَاطًا !

وقد حاول شاعر في الجاهلية - بكثرة الكلام في الإلهيات - أن يكون نبياً ففشل ، وتوقع نفر من الأخبار والرهبان أن يصيروا هذا الشرف ، فقام مع تشوقهم إليه ورغبتهم فيه . إن الله سبحانه وتعالى يختار لهذا المنصب العظيم أهله !!

وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الْعَصْمَةَ تَمْنَعُ الْمَخْنةَ وَالْإِبْتِلَاءَ ، أَوْ أَنَّ الرِّسْلَ الْكَرَامَ لِيَسُوا أَكْثَرَ مِنْ حَمَلَةٍ وَحِي ، وَظَيَّفَتْهُمْ التَّبْلِيغَ الْمَجْرَدَ ، كَانَ أَحَدُهُمْ مَكْرٍ صَوْتِ تَنْفَخٍ مِنْ وَرَائِهِ الْمَلَائِكَةُ ، فَلَيْسَتْ لَهُ مَوَاهِبُ ، وَلَا اسْتِعْدَادٌ خَاصٌّ ، وَلَا امْتِنَازَاتٌ رَفِيعَةٌ .

مَنْ ظَنَّ ذَلِكَ فَقَدْ ضَلَّ فِي فَهْمِ الْمُرْسَلِينَ ، وَجَهَلَ مَا حَبَاهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنْ خِلَالٍ ، تَجْعَلُ أَعْظَمَ فَلَاسِفَةِ الْأَرْضِ لَا يَصِلُ إِلَى مَصَافِ أَقْدَامِهِمْ .

إِنَّ الْكُتَّابَ الَّذِينَ أَلْفَوْا فِي سِيرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَوَصَفُوهُ بِالْعَبْقَرِيَّةِ ، يُمْكِنُ أَنْ نَقْبَلَ مِنْهُمْ هَذَا الْوَصْفَ بِخَدَرٍ وَبِقَدَرٍ .

نَقْبَلُهُ إِذَا كَانَ الْقَصْدُ مِنْهُ كَشْفُ النَّقَابِ عَنْ مَعَالِمِ الْعِظَمَةِ الشَّخْصِيَّةِ ، وَإِلْقَاءِ ضَوْءٍ عَلَى الْبَطُولَةِ الْأَدْبِيَّةِ لِأَوَّلِنَاكَ الْمَصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ .

وَنَقْبَلُهُ إِذَا كَانَ الْقَصْدُ مِنْهُ الْاعْتِرَافُ بِمَبْدَأِ الْوَحْيِ الَّذِي يَصِلُ الْمَادَّةَ بِمَا وَرَاءَ الْمَادَّةِ ، وَهَذَا هُوَ أَسَاسُ النَّبِيِّ الْأَوَّلِ .

ونرفضه إذا كان وصفاً لعظمة إنسانية معتادة ، تسلك صاحبها مع غيره
 من رجال التاريخ البارزين .
 ذلك موقف المسلم من جبهة المؤلفين والمؤرخين ممن كتبوا في حياة النبي
 الأمين "



ترجمة المؤلف

من الجدير بالذكر أن لخراسان وما جاورها من المناطق صلة وثيقة وفديمه ، بالنشيع لأهل البيت عليهم السلام عموما ، ولأئمة الزيدية ودعائهما خصوصا ، فالإمام يحيى بن زيد بن علي عليه السلام لاذ بخراسان وفجر ثورته من هنالك ، وأحبه الناس حتى أنه عام قتل واستشهد لم يولد ولد في خراسان إلا وسمي: يحيى ، ومشهده على مشارف الجوزجان مشهور مزور .

ومن بعده الإمام يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، والذي توجه أيضا إلى خراسان ، وكان الحسن بن زيد الملقب بالداعي الكبير مع يحيى بن عمر حين خرج إبان خلافة المتوكل والمستعين ، ولما قتل يحيى ، والذي سبق أن خرج إلى خراسان ، خرج الحسن هاربا وداعيا مع بعض أصحابه إلى الديلم ، ثم إلى طبرستان حيث نشر دعوته ، فبايعه أهلها عام (٢٥٠هـ) ، ثم غزا بعد ذلك الري - طهران - ثم خرجان إلى أن توفي عام (٢٧٠هـ) .

ثم تولى بعده أخوه الإمام محمد بن زيد ولقب بالداعي الصغير ، لأن بعض الزيدية لم يعدها من الأئمة ، بل من الدعاة ، ولهذا لقبا بالداعيين . وخرج الإمام الهادي يحيى بن الحسين عليه السلام إلى آمل قبل ظهوره في اليمن ، فزل الإمام الهادي عليه السلام مع أصحابه ومنهم أبوه ، وبعض عمومته فندقا ، فامتأل الفندق بالناس حتى كاد السطح أن يسقط وعلا صيته في آمل ، حتى خافه محمد بن زيد ، فكتب إليه الحسن بن هشام ، وكان وزيرا لمحمد بن زيد بأن ما يجري يوحش ابن عمك . فقال: ما جئنا ننازعكم

أمركم ، ولكن ذكر لنا أن لنا في هذه البلدة شيعة وأهلا ، فقلنا: عسى الله أن يفيدهم منا ، وخرجوا مسرعين ، وثياهم عند الخياط لم يسترجعوها .

وأقام الإمام الناصر الأطروش دولة إسلامية هنالك .

من هنا نرى أن طبرستان والأقاليم المجاورة لها ، كانت أرضا خصبة لتقبل الفكر الزيدي ، فليس غريبا أن تنشأ فيها الدولة الزيدية والتي استمرت عدة قرون .

المؤلف

هو الإمام المؤيد بالله أبو الحسين ، أحمد ، بن الحسين ، بن هارون ، بن الحسين ، بن محمد ، بن هارون ، بن محمد ، بن القاسم ، بن الحسن ، بن زيد ، بن الحسن ، بن علي ، بن أبي طالب عليهم السلام .

أبوه

هو الحسين ، بن هارون ، كان من أعبان أصحاب الناصر الأطروش ، وكان إمامي المذهب .

أمه

أم الحسن ، بنت علي ، بن عبد الله الحسيني العقيقي .

مولده

ولد بآمل طبرستان في الكلاذجة (محافظة مازندران حاليا) تقع في شمال إيران على بحر الخزر . ولد سنة (٣٣٣هـ) .

نشأته

نشأ في أحضان أسرة علوية كريمة ، تترشف رحيق العلم العلوي ، وتنسم عبق الخلق النبوي ، " نشأ على السداد ، وأحوال الآباء الكرام والأجداد ، وتأدب في عنفوان صباه حتى برع فيه " (١) .

أخذ في طلب العلم والتوفر على المعرفة منذ نعومة أظفاره ، مع أخيه الناطق بالحق أبي طالب يحيى بن الحسين .

شيوخه

- ١— أبو العباس أحمد ، بن إبراهيم ، بن الحسن الحسيني (خاله) .
- ٢— أبو الحسين ، علي ، بن إسماعيل ، بن إدريس .
- ٣— أبو عبد الله البصري شيخ المعتزلة المتوفى سنة (٣٧٧هـ) .
- ٤— قاضي القضاة عبد الجبار ، بن أحمد ، بن عبد الجبار ، شيخ المعتزلة المتوفى سنة (٤١٥هـ) .
- ٥— قاضي القضاة أبو أحمد ، بن أبي علان .
- ٦— أبو بكر المقرئ أحد علماء الحنفية .
- ٧— الحافظ محمد ، بن عثمان النفاش .
- ٨— أبو رشيد ، سعيد ، بن محمد النيسابوري .

تلامذته

- ١- الإمام الموفق بالله أبو عبد الله الحسين ، بن إسماعيل الحسيني ، والد الإمام المرشد بالله ، وصاحب كتاب « الإحاطة » في علم الكلام ، وكتاب « الإعتبار وسلوة العارفين في الزهد » .
- ٢- الإمام أبو الحسين أحمد ، بن أبي هاشم ، المعروف بالشريف « مانكديم » وهو الذي قام بالإمامة بعده بـ « لنجا » سنة (٤١٧هـ) .
- ٣- الشريف أبو جعفر الزيدي ، الزاهد العابد ، الذي استدعاه المؤيد بالله عليه السلام ليستخلفه أكثر من مرة فأبى .
- ٤- الفقيه أبو القاسم ، بن تال اخوسمي الزيدي المتكلم ، راوي المذهب عن المؤيد بالله ، وجامع « الإفادة » ، والزيادات « المتوفي سنة (٤٢٠هـ) .
- ٥- علي بن بلال الآملي الزيدي ، مولى السيد المؤيد بالله وأخيه أبي طالب ، وصاحب كتاب « الوافي » وتمة « مصابيح أبي العباس الحسيني » .
- ٦- القاضي يوسف الخطيب الجيلاني صحبه ستة عشر عاما .
- ٧- القاضي أبو الفضل زيد ، بن علي الزيدي .
- ٨- أبو منصور ، بن شيبه الفرزاذي .
- ٩- الشريف أبو القاسم ، بن زيد ، بن صالح الزيدي .
- ١٠- الشريف محمد ، بن زيد الجعفري .
- ١١- القاضي أبو بكر الموحدي .
- ١٢- أبو الحسين الآبسكوي .
- ١٣- أبو علي ، بن الناصر الأطروش .

- ١٤— أبو الفوارس توران شاه ، بن خسرو شاه .
 ١٥— أبو عبد الله ، بن الحسين ، بن محمد سياه سريجان .
 ١٦— أبو القاسم يوسف ، بن كج الدينوري ، وكان إمام أصحاب الشافعي .

مؤلفاته

قال الموفق بالله: وله عليه السلام التصانيف المعجبة ، فمنها في الأصول: « كتاب النبوات » وهو يدل على غزارة علمه في الأصول ، ثم في الأدب ، فإنه بين المعارضات التي عورض بها القرآن الكريم ، وكشف عن إحاضها وأبان عوارها بكل وجه ، وسلك في ذلك من طريقة علم الأدب ما يدل على علو منزلته وارتفاع درجته .

وله في الأصول: « التبصرة » كتاب لطيف ، وله في فقه الهادي عليه السلام « كتاب التجريد » وشرحه أربعة مجلدات استوفى فيها الأدلة من الأثر والنظر ، وأحسن فيها كل الإحسان. وله « البلغة » أيضا في فقه الهادي عليه السلام ، وله في فقه نفسه « الإفادة » مجلد ، و « الزيادات » مجلد ، علق ذلك أصحابه عنه. وفيه كل مسألة عجيبة ، وفتوى غريبة. ولهذين الكتابين شروح وتعليق عدة ، ومهما طلبت الغرائب فلما توجد في فقهه عليه السلام منصوصة (١) .

من مؤلفاته:

- ١- كتاب إثبات النبوة. طبع عام (١٩٧٩م) ، وهو هذا الذي بين يديك
- ٢- كتاب التحرير . في فقه الهادي نجى بن الحسين وجده القاسم الرسي عليهما السلام .
- ٣- كتاب شرح التحرير ، تحت التحقيق .
- ٤- كتاب البلغة في الفقه .
- ٥- كتاب « الإفادة في الفقه » . ويسمى أيضاً « التفرعات » ، تولى جمعها تلميذه أبو القاسم بن تال: ويتضمن آراءه الفقهية وعليه زيادات وشروح وتعليق عدّة .
- ٦- كتاب « الزيادات » . فتاوى ومسائل عليه زيادات ، وشروح ، وتعليق عدة ، منها شرح القاضي أبي مضر .
- ٧- كتاب « نقض الإمامة على ابن قبة الإمامي » . صنفه في شبابه .
- ٨- كتاب « إعجاز القرآن في علم الكلام » . ذكره الجنداري في رجال الأزهار .
- ٩- كتاب « التبصرة » — وقد طبع بتحقيقي — عليه تعليق لإسماعيل الرازي ، وشرح للإمام الهادي الحسن بن نجى القاسمي .
- ١٠- تعليق على شرح السيد مانكندم. ذكره الجنداري في رجال الأزهار
- ١١- الهوسميات. ذكره الجنداري في رجال الأزهار .
- ١٢- كتاب الحاصر لفقه الناصر. ذكره حُميد في الحقائق الوردية في ترجمة الناصر الأطروش .
- ١٣- سياسة المريدين .
- ١٤- رسالة جواب قابوس في الطعن على الصحابة. ذكره الحاكم

الجشمي في جلاء الأبصار .

١٥ - كتاب الدعوة .

١٦ - ديوان شعر . ذكره آغا بزرك الطهراني في الذريعة ج ٩/٣

ص ١١٢٧ . وقال: إنه ديوان ضخمة .

١٧ - كتاب الأمالي الصغرى . طبع .

علمه

خاض الإمام المؤيد بالله في كل بحر من بحار العلم والمعرفة ، والتقط
أنفس ما فيها ، فكان رأساً في علم الكلام ، والحديث ، والفقه وأصوله . أخذ
علم الكلام وفق منهج المدرسة البغدادية .

كان في الأصل إمامياً يرى رأيهم على طريقة والده ، بيد أنه كان متحرراً
الفكر ، لا يتقبل أي فكرة ويعتقها إلا بعد فحص وتدقيق ، وعندما رأى
بعض الأصول الإمامية لا تقوم على بينة من صريح العقل ، أو صحيح النقل ،
ورأى التناقض والتعارض البين في مروياتهم عن الأئمة ، أشاح بوجهه عنها ،
وأخذ في البحث والنظر عن شاطئ أمان يرسو عليه ، فألقى بعصاه واستقر به
النوى في رياض الزيدية ، وأحدث ذلك الانتقال هزة في صفوف الإمامية ، مما
حدا بالشيخ الطوسي المعاصر له إلى أن يؤلف كتابه الشهير « تهذيب الاحكام
» رداً عليه وتبييناً له .

قال الطوسي في مقدمة التهذيب: بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ولي الحمد ومستحقه ، وصلواته على خيرته من خلقه محمد
وآله وسلم تسليماً ، ذاكرني بعض الأصدقاء أيده الله ممن أوجب حقه علينا

بأحاديث أصحابنا أيدهم الله ورحم السلف منهم وما وقع فيها من الاختلاف والتباين والمنافاة والتضاد حتى لا يكاد يتفق خبر إلا وبإزائه ما يضاده ، ولا يسلم حديث إلا وفي مقابلته ما ينافيه ، حتى جعل مخالفونا ذلك من أعظم الطعون على مذهبنا ، وتطرقوا بذلك إلى إبطال معتقدنا ، وذكروا أنه لم يزل شيوخكم السلف والخلف يطعنون على مخالفهم بالاختلاف الذي يدينون الله تعالى به ، ويشنعون عليهم بافتراق كلمتهم في الفروع ، ويذكرون أن هذا مما لا يجوز أن يتعبد به الحكيم ، ولا أن يُبيح العمل به العليم ، وقد وجدناكم أشد اختلافاً من مخالفكم ، وأكثر تبايناً من مبانيكم ، ووجود هذا الاختلاف منكم ، مع اعتقادكم بطلان ذلك دليل على فساد الأصل ، حتى دخل على جماعة ممن ليس لهم قوة في العلم ، ولا بصيرة بوجوه النظر ومعاني الألفاظ شبهة ، وكثير منهم رجع عن اعتقاد الحق لما اشتبه عليه الوجه في ذلك ، وعجز عن حل الشبهة فيه ، سمعت شيخنا أبا عبد الله أيده الله يذكر أن أبا الحسين الماروني العلوي كان يعتقد الحق ويدين بالإمامة ، فرجع عنها لما التبس عليه الأمر في اختلاف الأحاديث وترك المذهب ودان بغيره (١) .

كان الإمام المولود بالله ذا عارضة قوية ، وقرينة صافية ، وبديهة حاضرة ، ولسان حاد ، محاوراً من الطراز الأول ، يناظر ويخاور علماء المسلمين واليهود ، فلا يسعهم إلا التسليم له ، والإذعان لحجته .

قال الشهيد حميد: كان وحيد عصره ، وفريد دهره ، والحافظ لعلوم العترة عليهم السلام ، والناصر لفقه الذرية الكرام (١) .

وقال أيضاً: كان عليه السلام (بخراً يقذف بالدرر ، وجونا يهطل بالدرر ، لم يبق فن إلا وقد بلغ فيه الغاية ، وأدرك النهاية) (٢) .

وقال مصنف سيرته الإمام الموفق بالله: كان عارفاً باللغة والنحو ، متمكناً من التصرف في منثورها ومنظومها ، وكان يعرف العروض والقوافي ونقد الشعر ، وكان فقيهاً بارعاً متقدماً فيه مناظراً. وكان متقدماً في علم الكلام وأصول الفقه ، حتى لا يعلم أنه في أي العلوم الثلاثة كان أقدم وأرجح. ولم يبلغ النهاية في العلوم الثلاثة غيره ، وإنما تقدم في علم أو علمين. وكان قد قرأ على الشيخ المرشد أبي عبد الله البصري ، ولقي علماء جميع عصره واقتبس منهم. وعلق زيادات الشرح بأصفهان عن قاضي القاضاة بقراءة غيره. وحكي عن الشيخ أبي رشيد أنه قال: لم أرَ السيد أبا الحسين منقطعاً قط مع طول مشاهدتي له في مجلس صاحب ، وكان لا يُغلب إن لم يُغلب ، وكانا يستويان إن لم يظهر له الرجحان .

وذكر بعض من صنف في أخباره ، أن صاحب الكافي قال ذات ليلة للحاضرين: ليدكر كل واحد منكم أمنيته ، فذكروا ، فقال: أما أنا فأمني أن يكون السيد أبو الحسين حاضراً وأنا أسأله عن المشكلات وهو يبينها لي بألفاظه الفصيحة وعباراته المليحة. وكان قد فارقه إلى أرض الديلم .

(١) الحدائق الوردية ٦٥/٢ .

(٢) الحدائق الوردية ٦٧/٢ .

ويُحكى أن يهودياً متقدماً في المناظرة والمجادلة قدم على صاحب ، فاتفق أنه حضر مجلس صاحب ، فكلم اليهودي في النبوات حتى أعجزه وأفحمه ، فلما قام من المجلس ليخرج قال له صاحب: أيها السيد أشهد أنك أوتيت الحكمة وفصل الخطاب .

وحكى عنه قدس الله روحه أنه قال: عزمت على أن أسافر إلى الأهواز للقاء قاضي القضاة أبي أحمد بن أبي علان وسماع مختصر الكرخي عنه ، فأنهيت إلى صاحب ما وقع في قلبي ، فكتب كتاباً بخط يده وأطبب في وصفي ورفع عن قدري حتى كنت أستحي من إيصال ذلك الكتاب ، فأوصلت الكتاب إلى قاضي القضاة ، فقال: مرحباً بالشريف فإذا شاء افتتح المختصر. ولم يزد على ذلك ولا زارني بنفسه مع تقاعدي عنه من الغد ، ولا أزارني أحداً من أصحابه .

فعلمتُ أنه اعتقد في كتاب صاحب أنه صدر عن عناية صادقة لا عن حقيقة. فقعدت عنه ، حتى كان يوم الجمعة حضرت الجامع بعد الظهر ومجلسه غاص بكبار العلماء ، فقد كان الرجل مقصوداً من الآفاق ، فسل القاضي أبو أحمد مسألة كلامية ، وكان لقي أبا هاشم فقلت لما توسط في الكلام: إن لي في هذا الوادي مسلماً ، فقال: تكلم ، فأخذت في الكلام وحققت عليه المطالبات ، ثم أوردت أسئلة عرّفتُ فيها جيبه ، فامتدت الأعين نحوي. فقلت بعد أن ظهرت المسألة عليه: يقف على فضلي القاضي. وسئل شيخ إلى جنبه عن مسألة في أصول الفقه ، فلما أنهى السائل ما عنده قلت: إن لي في هذا الجوّ متنفساً ، فقال القاضي: والأصول أيضاً؟! فحققت تلك

المسألة على ذلك الشيخ ، فظهر ضعفه ، فسأحته . وسئل شيخ عن يساره عن مسألة في الفقه فقلت: لي في هذا القطيع شاة ، فقالوا: والفقه أيضاً؟! فأوفيت الكلام في تلك المسألة أيضاً حتى تعجب الفقهاء من تحقيقي وتدقيقي ، فلما ظهرت المسألة كان المجلس قد انتهى . فقام القاضي من صدره وجاء إلى جنبي فقال: أيها السيد نحن ظننا أن الصدر حيث جلسنا فإذا الصدر حيث جلست ، فحنتك نعتذر إليك من تقصيرنا في بابك . فقلت: لا عذر للقاضي مع استخفافه بي مع شهادة صاحب بخطه . فقال: صدقت لا عذر لي ، ثم عادني من الغد في داري مع جميع أصحابه وبالغ في التواضع ، فحضرت فقرأت عليه الأخبار المودعة في المختصر فمسمعتها بقراءته ، وأمدني بأموال من عنده ، فرددتها ولم أقبل شيئا منها ، وقلت: ما حنتك عافياً مستمنحاً ، فقد كان حضرة صاحب أوفى حالاً وأسهل منالاً ، ولم يكن هناك تقصير في لفظ ، ولا تفريط في لفظ ، ففارقته فشيوعي مع أصحابه مسافة بعيدة ونأسفوا على مفارقتي ."

وقال أيضاً: وسمعت الشيخ أبا الفضل ابن شروين رحمه الله يقول: دع أئمة زماننا ، إنما الشك في الأئمة المتقدمين من أهل البيت وغيرهم ، هل كانوا مثل هذا السيد في التحقيق في العلوم كلها أم لا؟! قال: وسمعت القاضي أبا الحسين الرقاء يقول: ليس اليوم في الدنيا أشد تحقيقاً في الفقه من السيد أبي الحسين الهاروي .

وحكى أن المؤيد بالله سئل عن الطلاق الثلاث بلفظة واحدة في مجلس
الصاحب ، فكلمه القاضي أبو القاسم بن كج ، وكان إمام أصحاب الشافعي
، وآل الكلام إلى جميع من حضر من الفقهاء ، فانقطعوا في يده ، فقال
الصاحب: يقال: لا علم لطائفة فيهم هذا الأسد ، يعني المؤيد بالله .

وحكى أنه ورد عليه من كلار مسائل صعبة على أصول الهادي ،
فأحاح عنها ، وهذه المسائل موجودة ، فقال الصاحب: لست أتعجب من
هذا الشريف كيف أتى بهذا السحر ، وإنما أتعجب من رجل بكلار كيف
اعتدى إلى مثل هذه الأسئلة (١) .

وقال الشهيد حميد: ولقد حكى لي بعض أصحابنا الواصلين من ناحية
العراق ، وهو الفقيه الفاضل الحسن بن علي بن الحسن الديلمي اللنجاني
رضي الله عنه ، أنه بات ليلة من الليالي ومعه رجل من الصالحين ، فبات ذلك
الرجل يعبد الله عز وجل والسيد المؤيد بالله بالقرب منه ، فلما طلع الفجر قام
المؤيد للصلاة ، فقال له ذلك الرجل: أيها السيد أتصلي بغير وضوء؟! فقال:
لم أتم في هذه الليلة شيئا ، وقد استنبطت سبعين مسألة. ولقد كان علماء
عصره يعجبون من تحقيقه وشدة تدقيقه. ولا عجب من أمر الله يؤتي فضله من
يشاء ، ولذرية الرسول صلى الله عليه وآله المزية على من عداهم ، والفضل
على من سواهم .

ولقد سمعت شيخنا الفاضل العالم محيي الدين محمد بن أحمد بن الوليد
القرشي الصنعائي رضي الله عنه يحكي أن السيد المؤيد بالله قدس الله روحه ،

لما توفي وأقبل الناس إلى أخيه السيد أبي طالب عليه السلام يسألونه ، فقال له قائل: أين كان هذا العلم في حياة السيد أبي الحسين؟! فقال: أو كان يحسن بي أن أتكلم والسيد أبو الحسين في الحياة؟! مع أن علم السيد أبي طالب غزير ، وفهمه جم كثير ، على ما نحكي ذلك .

وروينا أنه قيل لأخيه السيد أبي طالب عليه السلام: أنقول بإمامة أخيك؟ فقال: إن قلنا بإمامة زيد بن علي ، فما المانع من القول بإمامة أخي؟! فانظر كيف شبهه عليه السلام بأعلى الأئمة قدراً ، وأغزرهم علماً ، لأننا قد بينا أنه أقام خمسة أشهر يفسر سورة الحمد والبقرة ، وذكرنا غير ذلك مما يكثر ^(١) .

وقال أيضاً: كان في بعض الليالي يطالع مسألة مع الملحة الدهرية ، فاشتبه عليه جواب مسألة ، فأمر باتخاذ مشعلة وقصد باب قاضي القضاة ، بعد قطع من الليل وهدوء الناس والأصوات ، فأخبر قاضي القضاة بحضوره ، فاشتغل خاطره وهياً مكاناً وجلس فيه حتى إذا دخل عليه وجاراه في تلك المسألة وانفتح له جوابها واتضح لديه ما كان منها ، قال له قاضي القضاة: هلا أخرت إلى الغد وتعتيت في هذا الوقت؟ فقال المؤيد مغضباً من كلامه متعجباً: ما هذا بكلام مثلك!! أئيجوز لي أن أبيت وقد أشكلت علي مسألة ، ويمكنني أن أجتهد في حلها؟! فاعتذر إليه قاضي القضاة وقال: إنما ذكرت هذا الكلام على الرسم الجاري من الناس ، وطيب قلبه وعاد إلى منزله ^(٢) .

(١) أخبار أئمة الزيدية / ٢٦٨ - ٢٦٩ .

(٢) أخبار أئمة الزيدية / ٢٧١ .

وقال الموفق بالله: وحُكِيَ أَنَّهُ وَقَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَاضِي الْقَضَاءِ وَحِشَّةً وَاسْتِرَادَةً بِسَبَبِ مَسْأَلَةِ الْإِمَامَةِ ، فَتَقَاعَدَ عَنْ لِقَائِهِ حُدُودَ شَهْرٍ ، حَتَّى رَكِبَ إِلَيْهِ قَاضِي الْقَضَاءِ وَقَالَ لَهُ: قَدْ بَلَغَكَ حَدِيثُ جَدِّكَ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ وَأَخِيهِ الْحُسَيْنِ وَقَوْلَ الْحُسَيْنِ: لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ فَضَّلَكَ فِي السَّنِ عَلَيَّ حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ يَكُونَ السَّبِقُ لَكَ إِلَى كُلِّ مَكْرَمَةٍ ، لَسَبَقْتُكَ إِلَى فَضْلِ الْعِزِّ ، فَإِذَا قَرَأْتَ كِتَابِي هَذَا فَاسْبِقْ إِلَى مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكَ مِنْ حَقِّ السَّبِقِ ، وَالْبَسْ نَعْلَكَ وَقَدِّمْ فِي الْعِزِّ وَالصِّلَحِ فَضْلَكَ. فَقَالَ الْمُؤَيَّدُ بِاللَّهِ: قَدْ أَطَاعَ قَاضِي الْقَضَاءِ أَيْضًا فَضْلَ سَهْمِهِ وَعِلْمَهُ ، وَعَمِلَ بِمَقْتَضَى مَا زَادَهُ اللَّهُ مِنْ سَهْمِهِ ، وَاعْتَنَقَا وَطَالَتِ الْخُلُوةُ وَالسَّلُوةُ بَيْنَهُمَا .

وَكَانَ الصَّاحِبُ يَقُولُ: النَّاسُ يَتَشَرَّفُونَ بِالْعِلْمِ وَالشَّرَفِ ، وَالْعِلْمُ تَشْرَفُ بِقَاضِي الْقَضَاءِ ، وَالشَّرَفُ أَزْدَادُ شَرَفًا بِالشَّرِيفِ أَبِي الْحُسَيْنِ .

وَكَانَ الصَّاحِبُ يَعِظُهُ كُلَّ الْإِعْظَامِ ، وَكَانَتْ يَمِينُهُ لِلْسَيِّدِ الْمُؤَيَّدِ بِاللَّهِ ، وَيَسَارُهُ لِقَاضِي الْقَضَاءِ ، وَكَانَ لَا يَرْفَعُ فَوْقَ الْمُؤَيَّدِ أَحَدًا ، إِلَى أَنْ قَدَّمَ الْعُلُوِي رَسُولًا مِنْ خِرَاسَانَ وَكَانَ مُحْتَشِمًا عِنْدَ السُّلْطَانِ مَلِكِ التُّرْكِ الْخَاقَانَ الْأَكْبَرِ مُبْجَلًا عِنْدَهُ ، حَتَّى أَنَّ الصَّاحِبَ اسْتَقْبَلَهُ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ أَجْلَسَهُ عَنْ يَمِينِهِ ، فَلَمَّا دَخَلَ الْمُؤَيَّدُ بِاللَّهِ رَأَى عَلَى مَكَانِهِ فَتَحِيرَ ، فَأَشَارَ غَلِيهِ الصَّاحِبُ أَنْ يَرْتَفِعَ إِلَى السَّرِيرِ الَّذِي اسْتَدَّ إِلَيْهِ الصَّاحِبُ ، فَصَعِدَ الْمُؤَيَّدُ بِاللَّهِ إِلَى السَّرِيرِ وَجَلَسَ فِي الدِّسْتِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ (١) .

شعره

من شعره عليه السلام قوله:

تَهْدَبُ أَخْلَاقَ الرِّجَالِ حَوَادِثُ
وَمَا أَنَا بِالْوَالِي إِذَا الدَّهْرُ أَمَّنِي
بِلَانِي حِينًا بَعْدَ حِينٍ بِلَوْنِهِ
وَحُكْمِي كَيْمَا يَقُودُ أَرْمَنِي
لِيَعْلَمَ هَذَا الدَّهْرُ فِي كُلِّ حَالَةٍ
عَمَائِي آبَاءَ كِرَامٍ أَعَزَّةَ
مَا مُدْرِكُ بِاللَّهِ يَبْلُغُ شَاوَهُمْ
فَلَا يَرْفُقُهُمْ يَا صَاحِبَ إِنْ شِمْتَ خُلْبَ
بِهِمْ زَهَتْ الْأَعْرَابُ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ

وقال عليه السلام بمدح صاحب الكافي:

سَقَى عَهْدَهَا صَوْبَ مَنْ الْمُرْنُ هَاطِلُ
مَنَازِلُ نَجْمُ الْوَصْلِ فِيهِنَّ طَالِعُ
وَمُرْتَبِعُ لِلَّهِ بَيْنَ رُبُوعِهَا
رِيَاضُ حَكَّتْ أَبْرَادَ صَنْعَاءَ رُقْمِهَا
وَكُلُّ سَحَابٍ شَافَةَ الْأَرْضَ قُرْبُهُ
سَجَبْنَا عَطَافَ اللَّهِ فِي عَرَصَاتِهَا
وَطَابَتْ بِهَا الْأَيَّامُ إِذْ سَمَحَتْ لَنَا
وَكَانَ شَبَابِي عَاذِلًا لِعَوَازِلِي
نَعْمَنَا بِهَا لَمْ نَعْرِفِ الْبُؤْسَ وَالْأَسَى
كَأَنِّي أُغْرَى بِالصَّبَابَةِ كُلَّمَا

نَحَى بِهِ تِلْكَ الرُّبَى وَالْمَنَازِلُ
يُضْيِئُ وَنَجْمُ الْمَجَرِّ فِيهِنَّ أَقْلُ
مَسَارِحُهُ مَأْنُوسَةٌ وَالْمَنَاهِلُ
غَدَاةُ حَبَابِهَا الْوَشْيُ طَلٌّ وَوَابِلُ
كَأَنَّ التَّمَاعَ الرِّقَ فِيهِ مَشَاعِلُ
وَعَنْ لَنَا فِيهَا غَزَالٌ مَغَازِلُ
بِمَا سَمَحَتْ وَالْدَّهْرُ عَنْهُمْ غَافِلُ
وَلَيْسَ لَهَا فِي أَنْ تُعَاتَبَ طَائِلُ
فَلَا الْجَهْلُ مُتَنَابٌ وَلَا الْوَصْلُ رَاحِلُ
وَشَى بَيْنَنَا الْوَاشِي وَلَجَّ الْعَوَازِلُ

ليالي عَيْنِ الوصل فيها قريرة
 وإذا لَمَمِي للغانيات صوائدُ
 أحرُّ ردائي صبوةً وصباةً
 إلى أن بدا للشيب بين مفارقي
 فلأُتس عَنِّي حيثُ كنتُ تنكُبُ
 أنا الربيعُ الغضُّ في ثوب عفة
 إذا حاول الضلالُ إسعافَ أهله
 كذا مَنْ يسوسُ صاحبُ القرمُ أمره
 ولما انتحى الثَّورُ خدمةً بابَه
 غداً سيفه الظمآنُ في الله مُصلتنا
 وفصلُ خطاب لم تنله الأوائلُ
 تبلغُ عنه غُرَّةُ الدين والهدى
 دعا دعوةً لله جرَّدَ سيفها
 ولما شكت أرضُ الجبال خطوبها
 وأذرت دُموعاً مثلَ نائله الذي
 دعا نحوها عزماً كَبَا البرقُ دونه
 فسقَّ ظلام الظلم عن وجه أهلها
 وأوضح فيها للنجاة دلالاتُ
 ومن قبل ما حكمتُ قِي كل مارق
 صوارمٍ واصلن الطلي فالفنها
 وشردت من أبقت سيوفك منهم
 وليس لهم إلا السيوف منازلُ
 ألا أيُّها صاحبُ الماحدُ الذي

كما أن دمع الحجر أحرَقُ هاملُ
 ولي حَوْلَ ربّات الحجال حبايلُ
 هُما شيمٌ أرضى بها وشمائلُ
 أساطيرُ لم تنهض لهنَّ أناملُ
 وللهمَّ حولي حيثُ سرتُ قنابلُ
 فحاء به أنس من الغي حائلُ
 فمن دون ما يغني من الصَّوم خاملُ
 تنمُّ له التَّعْمى وتزكو الفضائلُ
 تنسكُ حتى ليسَ بنحوه باطلُ
 على منكب الجوزاء منه الحمائلُ
 إذا عَنَّ لم تشمخ بسحبانٍ وائلُ
 وشخص الردى من وقعه مُتضائلُ
 فللكفر منها حيثُ شاء زلازلُ
 ولأذت به حين اعترقها الغوائلُ
 يفيضُ وهل تُغني الدموعُ الهواملُ
 وكلُّ لديه السيفُ والسيفُ قاصلُ
 ولم يبقَ فيها عن سَنّا العدل عادلُ
 وقد غمرت تلك التَّهَى والدلائلُ
 أقامَ مقامَ الرّوح منه المناصلُ
 وإن قضايا المُرَهفات فواصلُ
 ومن دون ما لاقوه تطوي المراحلُ
 وليس لهم إلا الخُتوفُ رواحلُ
 أنامله العُليا غيوتُ هواطلُ

أنا ملّ لو كانت تُشِيرُ إلى الصفا تفجّر للعافين منها جداول
 لأغيت حتى ليس في الأرض مُعدّم وأعطيت حتى ليس في الأرض أمل
 وكم لك في أبناء أحمد من يد لها معلّم يوم القيامة مائل
 إليك عقيد المجد سارت ركائبهم وليس لهم إلا غلاك وسائل
 فأعطيتهم حتى لقد سئموا اللّهي وعاد من العُدال من هو سائل
 وأسعدتهم والنحس لولاك ناجم وأعززهم والذلّ لولاك شامل
 فكلّ زمان لم تزيّنه عاطل وكلّ مديح غير مدحك باطل
 ولما قال أحمد بن محمد الهاشمي المعروف بابن سُكرة:

إن الخلافة مُذْ كانت ومُذْ بدأت معقودةً بفتى من آل عباس
 إذا انقضى عمرُ هذا قامَ ذا خلفاً ما لاحت الشمسُ وامتدّت على الناس
 فقلّ لمن يرتجىها غيرهم سفهاً لو شئت رُوحت كرب الظنّ بالياس
 فأحابه السيد المؤيد بالله قدس الله روحه في حال حدائنه:

قلّ لابن سُكرة يا نعلَ عباس أضحت خلافتكم منكوسةً الراس
 أمّا المطيعُ فلا تُحسني بوادره يعيش ما عاش في ذلّ وإنعاس
 فالحمد لله ربّي لا شريك له خصّ ابن داعي بتاج العزّ في الناس
 فأحوج المؤيد بالله إلى مفارقة جيلان وامتد إلى الري وأنشد:

فررت من العُداة إلى العُداة وكنتُ عددتهم زُمرَ الثقات
 لقد خابت ظنوني عند قوم يرون محاسني من سيّئاتي
 يُهيجون العُواة عليّ هيحاً وهم شرّ لديّ من العُواة (١)

(١) أبحار أنعة الزيدية / ٢٧٤ - ٢٨٠.

(٢) أبحار أنعة الزيدية / ٢٨٢ - ٢٨٣.

ورعه وزهده وحلمه

كان عليه السلام في الورع والتقشف والاحتياط والتفرغ إلى حد تقصر العبارة دونه ، والفهم عن الإحاطة به. وتصوّف في عنفوان شبابه حتى بلغ في علومهم مبلغاً منيعاً ، وحل في التصوف والزهد محلاً رفيعاً ، وصنف سياسية المريدين. وكان عليه السلام يعمل السمك من السوق إلى داره ، وكانت الشيعة يتشبثون به ويتمكنون بحمله فلا يمكن أحداً من حمله ، ويقول: إنما أحمله قسراً للهوى وتركاً للتكبر ، لا لاعواز من يحمله. وكان قدس الله روحه يجالس الفقراء وأهل المسكنة ، ويكثر أهل السر والعفة ويميل إليهم ، ويلبس الوسط من الثياب القصيرة إلى نصف الساقين قصيرة الكمين. وكان يرقع يده قميصه ، ويشتمل بإزار إلى أن يفرغ من إصلاحه. وكان يلبس قلنسوة من صوف أحمر مبطنة يخشوها بقطن ، ويتعمم فوقها بعمامة صغيرة متوسطة. وكان يلبس جورباً يخطه من الخرق ثم يلبس البطيط. وكان لا يتقوّت ولا يُطعم عياله إلا من ماله. وكان يرّد الهدايا والوصايا إلى بيت المال ، وكان يكثر ذكر الصالحين ، وإذا خلا بنفسه يتلو القرآن بصوت شجي حزين. وكان غزير الدمع ، كثير البكاء ، دائم الفكر ، يتأوّه في أنثائه ، وربما تبسّم أو كثر عن أسنانه .

قال القاضي يوسف: صحبته ست عشرة سنة فلم أره مستغرقاً في الضحك. وكان لا يفطر في شهر رمضان حتى يفرغ من العشاء الآخرة. وكان يداوم على الصلاة بين العشائين ، ويُطعم في شهر رمضان كثيراً من

المسلمين. وكان يمسك بيت المال بيده ويحفظه بنفسه ولا يثق فيه بأحد ، ويفرق على الجند بيده ، ويوقع في الخطوط بيده .

ويُحكى أنه رضي الله عنه اشتهى يوماً من الأيام لحمَ حوت ، فبعث الوكيل إلى السماكين فلم يجد فيها إلا حوتاً لم يقطع ، وقالوا: لا نريد أن نقطعه اليوم ، فعاد إليه وأخبره بامتناعهم من قطعه. فوجه به ثانياً وقال: مرهم عني بقطعه ، فأبوا بقطعه ، فلما عاد إليه حمد الله على أن رعيته لا تحذر جنبته ، وأنه عندهم ورعاياه سواء .

وكان قدس الله روحه كثير الحلم عظيم الصفع. يُحكى أنه دخل المتوضأ ليحدد الطهارة فرأى فيه رجلاً متغير اللون يرتعد فرعاً ، فقال له: ما دهاك ؟ فقال: إني بعثت لقتلك. قال: وما الذي وَعَدُوك عليه ، قال: بقره ، قال: ما لنا بقره ، وأدخل يده في جيبه وناوله خمسة دنانير وقال: اشتر بها بقره ولا تعد إلى مثل ذلك .

وحُكي أنه قدس الله روحه كان يسير في طريق كلالر فطلب بمطراً له من بُندار صاحبه ، فقال: هو على بغل لبيت المال ، فأنكر عليه وقال: متى عهدتني أستحيز حمل ملبوسي على دواب بيت المال ؟ فأمر بإخراجه وتوفير الكراء من ماله. وكان يصرف عليه السلام من خاص ماله إلى بيت المال ما يكون عوضاً عما يرسله الكتاب في أول الكتب وتفرجه بين السطور إلى الكبار .

وحكي أن شيئاً من المقتَر حُمِل إلى داره لصرفه في مصالح المسلمين ، فالتقط منه حَبَاتٍ بعضُ الدجج التي تُقَتْنى لأكله خاصة ، فغرم من ماله أضعاف ذلك ، وقيل: إنه صرف الدجج إلى بيت المال .

ورورى أن ولده الأمير أبا القاسم شكّا إليه ضيق يده وقلة نصيبه من بيت المال ، واستأذنه في الإنصراف ، فأطلق له ذلك ، فقال له أصحابه: إن أبا القاسم فارس فآرة ولا غنى عن مثله ، فلو أطلق له ما يكفيه ، فقال: إني أدرّ عليه ما نصيبه ولا يمكن الزيادة عليه ، فإن الله سبحانه أمر بالتسوية بين الأولاد والأحباب .

وكان له صديق يتحفه كل سنة بعدد من الرمان ، فلما كان في بعض السنين زاد على رسمه وعادته ، فسأله عن ذلك؟ فقال: لأن الله زاد في رماننا فزدنا في رسمك. فلما أراد الخروج شكّا عن بعض الناس ، فقال: ردّوا عليه رمانه كله ، وأمر بإزالة شكايته ودفع الأذى عنه ، إلى غير ذلك من الحكايات الجمّة في ورعه وزهده وتقشفه (١) .

جهاده

عاش المؤيد بالله في عصر يموج بالفوضى والفتن ، يحكمه الاستبداد السياسي ، وتتقاسمه الدويلات المتنازعة الخارجة على بني العباس بعد ضعف دولتهم المركزية ، وحصادهم نتائج استبدادهم وجورهم وتحكمهم في مصائر البلاد والعباد ، وجعلهم مال الله دولا وعباده خولا .

وقد نهض المؤيد بالله داعياً إلى الله ، خارجاً على الظلمة ، فكان أول خروج له سنة (٣٨٠هـ) قبل وفاة صاحب بن عباد بأربع سنوات ، وفشلت حركته ، فخلّصه صاحب من انتقام بني بويه الذين كانوا يتحكمون

الجيل والديلم في تلك الفترة. ثم عاد مرة أخرى فقام بالإمامة وبابعه الجيل والديلم واستتب له الأمر في تلك البلاد فترات ، وخرج من يده فترات أخرى ، وخاض حروباً طاحنة ، وجابه معارضين أشداء ، منهم: أبو الفضل بن الناصر. وتغلب عليه السلام على « هوسم » ثم هزمه « شوزيل » ، فعاد إلى الري ، ومكث بآمل حتى جاءته الكتب بمناصرة الجيل والديلم ، فعاد وافتتح مدينة هوسم ، ثم افتتح آمل ، وبقي عليه السلام في كر وفر وجهاد يطول شرحه ، حتى توفاه الله يوم عرفة سنة (٤١١هـ) (١).

منهجه في الحكم

أما عن منهجه في الحكم ورؤيته للسلطة فيمكن أن يتبينه القارئ من كتاب دعوته الذي ضمنه المبادئ والأفكار التي قام من أجلها ، والذي حدد فيه ما يجب عليه تجاه المجتمع ، وما يجب له إن عدل من الطاعة .

قال: عباد الله إني رأيت أسباب الحق قد مرجت ، وقلوب الأولياء به قد خرجت ، وأهل الدين مستضعفين في الأرض ، يخافون أن يخطفهم الناس ، ورأيت الأموال تؤخذ من غير حلها ، وتوضع في غير أهلها ، ووجدت الحدود قد عطلت ، والحقوق قد أبطلت ، وسنن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد بدلت وغيّرت ، ورسوم الفراعنة قد جددت واستعملت ، والأميرين بالمعروف قد قلوا ، والناهين عن المنكر قد وهّنوا فذلوا ، ووجدت أهل بيت لاني صلى الله عليه وآله وسلم مقموعين مقهورين مظلومين ، لا

يؤهلون لولاية ولا شورى ، ولا يتركون ليكونوا مع الناس فوضى ، بل منعوهم حقهم ، وصرفوا عنهم فيهم ، فهم يحسبون الكف عن دمائهم إحساناً إليهم ، والانقباض عن حبسهم وأسرهم إنعاماً عليهم ، يطلبون عليهم العثرات ، ويرقبون فيهم الزلات ، ووجدقم في كل واد من الظلم يهيمنون ، وفي كل مرعى من الضلال يسيمون بعضه بعضاً ، وأموال تنهب نهباً ، لا يرقبون في مؤمن ألا ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ١٠٠ ١٠١ ﴾

ووجدت الفواحش قد أقيمت أسواقها وأدية نفاقها ، لا خوف الله يُذع ، ولا حتى الناس يمنع ، بل يتفاخرون بالمعاصي ، ويتنازرون ويتباهون بالإثم ، قد نسوا الحساب ، وأعرضوا عن ذكر المآب والعقاب ، فلم أحد لنفسي عذراً أن قعدت ملتزماً أحكامهم ، متوسط آثامهم ، أونسهم ويونسوني ، وأسألهم ويسألوني ، فخرجت أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله وما أنا من المشركين .

أيها الناس أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، والرضى من آل محمد ، ومجاهدة الظالمين ، ومنابذة الفاسقين ، وإني كأحدكم لي ما لكم وعلي ما عليكم ، إلا ما خصني الله به من ولاية الأمر ، يا قومنا أحيوا داعي الله وآمنوا به ﴿ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ٣١ ﴾ ، استحيوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من

الله ، ما لكم من ملجأ يومئذ ، وما لكم من نكير ، تعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ومعصية الرسول .

أيها الناس سارعوا إلى بيعتي ، وبادروا إلى نصرتي ، وازحفوا زحفاً إلى دار هجرتي ، انفروا خفاً وثقلاً ، واجاهدوا بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، ولا تركنوا إلى هذه الدنيا وبمحتها ، فلما ظل زائل ، وسحاب حائل ، ينقضي نعيمها ، ويضعن مقيمها ، والآخر خير وأبقى أفلا تعقلون ، وإن الدار الآخرة لهي الحياة لو كانوا يعلمون ، تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين .

أيها الناس مهما اشتبه عليكم فلا يشتبه عليكم أمري ، أنا الذي عرفتموني صغيراً وكبيراً ، وزاحمتوني طفلاً وناشئاً وكهلاً ، قد صحبت النساك حتى نسبت إليهم ، وخالطت الزهاد حتى عرفت فيهم ، وكاثرت العلماء ، وحاضرت الفقهاء ، فلم أخل عن مورد ورده عالم بارغ ، ومشروع شرع فيه متقن فارغ ، وجادلت الخصوم نصحاً عن الدين ونضالاً عن الحق المبين ، حتى عرفت موافقي ، وكنت وحفظت طرائقي ، وأثبت هذا وما أثيري نفسي في أثناء هذه الأحوال ، وبجامع هذه الخصال ، من تقصير وتعذير ، ولا أزيكها بل أنبرأ إلى الله من حولها وقوتها ، وإن جميع ذلك من فضل ربي ليلوني أشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم .

وأما نسيي إلى جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فدونه فلق الصباح ، ولا عذر لكم أيها الناس في التأخر عني ، والاستبداد دوني ، وقد

ناديت فأسمعت لتحيوا دعوتي ، وتنحروا لنصري ، وتعينوني على ما مضت له من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٨] ، ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] ، ألا فاعينوني على أمري ، وتحروا بجهدكم نصرتي ، أوردكم خير الموارد ، وأبلغكم أفضل المحامد .

عباد الله أعينوني على إصلاح البلاد ، وإرشاد العباد ، وحسم دواعي الفساد ، وعمارة مناهل السداد ، ألا ومن تخلف عني وأهل بيعتي ، إلا لسبب قاطع أو لعذر مانع بين الحجة ، فإني أجاتيه للخصام يوم يقوم الأشهاد ، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ، يوم الآزفة ، فأقول: ألم تسمع قول حدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « من سمع واعتنا أهل البيت لم ينجها كبه الله على منخريه في النار » ، ألا فاسمعوا وأطيعوا ، انفروا خفافاً وثقالاً ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، قل إن كان آباؤكم وأبناءكم ... الآية ، فليتفق كلمتكم ، وليجتمع شملكم ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين .

ألا وقد سلك سبيل من مضى من آباءي الأخيار ، وسيلفي النجباء الأبرار في منابذة الظالمين ، ومجاهدة الفاسقين ، مبتغياً فيه مرضات رب العالمين ، فاسلكوا أيها الإخوان سبيل أتباعهم الصالحين ، وأشياهم البررة الحاشعين ، في المعاونة والمظاهرة ، والمكاثف والموازرة ، وتبادروا رجالاً ، وسارعوا إليّ ،

إرسالاً ، وإياكم والجنوح إلى الراحة طالين لها وجوه العلل ، مغترين بما فسخ
الله لكم من المهل ، وعن قليل يحق الحق ، ويطل الباطل ، ويعاين كل امرئ
ما اكتسب ، ويجازي كل بما اجترم ، يومئذ يوفيههم الله دينهم الحق ويعلمون
أن الله هو الحق المبين ، فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمري إلى الله إن
الله بصير بالعباد (١) .

وفاته

توفي عليه السلام يوم عرفة سنة (٤١١هـ) عن (٧٨ سنة) ، ودفن في
يوم الأضحى ، وصلى عليه السيد « مانكلم » ، وبني عليه مشهد مشهور
مزور في لنجا من محافظة مازندران بإيران.

عرج على قبر بصعدة وابلك مرموسا بلنجا
واعلم بأن المقتدي بهما سيلغ ما ترجا

هذا الكتاب

يعد هذا الكتاب من أهم الكتب التي تناولت مسألة النبوة ، إثباتا لها ، أو دفاعا عنها ، بل أهمها على الإطلاق ، إذ لم أعثر فيما قرأت على كتاب من هذا القبيل ، فهو بحق يعد أهم كتاب إسلامي تناول هذا المسألة بالبحث والتحصيل والإيراد والرد ، فقليل أولئك الأفذاذ من علماء الاسلام ، الذين يعيطون بعلوم الاسلام وعلوم الأديان الأخرى ، كالنوراة والانجيل والزبور وغيرها من الكتب والصحف التي نزلت على الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ، والمؤيد بالله أحد أولئك ، بل أبرزهم بلا شك ، ولأن مؤلفه عاش في القرن الرابع الهجري ، فقد ولد سنة (٣٣٣ هـ) ، فهو يعد وثيقة تاريخية هامة ، تكشف لنا بجلاء ما كان يواجهه الاسلام آنذاك من تحديات فكرية وعقائدية ، وتبرز لنا أيضا الدور الكبير والتميز الذي اضطلع به أئمة الاسلام ، والعلماء الكرام لمواجهة تلك التحديات ، وتلك المواقف .

و كنت قد أزمعت على إيراد دلالات وبشارات أخرى من الكتب السماوية الأخرى ، سيما إنجيل « برنابا » ، وفيه الكثير الكثير من هذا القبيل - ولهذا السبب تنكره النصارى إضافة إلى النصوص التي تؤكد وحدانية الله سبحانه - ثم عدلت عن هذا الرأي ، مكثفيا بتصحيح النصوص التي أوردها المؤلف ، ومقارنتها بالنوراة والانجيل ومزامير داود - الزبور - على أن أعد بحثا مستقلا في وقت لاحق إن شاء الله تعالى .

وقد طبع هذا الكتاب عام (١٩٧٩م) ، بتحقيق الأستاذ خليل أحمد إبراهيم الحاج ، إلا أنه نفذ من الأسواق ، إضافة إلى وجود أخطاء عدة في

هذه الطبعة . ولم نعتز إلا على مخطوطة واحدة منه ، كتب في آخرها: صادف الفراغ منه غرة شهر شعبان من شهور سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، وصلى الله على رسوله محمد وعلى آله ، وسلم تسليما كثيرا .

موجودة في معهد إحياء المخطوطات العربية ، التابع للجامعة الدول العربية ، والذي أحضر فيه الماحستير حاليا .

سائلا الله أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه ، وأن ينفع به ، إنه سميع مجيب ، والحمد لله رب العالمين .

عبد الكريم أحمد جدبان

اليمن - صعدة ١٢ / رمضان / ١٤٢٣ هـ

الموافق ١٧ / ١١ / ٢٠٠٢ م



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ذي الفضل والإحسان ، المخول من شاء من عباده
سوايغ الأنعام ، الذي هدانا لدينه ، وأوضح سواء السبيل ، بما نصب
من أدلته الباهرة ، وحجته القاهرة ، ﴿لَيْهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْتَى
مَنْ حَيٌّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٤٢) [الأنفال] .

ثم أرسل إلينا خيم مولود ، وأكرم مبعوث ، رحمة للعالمين ،
[وهدي] للمتقين ، ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ
(٧٠)﴾ [إبر] ، فصلى الله عليه وعلى آله الطاهرين .

وإني لما رأيت غناء الملحدة ورعاعها ، مجتهدة لإدخال الشُّبُه في
معجزات نبينا صلى الله عليه وآله وسلم على أنفسنا ، وعلى مَنْ قاداته
يد الشقاء ، وسلكت به خبط العشواء ، من جهال العوام وأوباشها ،
فهم عن الحق اليقين معرضون ، وعن الصراط السوي ناكبون . قد
استهواهم الشيطان ، واستزلمهم الطغيان ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ
أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١٩) [الحشر] . يظنون بجهلهم وعماهم أنهم قد
فطنوا لما جهله العلماء ، واستدركوا ما فات أهل الدين ، وتنبهوا عما
غبي عنه فضلاء المسلمين .

كلا ، بل هم صم عن الحق لا يسمعون ، وبكم عند الحاجة لا
ينطقون ، وعمي عن الرشد لا يبصرون ، ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ
مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٤) [الأنعام] .

[الباطنية]

فإن أردلهم طبقة ، وأحسنهم " طريفة ، وأقلهم شبهة ، وأعتاهم على الله عز وجل وعلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأعداهم للمسلمين ، وأحرصهم على التحيل لإطفاء نور الله المبين ، ﴿ وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٣٢) ، من يتسبب منهم إلى الباطن ، ويوهم أن وراء ما في أيدي المسلمين من حجج العقول والكتاب والسنة حقيقة عرفوها وحصلوها ، وأنها ممنوعة أو مستورة إلا عمن بذل لهم العهود والمواثيق ، فإذا كَشَفَتْهَا وَجَدَتْ مخاذاً ، تلوح عن صفحاها أثر الاستهزاء بمن يأخذ عنهم ويلوذ بهم ، يعدونهم حمرا مستنفرة . قد زينوا عندهم ارتكاب الفواحش ، وأباحوا لهم قطوف المظالم ، وأحلوا لهم شرب الخمر ، وترك الصلوات ، ومنع الزكوات ، ﴿ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ (٧٧) [المائدة] .

ينفون الصانع ، وينكرون النبوات أجمع ، ويحسدون الشرائع . فيقولون: لا يقال في الله تعالى: موجود ، ولا لا موجود . لا يعلمون لجهلهم ، وفرط غباوتهم ، أن نفى النفي يقتضي الإثبات عند أهل اللسان .

ألا ترى أنهم إن أرادوا أن يحققوا الإثبات قالوا: « لا غير » ،
 فيقولون: « هو الرأي لا غير ، وهو زيد لا غير » . فيجمعون بين النفيين
 لتحقيق الإثبات .

فإذا قالوا: موجود . فقد حققوا أنه موجود .
 وإذا قالوا: لا موجود . فقد نفوا ما أثبتوا ، ونقضوا ما قالوا ،
 وليس ذلك مما يخفى .

لكن غرضهم في ذلك: هو التوصل الى التعطيل ، ونفي الصانع .
 ويقولون: « إن النبي محمدا صلى الله عليه إنما كان له التأيد ، دون
 ما سواه من الوحي والإرسال ، ونزول جبريل عليه السلام » ،
 ويشيرون بالتأيد الى المزية التي تحصل لكل من تقدم في صناعة وبرع
 فيها ، من شاعر ، أو طبيب ، أو فقيه ، أو متكلم ، أو منجم .
 ويسمون الشرائع: نواميس . ويتوصلون إلى جحدها وإبطالها ،
 بإدعاء: أن لكل شيء منها باطنا ، إذا عرف سقط وجوب العمل به .
 وينكرون البعث والنشور ، ويقولون: معنى القيامة ، هو قيام محمد
^(١) بن إسماعيل بن جعفر وخروجه .

ولولا أنه ليس غرضنا في كتابنا هذا وصف أقوالهم ، ونشر
 فضائحهم ، وبسط مقابحهم ، من فساد عقائدهم ، ومساوئ دقاتهم ،
 مما يئنه شيوحننا - رحمهم الله - من الأشراف والعلماء في كتبهم

(١) هو: محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، إمام عند الإسماعيلية ، يكفى عندهم بالمكتوم ،
 حذرا من بطش العباسيين ، وهو أول الأئمة المكنومين ، توفي بعدد سنة (١٩٨هـ) تقريبا .

المصنفة . في هتك أسرارهم ، وإذاعة أسرارهم ، نحو أبي زيد عيسى بن محمد العلوي الحسيني ، وأبي جعفر بن قنة الرازي ، وأبي عبد الله بن درام الكوفي ، وأبي أحمد بن عبدك الجرجاني ، وغيرهم - رحمة الله عليهم - .

ثم ذكرت ما في رسالتهم الموسومة بـ « البلاغ السابع » وربما سموها: « البلاغ الأكبر ، والناموس الأعظم » ، لكنني أحيل من أراد الوقوف على باطنهم وسرائرهم على هذه الكتب ، فإنها مشهورة معروفة ، معروضة لمن أرادها .

وأرجع إلى الغرض الذي قصدته: وهو أبي رأيت أن أضع كتابا في الإبانة عن معجزات نبينا صلى الله عليه وآله وسلم ، وما أيده الله تعالى به من الآيات البيّنات ، والدلائل الواضحات ، التي لا يذهب عنها من نصح نفسه ، ولم يتلعب بدينه ، مستعينا بالله تعالى ، ومستهديا له ، وراغبا إليه تبارك وتعالى ، أن يعظم النفع لنا به ، والمثوبة عليه ، وأن يجعل سعبي فيه ، وكدحي له ، خالصا لوجهه .

هذا ، ولست أطمع أن أزيد على ما قاله السلف - رحمهم الله - في هذا الباب . وإنما أوجز من كلامهم - رحمة الله عليهم - ما جعله البسط متباعد الأطراف ، وأبسط ما جعله الإيجاز خفي الأغراض .

وأنتم - رحمكم الله - إذا تأملتم أحوال الفترات التي كانت بين آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم ، ازددتم معرفة بحسن تدبير الله تعالى لخلقه في ابتعاث الرسل ، وتحديد ما درس

أو كاد يدرس من الشرائع والمثل ، وأنه جل وعز ابتعث حين علم
 الصلاح في الابتعاث ، ومد الفترة حين علم اقتران المصلحة بها ، لأن
 الفترة - على ما يقوله بعض أهل التواريخ ، على اختلاف بينهم فيه ،
 والله أعلم بتحقيق ذلك - كانت بين آدم ونوح صلى الله عليهما سبع
 مائة عام ^(١) .

وإنما كان كذلك - والله أعلم - وإنما نقول على مقدار ما يلوح
 لنا ، ويبلغه مقدار أفهامنا: إن آدم عليه السلام أهبط إلى الأرض - وهو
 أبو البشر وأول الإنس - ولم يكن في زمانه شيء من الكفر ، ولا عبادة
 الأصنام ، ولم يكن غيره وغمر زوجته حواء وأولادهما عليهما السلام ،
 وكانوا يعرفون حاله ، فلم يكن في أمره شك عندهم ، بوضوح أمره ،
 وظهور ديانته ، وقلة من بعث إليهم ، فامتد زمان الفترة . وكان بينهما
 صلى الله عليهما مع ذلك: شيث وإدريس عليهما السلام ، فاستحدث
 الناس الكفر ، وعبادة الأصنام ، واتخذوا ودا ، وسواعا ، ويغوث ،
 ويعوق ، ونسرا ^(٢) .

(١) في التوراة العبرانية: أن المدة من آدم إلى نوح ١٥٨٦ سنة ، وفي السامرة ١٢٣٧ سنة ، وفي
 التوراة اليونانية ٢٢٦٢ سنة . انظر كتاب: إظهار الحق ، للعلامة الشيخ رحمت الله بن خليل الهدي ،
 مؤسس المدرسة الصولتية في مكة ، والمدرس في المسجد الحرام ، المولود سنة ١٢٣٣ هـ والمتوفى سنة
 ١٣٠٨ هـ . طبعة دار التراث العربي بمصر ، وانظر النص العربي الكامل للتوراة السامرة ترجمة الكاهن
 السامري أبي الحسن إسحاق الصوري ، نشر دار الأنصار بمصر .

(٢) أشار الله إلى ذلك في القرآن الكريم في سورة نوح الآية/ ٢٣ .

فابتعث الله سبحانه نوحا صلى الله عليه يدعوهم إلى التوحيد ،
 وخلع الأصنام والأنداد ، ولبت فيهم كما قال تعالى: ﴿ أَلَفَ سَنَةً إِلَّا
 خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت: ١٤] . ففرقهم الله تعالى بالطوفان حين علم
 أنهم لا يصلحون . ونجا نوحا صلى الله عليه ومن معه .

ثم كانت الفترة بين نوح وإبراهيم صلى الله عليهما على ما يقوله
 المؤرخون نحو سبعمائة عام ^(١) . وإنما كانت هذه المدة نحو تلك ، لأن
 الفرق أعاد حال نوح إلى نحو حال آدم صلى الله عليهما وظهور أمره ،
 وابتداء البشر منهم . مع أنه لم يكن بقي من الكفار أحد ، إلا أن الناس
 كانوا قد عرفوا عبادة الأصنام ، واتخاذ الأنداد من دون الله عز وجل ،
 فأسرعوا بعده في الكفر ، وعبادة الأصنام .

وكان الله تعالى قد بعث هودا إلى عاد لما ازداد تمردهم ، وصالحا
 صلى الله عليهما بعثه إلى ثمود .

ثم لما ازداد الكفر ظهورا وانتشارا ، ابتعث الله عز وجل إبراهيم
 صلى الله عليه فدعاهم إلى الله تعالى ، وكسر أصنامهم ، ونههم على
 خطأ أفعالهم ، وجدد لهم الذكرى ، وأنزل الله عز وجل عليه الصحف .
 وبعث لوطا صلى الله عليه إلى قوم مخصوصين ، حين ازداد
 غتوهم ، واستحدثوا من الفاحشة ما لم يكن قبلهم .

(١) الفترة من نوح إلى إبراهيم في التوراة العبرانية ٢٩٢ سنة ، وفي التوراة السامرية ٩٤٢ سنة .

ثم كانت الفترة بينه وبين موسى صلى الله عليهما نحو أربعمئة سنة (١) ، وإنما كانت كذلك - والله أعلم - لأن إبراهيم صلى الله عليه مضى والكفر باق بينهم وظاهر ، ولم يكثر أنبأه الكثرة الظاهرة على ما بلغنا .

وبعث الله تعالى بعده: إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وشعيباً صلوات الله عليهم قبل مبعث موسى صلى الله عليه .

وقيل: إن أيوب صلى الله عليه كان قد بُعث قبل موسى .

فتغيرت أحوال بني إسرائيل ، وقلَّ قبول الناس للحق وظهر الكفر ، وبلغ مبلغاً لم يكن بلغ من قبل ، لأن فرعون اللعين ادعا الربوبية ، ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ (٢٤) [النازعات] . واستعبد بني إسرائيل ، فعظم الأمر وازداد الكفر ، واتسع الخرق ، وتُسي الحق . فلذلك قصرت مدة هذه الفترة ، حتى بعث موسى صلى الله عليه مع تلك الآيات العظام ، كالعصا ، واليد البيضاء ، ومجاورة بني إسرائيل البحر بعد أن انفلق البحر ، ﴿ فَكَانَ كُلُّ فَرَقٍ كَالطُّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ (٦٣) [الشعراء] . وتغريق فرعون اللعين ومن تبعه ، إلى غير ذلك من الحجر الذي انفجرت منه العيون ، وما كان ظهر قبل ذلك من الجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، وغير ذلك مما يطول ذكره .

(١) الفترة من إبراهيم إلى موسى ٤٠٠ سنة في الإصحاح الخامس عشر من سفر التكوين ، و ٤٣٠ سنة كما جاء في الإصحاح الثاني عشر من سفر الخروج .

وأُنزل عليه التوراة ، وَبَيَّنَ فِيهَا أَحْكَامَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، وَظَهَرَ أَمْرُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ أَمُّ الظُّهُورِ . وَإِنَّمَا كَانَتْ أَعْلَامُ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ أَكْثَرَ ، وَآيَاتُهُ أَظْهَرَ ، لِأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَجْهَلَ الْأُمَمِ ، وَأَغْلَظْهُمْ وَأَبْعَدَهُمْ عَنِ الصَّوَابِ ، وَأَبْلَدَهُمْ عَنِ اسْتِدْرَاكِ الْحَقِّ . أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ بَعْدَمَا حَاوَزَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِمُ الْبَحْرَ ، وَغَرِقَ آلُ فِرْعَوْنَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ، قَالُوا لِمُوسَى - حِينَ مَرَّوْا عَلَى قَوْمٍ عَاكِفِينَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ - : ﴿ يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ [الأعراف: ١٣٨] . وَاتَّخَذُوا الْعَجَلَ وَعَبْدُوهُ ، وَظَنُّوا أَنَّهُ إِلَهُهُمْ وَإِلَهُ مُوسَى ، وَأَنَّهُ نَسِيَ . فَحَسَبَ هَذِهِ الْأَحْوَالَ اقْتَضَتْ الْحِكْمَةُ إِيضَاحَ الْآيَاتِ وَالْأَعْلَامِ ، وَتَكْثِيرَهَا فَمِ .

ثُمَّ بَعَثَ يَشُوعَ وَيُونُسَ .

ثُمَّ بَعَثَ دَاوُدَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، وَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الزَّبُورُ .

وَبَعَثَ سُلَيْمَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآتَاهُ الْمَلِكُ ، مَعَ تِلْكَ الْآيَاتِ

الْعَظِيمَةِ .

ثُمَّ بَعَثَ بَعْدَهُمْ رَكْرَبًا وَنَحِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا .

فَكَانَتْ الْفَتْرَةُ بَيْنَ مُوسَى وَعِيسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا نَحْوَ أَلْفِي سَنَةٍ

١١ ، لِعَظَمِ آيَاتِ مُوسَى ، وَعَظَمِ الْكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ، وَلَمَّا بَعَثَ

(١) فِي كِتَابِ التَّوَارِيخِ الْمَسِيحِيَّةِ: أَنَّ الْمُدَّةَ بَيْنَ مُوسَى وَعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أَلْفٌ وَخَمْسَمِائَةٌ وَوَاحِدٌ وَسَعُونَ سَنَةً .

بينهما من الأنبياء ، صلوات الله عليهم ، وهذه المدة أطول المدد التي كانت بين من ذكرنا عليهم السلام .

ثم لما تزايد الكفر ، وتغيرت أحوال بني إسرائيل ، وشاع الإلحاد بالفلاسفة ، بعث الله تعالى عيسى صلى الله عليه وبقى فيهم ما بقي . وقد أكرمه الله تعالى ورفعته إليه ، ثم كانت الفترة بينه وبين نبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله نحو ستمائة عام ^(١) .

فكانت هذه المدة أوسط المدد . وذلك - والله أعلم - لأن حجج الله تعالى كثرت فيها ، لبقاء التوراة والزبور ، ونزول الانجيل . ومع ذلك كثر الضلال ، وقيل في المسيح صلى الله عليه قولان عظيمان: أحدهما: ما قالت اليهود ^(٢) .

والثاني: ما قالته النصارى ^(٣) .

ثم ابتعث الله عز وجل النبي محمدا صلى الله عليه وآله وسلم وختم به الرسالة ، ونحن من مبعثه على نحو من أربع مائة عام ^(٤) ، فدل ذلك

(١) المدة بالتحديد خمسمائة وسبعون سنة ، وفي رواية: خمسمائة وواحد وسبعون سنة .

(٢) قول اليهود هو ما حكى القرآن: ﴿ وَيَكْفُرُهُمْ وُقُولِهِمْ عَلَىٰ مُرْتَمٍ نُّهَنَّا عَظِيمًا (١٥٦) وَفُولِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْتَمَ رَسُولَ اللَّهِ ... ﴾ [الساء: ١٤] .

(٣) قول النصارى هو:

١- الأرثوذكس يقولون: إن عيسى هو الله .

٢- الكاثوليك والبروتستانت يقولون: إن عيسى إله من آلهة ثلاثة .

وفي القرآن الكريم يقول الله عنهم: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْتَمَ ... ﴾

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ [المائدة: ٧٢-٧٣] .

على قرب الساعة ، وأزف القيامة ، وتحقيق ذلك قول الله تعالى: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ (١) ﴿ [الأنبياء] . وقوله: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ (١) ﴿ [القمر] . وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بإصبعيه » (٢) .

فانظروا - رحمكم الله - في حسن نظر الله عز وجل لعباده ، بما ذكرناه ، واعتبروا به ، واستعدوا للدوام والبقاء . فلها خلقتم ، فكان الواقعة قد وقعت ، والحاقة قد حقت ، ﴿ فَرِيقٌ فِي الْحَشَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ (٧) ﴿ [الشورى] . ولا يصدنكم عنها الشيطان ، وأتباع الشيطان ، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُخْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ (١٥) ﴿ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ (١٦) ﴿ [طه] . وفقنا الله وإياكم لطاعته ، واتباع مرضاته .

وأقدم أمام الغرض فصلا أذكره من قبل علماء أهل البيت عليهم السلام ، وهو أن الله تعالى لما بعث موسى صلى الله عليه وآله وسلم بعثه بالآيات التي بهرت ، ما كان هي ولوع الناس به في ذلك الزمان من السحر والتمويهات ، وأتاهم من العصا واليد البيضاء ، وفلق البحر ، ونحو ذلك ، مما لا تبقى معه شبهة في أن ذلك ليس من السحر في شيء ، إذ

(١) هو الرمز الذي كان فيه مؤلف الكتاب . وفي زماني هذا نحن في سنة ألف وأربعمائة وثلاثة وعشرين من الهجرة ، الموافق سنة ألفين واثنين من الميلاد .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٤ / ١٨٨٢ (٤٦٥٢) ، ومسلم في صحيحه ٤ / ٢٢٦٨ .

كان أولئك به أعرف ، وبالفصل بين السحر وبين ما ليس بسحر أعلم. لعلمهم بمبلغ قوة السحر ، وغاية أمره .

ولما بعث الله سبحانه المسيح صلى الله عليه ، آتاه من الآيات التي هزت ما كان ولوع الناس به في ذلك الزمان من الطب ، فأبده سبحانه بإحياء المسوتي ، وإبراء الأكهم والأبرص ، لثلاث تبقى شبهة لأحد منهم ، لأنهم كانوا أعرف الناس بمبلغ قوة صناعة الطب ، ومنتهى غايته . وما يكشف لهم من الأمر ما عساه كان لا ينكشف لغيرهم في تلك المدة البسيرة " .

ولما بعث الله تعالى نبينا محمدا صلى الله عليه في قوم هم الغاية في الفصاحة والبلاغة ، والنهاية في البيان والسلاقة . إذ حظ العرب من ذلك أوفر الحظوظ ، وهم منه ما ليس لغيرهم من الأمم ، فأبده سبحانه بالقرمان ، وجعله معجزا له ، لأنهم يعرفون من حاله ، ما لا يعرف غيرهم ، ولأنهم إذا عجزوا عن معارضته ، لم يبق شبهة في أن غيرهم أعجز وأعجز . ومع ذلك لم يُخلَّه عز وجل من سائر المعجزات على ما تبين من بعد . بل كثر ذلك ، وتواتر ، حتى لم يبق في أمره شبهة لمنصف . والحمد لله على نعمه السابقة ، ومنجّه البالغة .



(١) كان علماء اليهود في زمن المسيح عليه السلام يوهمون الناس أنهم بواسطة تسحر الخس والعراثم والرفى والنفل على العاهات يستطيعون الشفاء من الأمراض ، وقد صدّقهم بعض الناس ، فكان المسيح يفعل ما يشفي من الأمراض ، بواسطة الدعاء إلى الله . وكانت معجزاته على هذا من حسن ما برع فيه العلماء - كما اشتهر عنهم - ولقد ائتموه بأنه يشفي بواسطة استخدام (بعل ربول) رئيس الشياطين . انظر إنجيل متى .

الباب الأول

البيان عن إعجاز القرآن

إن سأل سائل فقال: ما الدليل على أن القرآن معجز؟
 قيل له: الدليل على ذلك: أن النبي صلى الله عليه وآله ادعى النبوة ،
 وأتى بالقرآن ، وادعى أنه معجز قد أنبأه عز وجل به ، وجعله دلالة
 على صحة دعواه ، وبرهانا على صدقه ، وتحدى به العرب قاطبة ،
 وقرعهم بالمعجز عن الاتيان بمثله ، بل بسورة مثله . وفيهم الخطباء ،
 والشعراء ، والبلغاء ، وهم الغاية في البيان ، وأولو المعرفة بمواقع الكلام ،
 وأجناسه وأساليبه من المنثور والمنظوم ، ولهم العادة المشهورة في
 التفاخر بالبلاغة والفصاحة . والمعرفة بطرق المعارضات ، ومزايا
 المخاطبات ، مع ما كانوا عليه من الحمية والأنفة والعصبية ، ومع شدة
 حرصهم على تكذيبه ، وتوهين أمره ، وإبطال دعواه ، حتى بذلوا
 لذلك ما عز وهان من النفس فما دونها . وهو صلى الله عليه وآله يتحداهم
 ، وقرعهم بالمعجز ، ويدعي أنه حجتة وبَيِّنَتُهُ ، ويذم مع ذلك أديانهم ،
 ويسب آهنتهم التي اتخذوها من دون الله عز وجل ، ويدعوهم إلى طاعته
 ، والتصرف على أمره ونهيه ، واستمر على ذلك زمانا (" بعد زمان فلم
 يعارضوه ، وعدلوا إلى الحرب التي هي أشق ، فقاتلوا حتى قُتِلوا وقُتِلوا .

فدل ذلك على أن عدولهم عن معارضة القراءان لم يكن إلا لتعذرهم عليهم ، إذ لا يجوز على العقلاء إذا حاولوا أمرا أن يعدلوا لمحاولته من الأسهل إلى الأعضل ، ومن الأيسر إلى الأعسر ، إذا كانوا متمكنين منهما ، وإذا ثبت تعذرهما عليهم ثبت أنما على غيرهم أشد تعذرا .

والمعجز هو الأمر الذي يتعذر مثله على جميع البشر ، فثبت أنه معجز على ما قلناه ، وهذه الدلالة مبنية على أن التحدي بالقراءان قد وقع ، وأن المعارضة لم تقع ، وأن السبب الذي من أجله لم تقع هو التعذر ، وأن التعذر متى صح ، صح كونه معجزا .

ونحن نبين ذلك فصلا فصلا ، إن شاء الله سبحانه .



الكلام في أن التحدي قد وقع

إن قيل: إنكم بنيتم دلالتكم هذه على أن النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] تحدى العرب بالقرآن ، فدلوا عليه ويؤنوه ، ليستتب غرضكم ، ويتم ما ذكرتموه .

قيل له: قد ذهب كثير من العلماء ، ومجيدو العلم ، بأنه صلى الله عليه [وآله وسلم] تحدى به ضرورة ، كالعلم بأنه ادعا النبوة ، وأتسى بالقرآن ، وإن كان العلم بهذين أجل من العلم بالتحدي .

قالوا: ولا يمتنع في العلمين وإن كانا ضروريين أن يكون أحدهما أجلى ، والآخر دونه في الجلاء . ونحن لا نذكر هذه الطريقة ، إلا أنا لا نقصر عليها ، ونوضح الأمر فيه إيضاحا نرجو أن تزول معه الشبهة .

وإن الخبر إذا كان في الأصل قويا ، وموجبا للعلم لا يمتنع مع تطاول المدة ، وتراخي الزمان أن يعرض فيه بعض الضعف ، سيما عند من يقل نظره في الأخبار ، وسماعه لها . وقد كان الأمر في التحدي ظاهرا في الأعصار السالفة ، حتى لم يبلغنا عن مخالف الإسلام من ملحد أو منتهود أو متنصر إنكاره ، حتى حدث بالآخرة قول بلغنا عن بعض الملحدة والمتهودة . وهو أنهم قالوا: لم يحصل لنا العلم بأن النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] تحدى به . ولظهور الأمر فيه حقق العلماء القول فيه.

فهذا الجاحظ مع بسطه الكلام في كتاب « الفرق بين النبي والمنتى » حقق القول في التحدي ، لأنه رأى أنه « يتعذر أن ينكره منكر . وهذا ابن الراوندي » لما صنّف كتابه الموسوم بـ « العزيز » ، واجتهد فيه وقعد ، وأورد الغث والسمين في الطعن على نبوة نبينا محمد صلى الله عليه [وآله وسلم] ، وأنكر كثيراً من روايات المسلمين ، لم ينكر التحدي ، وإنما تكلم فيما تكلم مع تسليمه ، ولم ينكر ذلك إلا لوضوح الأمر فيه ، وأنه استحيا لنفسه أن تبلغ صفاقة وجهه إلى إنكاره . ولهذا قال في الكتاب المسمى بـ « الزمرد » : « وقد أظن محمد - يعني النبي صلى الله عليه وعلى آله - في الاحتجاج لنفسه بالقرآن ، وبعجز الخلق عنه » . ولم يقل ذلك إلا لشهرة الأمر فيه وبلوغه في الطعن .

ونعود إلى ما وعدنا به من الزيادة وإيضاح ذلك ، فنقول: قد ثبت أن النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] لما أتى بالقرآن كان يقرأ على

(١) في المخطوط: أن . ولعل الصواب ما أثبت .

(٢) هو: أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندي ، أو ابن الراوندي ، فيلسوف مجاهر بالإلحاد ، من سكان بغداد . سبته إلى راوند من قرى إصهان ، له كتاب سماه: « الدافع للقرآن » ، و « التاج » ، و « الزمرد » ، وللحياط المعتزلة كتاب « الانتصار » في الرد عليه ، لدي نسخة منه . توفي سنة (٢٩٨هـ) ، رحة مالك بن طوف ، بين الرقة وبغداد ، وقيل: صله أحد السلاطين ببغداد . من كلام ابن الراوندي:

وجاهل جاهل تنقاه مرروفا	كم عالم عام أعيت مداهه
وصير العالم الحرير زنديفا	هذا الذي ترك الأوهام حائرة

المسلم والكافر ، ولا يكتم أحداً ممن قرب منه ، أو بعد عنه . وفي
القرآن تحدٍ كثير ظاهر ، ففي ستة مواضع منه قد تحدى حتى لم يبق
للمشبهة فيه موضع ، وفي مواضع أخر نبّه على أنه يتحداهم ودل عليه ،
وإن لم يكن لفظ التحدي ظاهراً في تلك الآيات ، وهذا كثير يطول
ذكره وإحصاؤه .

فأما المواضع الستة:

فأحدها: في السورة التي يذكر فيها البقرة ، وهو قوله: ﴿ وَإِنْ
كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا
شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا
فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (٢٤) |البقرة| .

فانظروا - رحمكم الله - هل يجوز أن يكون في التحدي والتقريع
قول أشقى من هذا ، وأوضح منه ، وأدعاً لأعدائه إلى الاهتزاز للإتيان
بعثله؟! لولا تعذره بها ، لأنه تعالى قال: قل ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ ،
وهذا كافٍ في التحدي . ثم قال: ﴿ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢٣) في إنكاركم أنه من عند الله ، وهذا أيضاً تحدٍ
ثانٍ . ثم قال: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ تحدٍ ثالث ، مع أنه
خير عن المستقبل . ومثله لا يجوز أن يقع من العاقل إذ لا يأمن أن

يفعلوا ذلك فيظهر كذبه ، فدل ذلك على أنه كان من عند علام الغيوب .

والموضع الثاني: في السورة التي يذكر فيها يونس صلى الله عليه ، وهو قوله عز وجل: ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) ﴾ [يونس] . فإن قوله: ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ، تحد هذا وأنه لا يأتي به أحد إلا من عند الله ، وفيه أيضا مع أنه تحد خبر لا يقع مثله إلا من عند علام الغيوب .

وقوله: قل ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾ تحد ثان ظاهر ، لا مرة فيه ، وكذلك قوله : ﴿ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ تحد ثالث .

والثالث: في السورة التي يذكر فيها هودا صلى الله عليه ، وهو قوله عز وجل: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤) ﴾ [هود] ، فكان قوله عز وجل: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ﴾ تحديا ظاهرا ، وتقريبا بالغا ، أنه عز وجل فسح لهم في المعارضة ، وإن كانت الأقاصيص التي يوردونها قد اقترنت (١) ، لأنهم

كانوا يحتجون عليه صلى الله عليه وآله وسلم بأنه كان يعرف من أخبار الأمم وأيامها وأقاصيصها ما لا يعرفون ، فأدحض الله تعالى حجتهم ، وكذب قولهم . وفضحهم بقوله: ﴿ فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ ، ودل ذلك على أن الاعجاز تعلق بنظمه . وإن كان أيضا متعلقا بمعانيه .

وقوله: ﴿ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ تحدّ ثان . لأنه إخبار عن أن أحدا من دون الله لا يأتي بمثله .

قال: ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴾ ، وكان هذا تحديا ثالثا ، لأن جعل حخته في أنه أنزل بعلم الله: تركهم الإستحابة إلى الاتيان بعشر " سورة مثله . فهل يكون في التحدي أبلغ من هذا ؟!

وقوله عز وجل: ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (١٤) ، أيضا يتضمن معنى التحدي ، لأنه دعاهم إلى الاسلام لظهور عجزهم .

والموضع الرابع: في السورة التي يذكر فيها بني إسرائيل ، وهو قوله: ﴿ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (٨٨) [الإسراء] . فانظروا - رحمكم الله - فهل يكون في التحدي شيء أبلغ منه ؟! وإخباره عز وجل: ﴿ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ ﴾ ، دليل على أنه خير من عند علام الغيوب ، لأن

الانسان لا يعلم ما يكون بعده ، والعاقل لا يرضى لنفسه أن يخسر خيرا ، لا يأمن أن يقع غيره على خلاف ما أخطر ، فيظهر كذبه عند أولياته ، وأعدائه ، سيما إذا كان أمره مبنيا على الصدق ، وبأن أعظم ما يرميه به أعداؤه أنه كاذب في دعواه . فوضح لما بيناه أنه صدر عن العالم بما كان وبما يكون ، وهو الله رب العالمين . وهذا مما يمكن أن يعد دلالة برأسها ، وسندكرها وما يوضحها من بعد ، بعون الله تعالى .

والموضع الخامس: في السورة التي يذكر فيها القصص ، وهو قوله تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَن أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) ﴾ [الفصرا] .

كان قوله عز وجل: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ تحديا ظاهرا . وقوله: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ تحدي ثان ، لأنه قرعهم بترك الاستجابة إلى ذلك ، ودل بذلك على أنهم يتبعون أهواءهم . وقوله: ﴿ وَمَن أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ تحديا ثالثا ، لأنه ذمهم ونسبهم إلى الضلال ، لاتباعهم الهوى الذي جعل تركهم الاستجابة إلى الايتان به علما عليه .

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) ﴾ ، في هذا الموضع أيضا فيه معنى التحدي ، لأنه أخطر أن الله لا يهديهم .

والموضع السادس: في الطور حيث يقول: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَأُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤) ﴾ [الطور] ، وكان هذا تعديها ظاهرا .

فأما المواضع التي تتضمن معنى التحدي ولو لم يكن اللفظ لفظ التحدي فكثير ، كقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٥١] .

وقوله: ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٥١] .

وقوله: ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٥١] .

وقوله: ﴿ وَلَوْ أَنْ قُرْآنًا سُرَّتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلَّمَ بِهِ الْمَوْتَى ﴾ [الرعد: ٣١] .

وقوله: ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [الحشر: ٢١] .

وقوله بعد آية التحدي: ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ (٤٢) ﴾ [يونس] .

وقوله: ﴿ أَفَأَنْتَ تُهْدِي الْعُمَىٰ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (٤٣) ﴾ [يونس] ، لأن ذلك يحرك الطبع ، ويقوى الداعي إلى التحكك والمعارضة ، ونظائرها كثير .

فإن قيل: دُلُّوا على أن هذه الآيات هي من القرآن الذي تلاه النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] على الناس ، وأنها ليست زبادة فيه .
 قيل له: من العلماء من رأى أن العلم بكل آية من القرآن ، مما أتى به النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] علم ضروري ، كما أن العلم بجملته ضروري .

قال: لأن القرآن كله آية آية ، فلو لم يكن العلم بكل آية علما ضروريا ، لم يكن العلم بجميع القرآن ضروريا . لكننا لا تقتصر على هذا القدر ، ونوضح الكلام فيه فنقول: لا إشكال أن هذه الآيات كانت كلها في المصاحف التي كتبت أيام عثمان ، وتلك المصاحف كتبت بمشهد أقوام لا يجوز التواطؤ عليهم لكثرتهم ، وفيهم الحفاظ ، منهم من كان يعرف الفرق بين ما هو من القرآن ، وما ليس من القرآن ، بل كان أكثرهم - والله أعلم - بهذه الصفة . كما أن عامة المسلمين اليوم - وإن لم يكونوا حفاظا - يفصلون بين ما هو من القرآن وما ليس من القرآن . فلم ينقل عن أحد أنه تكلم في ذلك ، وأنكر معرفتهم ، كما نقل ما كان من ابن مسعود في المعوذتين " ، وفي آي سورة القنوت ، ومن عمر فيما ذكره من الرحمن ، ومن عائشة

(١) أخرج الطبراني في معجمه الكبير ٩/ ٢٣٥ (٩١٥٠) عن عبد الله أنه « كان يخط المعوذتين

من المصحف يقول: لبنا من كتاب الله » .

فيما ذكر من الرضاع (١) ، وغير ذلك مما جرى مجراه ، فلولا أن هذه الآيات بَانَ كونهما من جملة القرءان ظاهرا مكشوفاً لجرى فيها التضاد ، وعرض فيها النزاع .

فإن قيل: ما تنكرون على من قال لكم: إنهم جميعا سكتوا عنها ، لأنها كانت مقوية لأمرهم ، معليةً لكلمتهم ، مصححةً لنحلّتهم .

قيل له: الاتفاق على مثل ذلك لا يصح من العدد الكثير ، ولولا ذلك لم يصح أن يقع العلم بشيء من الأخبار التي تعلق بها الأغراض . وذلك أن الطبائع مبنية على نشر الأخبار إذا عرفت بها الجماعة الكثيرة ، ضرمهم أو نفعتهم ، لأن الدواعي إلى النشر كثيرة مختلفة ، فيخرج المكتوم لأغراض مختلفة ، فلو كان الأمر على ما ذكرتم ، والحال على ما توهمتم ، لظهر ذلك ، ونقل ولم ينكمس . لأن واحداً كان لديّاته ، وسداد طريقته ، يذكره إنكاراً وتوجعاً .

وآخر كان لسخافة دينه ، وضعف عقيدته ، يذكره لبعض أعداء الدين تقرباً وتودداً .

وآخر كان بورده ويعيكه لأهله ولولده تحيراً وتعجباً .

(١) أخرج مسلم في صحيحه ١٠٧٥/٢ (١٤٥٢) ، وابن ماجة في سننه ١/٦٢٥ (١٩٤٢) ، ومالك في الموطأ ٦٠٩/٢ (١٢٧٠) عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنها قالت: « كان فيما أنزل من القرآن عشر رصعات معلومات يحرّم ، ثم نسحن بخمس معلومات ، فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فيما يقرأ من القرآن » .

وآخر كان يرى أن فيه ضربا من الجلادة^(١) والشهامة فيحكيه
افتخارا وتبجحا^(٢) .

وآخر يذكره لضيق غِطنه^(٣) عن حفظ الأسرار .
والأغراض في هذا الباب أكثر من أن تعد وتحصى .
ثم كان من يسمع منهم ، أو من واحد منهم ينشره بغير حساب ،
فلا تلبث الأيام والليالي حتى ينتشر ويذيع . وهذا تعد أسرار الملوك مع
ما يتعلق بهم من عظيم الرهبة والرغبة ، متى حرت بين عشرين أو خمسة
أو عشرة أو دون ذلك لم تنكمس ، وظهرت في أقرب زمان ، وأرخى
مدة .

لهذا قيل :

إذا جاوز الاثنين سر فإنه بيت وإفشاء الوشاة قمين^(٤)
على أن مثل ذلك لو كان جائزا أن يكون الفرزدق^(٥) ملحما لا
يقول الشعر ، وإنما اجتمع عدة من الشعراء لأغراض كانت لهم على أن
يعملوا قصائد ، وينسبوا^(٦) إليه ، وكان مثله على كل مصنف في أي
جنس من أجناس العلوم ، كان مثل ما كان من ذلك ، مما لا يستحيزه

(١) كذا في المخطوط . والجلادة في اللغة: القوة والشدة والصلابة .

(٢) في المخطوط: وتبجحا . ولعل الصواب ما أثبت .

(٣) العطن: مرك الإل .

(٤) البيت لجميل بنية . ورد في المخطوط: . . . بيت وإفشاء . . .

(٥) في المخطوط: كان ملحما . ولعل الصواب ما أثبت .

(٦) في المخطوط: وينسبوا . والصواب ما أثبت .

عافل ، ولا يرتاب فيه ، لأنه كان أظهر ، كان ما سألوا فيه كذلك .
وهذا الباب قد استقصاه أبو عثمان الجاحظ في « الفرق بين النبي
والمتنبى » استقصاء شافيا . وفيما أوردناه كفاية وبلاغ .

فإن قيل: ما أنكرتم أن هذا الاتفاق جرى من عدد يسير نحو
ثلاثة أو أربعة أو خمسة ، ومثلهم يجوز أن يقع منهم التواطئ على
الكذب وحفظ السر ؟!

قيل له: هذا سؤال من يغش نفسه عن علم منه بأحوال الصحابة
أيام عثمان ، أو يقول غير مراقب عن جهل منه بما ، وذلك أن الحفاظ
في ذلك الوقت كان فيهم كثرة ، نحو أمير المؤمنين علي عليه السلام ،
وعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن العباس ، وعبد
الله بن عمر بن الخطاب ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله
بن عمرو بن العاص ، وغيرهم . وكثير من هؤلاء كانت بينهم منافرات
، بحيث لو عثر بعضهم على خيانة بعض في مثل هذا الأمر العظيم ،
كان يسرع إلى التنديد به .

فأما من كان منهم يعرف القرآن ، أو كان يحفظ السور منه
فكثير لا يحصون . وكيف يصح اجتماع ما ذكرتم ؟! أم ما الذي يغني
لو اجتمعوا ؟!

فإن قيل: ما أنكرتم علي من قال: إني أسلم أن هذه الآيات كانت
في جملة القرآن ، لكن ما تنكرون أن تكون هذه الآيات لم تكن تلفت
مشركي العرب ، ولم تكن قرعت أسماعهم ، ولا علفت بأفهامهم ،

لأنها أو عامتها في السور الطوال . وكان الذي تعلق لحفظ مشركي العرب ، إنما هو الآية بعد الآية ، والكلمة بعد الكلمة ، أو السورة بعد السورة من السور القصار ، وكانت هذه الآيات مغمورة في جملة القراء ، وفي السور الطوال ، فبهذا لم يهتموا بمعارضته !؟

قيل لهم: قد علمنا أن النبي صلى الله عليه وآله كان يتلو القرآن على أصحابه ، وعلى من كان ينفذ عليه من المشركين من أحياء العرب ومدنها ، ثلاثا وعشرين سنة حتى تَحَقَّقَ الخلق من الصحابة ، وكانوا يتلونه في الخافل والمجامع ، وبين أهلهم في صلواتهم ومدارسهم ومجالسهم ، وكان المشركون يسمعون ذلك ، ويقرعون أسماعهم ، وإن لم يكونوا يحفظونه .

وانتهى الإسلام في هذه المدة إلى اليمن ، وسائر نواحي العرب ، ويكفي في آية واحدة من آيات التحدي أن تفرع أسماعهم . فكيف يصح أن يقال: إنما تبلغهم !؟ إلا أن يكون الله تعالى قد صرفهم عن سماعها ، ولئن جاز ذلك ، فالصرف من عظيم المعجزات .

على أن عامة آيات التحدي إنما هي في السور المكية ، ولم يكن لرسول الله صلى الله عليه وآله وهو بمكة شغل بالجهاد ، وبيان الأحكام . وإنما كان أكثر شغله صلى الله عليه وآله [وآله وسلم] الدعاء إلى الله تعالى ، وقراءة القرآن ، على ما كان يستدعيه .

يؤكد ما ذكرناه ويوضحه: الآثار الواردة في اجتماع مشركي العرب على التشاور والنظر في حال القرعان ، وتدبر أمره ، حتى قال الوليد بن المغيرة لعنه الله: « قد سمعت الأشعار والمخطب ، وكلام الكهنة ، وليس القرعان شيئا من ذلك »^(١) ، ثم قال ما حكى الله تعالى عنه في قوله: ﴿ ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) ﴾ [الدنر] .
فالتجأ إلى أن قال: إنه سحر ، لما هممه أمره .

وروي « أنهم اجتمعوا وتشاوروا حوله في أمره، أبو جهل لعنه الله والملا من قريش ، قد التبس أمره »^(٢) ، فقالوا: فعليكم برجل يعرف السحر والكهانة والشعر . فقال عتبة بن ربيعة: أنا لذلك . فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فخطابه^(٣) إلى أن تلا عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حم (١) تَرْيَلْ مَنْ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ [فصلت] حتى انتهى إلى قوله: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) ﴾ [فصلت] . فقال عتبة: ناشدتك الله والرحم ، إلا كفت . وقام جزعا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٧٢٢/٢ (١٩٤٣) ، والترمذي في سننه ٣٢٩/٤ (١٩٣٣) .

وإن حبل في مسنده ٢٠٥/٣ (١٣١٤٥) .

(٢) كذا في المخطوط .

(٣) في المخطوط: فخطب . ولعل الصواب ما أثبت .

دهشاً مرعوباً . ورجع إلى أصحابه ، وذكر لهم الحال ، وعرفهم أنه
تغيّر فيه ، وأنه ليس من الشعر ، وكلام الكهنة في شيء^(١) .

وقد حكى الله تعالى عن بعضهم أنه قال: ﴿ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءَ لَقُلْنَا
مِثْلَ هَذَا ﴾ [الأنفال: ٣١] ، ويقال: إنه أمية بن خلف لعنه الله^(٢) .

وهذا دليل على أنه عرف التحدي والتفريع فدفع عن نفسه بما قال
في نفس الوقت والحال .

وأيضاً فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما هاجر إلى المدينة ،
كثر المنافقون واختلطوا بالمسلمين ، وحضروا الجماعات ومواضع
الصلوات . وكذلك أهل الكتاب اختلطوا بالمسلمين حتى لم يخفَ
عليهم عامة أحوالهم . فكيف يظن بأنه خفي عنهم آيات التحدي
بوحدة .

وفي وقوف بعضهم عليها وقوف عامة المشركين ، لأنهم كانوا
يهدونها إليهم ولو على أجنحة الطير ، لأغراض مختلفة على ما بيناه ،
فيسقط بما قلنا ما سألود .

فإن قيل: يجوز أن يكون النبي صلى الله عليه وآله وسلم استكتمهم
هذه الآيات فكتموها ، وأذاعوا سائر القرآن .

قيل له: هذا لا يصح ، ولا يظنه عاقل لوجهين:

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة ، وابن عساكر . الدر المنثور ٧ / ٣١٠ .

(٢) أخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه: أنها نزلت في النضر بن الحارث . الدر

أحدهما: ما يَبْنَاهُ أَنْ كَتَمَانٌ مِثْلَ هَذَا لَا يَصُحُّ وَلَا يَتَأْتِي ، وَلَا يُجَدُّ
المحاول إلى سبيل .

والثاني: أَنَّهُ كَيْفَ يُسْتَكْتَمُهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَعَ
أَنَّهُ يَتْلُو عَلَيْهِمْ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ
بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ
(١٥٩) ﴾ [البقرة] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ
الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ
﴿ [البقرة: ١٧٤] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا
نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) ﴾ [النحل] .

وَكَيْفَ يُظَنُّ بِالْعَاقِلِ أَنَّهُ يَأْمُرُ أَصْحَابَهُ بِكُتْمَانِهِ بَعْدَ مَا يَدْعِيهِ وَحْيًا
نَازِلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، ثُمَّ يَتْلُو عَلَيْهِمْ فِي الْكُتْمَانِ مَا ذَكَرْنَاهُ ؟!
عَلَى أَنَّهُ كَيْفَ كَانَ يَأْمَنُ أَنْ يَكُونَ فِيمَنْ يُسْتَكْتَمُ مِنْ يَرْتَدُّ وَيُنَاقِضُ
وَيُذِيعُ مَا اسْتَكْتَمَ ؟ كَمَا حَكِي مِنْ ارْتِدَادِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَرْحٍ (١) بَعْدَ مَا

(١) عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان قد أسلم فدعاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
دات يوم بكعب له شيئاً، فلما نزلت الآية التي في المؤمنين ﴿ولقد خلقنا الإنسان من
سلالة.....﴾. أملاها عليه فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿ثم أُنشأناه خلقاً آخر...﴾. عجب عبد
الله في تفصيل خلق الإنسان فقال: تبارك الله أحسن الخالقين. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله
وسلم: هكذا أنزلت علي. فثبث عبد الله حينئذ! وقال: لئن كان محمد صادقا لقد أوحى إلي
كما أوحى إلي، ولئن كان كاذبا لقد قلت كما قال. وارتد عن الإسلام. فنزل فيه قول الله
تعالى: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلي ومن قال سأنزل مثل ما أنزل
الله﴾ [الأنعام/٩٣]. أي: نزل فيه ﴿ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله﴾ عندما قال: لقد قلت كما
قال.

كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم استكتمه كثيراً من السوحي معه ، وأملأه عليه ، على أن المسلمين كانوا لا يقرون بيسراً لشبهة حتى تنحل عنهم ، والمتفقون يتعلقون بيسر ما يظنونونه شبهة ، كما روي عن عمر وغيره يوم الحديبية ، حين أراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم الإنصراف عنها ، أنهم قالوا: « ألسنا وعدنا دخول مكة آمنين ؟ فقل: هل عُيِّنْتُ لكم هذه السنة بعينها ؟! قالوا: اللهم لا ، فسكتوا واستقامت بصائرهم » (١) .

ولما روي أن ناقة لرسول الله صلى الله عليه وآله وعلى آله ضلت . فتكلم المتفقون في ذلك ، حتى قال صلى الله عليه وآله وعلى آله: « إني لا أعلم إلا ما علمنيه الله تعالى » (٢) ، وذكر لهم موضع الناقة وحالها حتى وجدوها على ما وصف لهم .

وقيل: كان إذا أملى عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿حجيباً عنياً﴾ كتب ﴿عليها حكيماً﴾ ، أو ﴿عزير حكيم﴾ كتب ﴿غفور رحيم﴾ . وأما استبعاد هذه الرواية الأخيرة ، إن لم أقطع بكدها لأنها تشكك في القرآن الكريم .

ولحق بمكة فأهدر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دمه يوم فتح مكة ، وكان أبا عثمان من الرضاة ، هرب إلى عثمان فحماه به عثمان إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولم يزل به حتى أتمه . القصة في الدر المنثور ٣/٣١٧ ، وأسباب النزول ١٥٦/١ ، والمصابيح للشرقي ٤/٧٠ ، والكشاف ٢/٣٥٠ ، والمعارف لابن قتيبة ٣٠٠ في ترجمة عبد الله .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٤/١٨٣٢ (٤٥٦٣) ، ومسلم في صحيحه ٣/١٤١٢

(١٧٨٥) .

(٢) أخرجه الطيالسي في مسنده ١/٥٠ (٣٧٧) .

والقوم الذين يراجعون هذه المراجعة ، من مستبصر يطلب بها مزيد الاستبصار ، ومنافق يحاول بها ما يجري مجرى الطعن ، كيف يظن بهم اتفاقهم على الكتمان ، لئلا هذا الأمر العظيم ؟!

ثم يقال لهم: هبكم شككم في وقوع التحدي بمكة والمدينة أيام رسول الله صلى الله عليه وعلى آله ، على أنا قد بينا ما يزيل الشك فيه ، أستم تيقنون وقوعه من أيام عمر وعثمان إلى يومنا هذا ؟! يكرر على أسماع كل مخالف لدين الاسلام ، منحرف عن تصديق الرسول صلى الله عليه وعلى آله ، ينقلونه بالتفريع ، والعيب الرجيع ، للعجز الظاهر عن الاتيان بمثله . وهذا كاف في التحدي ووقوعه !!

فإن قيل: فالمروي عن الأكثر: أنهم أسلموا لغير سماع القرعان ، كما روي « أن العباس أسلم حين أخبره رسول الله صلى الله عليه وعلى آله بما كان من إيداعه المال زوجته أم الفضل لما أراد الخروج إلى بدر » .^(١)

وما روي عن « عمر بن وهب أنه أسلم حين عرفه صلى الله عليه وعلى آله ما جرى بينه وبين صفوان بن أمية بمكة » .^(٢)

(١) أخرجه أحمد في المسد ٣٤٣/١ (٣٣١) .

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٥٨/١٧ (١٨٨) ، عن محمد بن جعفر بن الزبير قال: « حسن عمر بن وهب الحمصي مع صفوان بن أمية ، بعد مصاب أهل بدر من قريب في الحجر يسير ، وكان ممن يؤذي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ، ويلقون منهم عنتا إدا هم بمكة ، وكان ابنه وهب بن عمر في أسارى أصحاب بدر . قال: فذكروا أصحاب القليب بمصائبهم ، فقال صفوان: والله إنه لا حم في الجيش بعدهم ، وقال عمر بن وهب: صدقت ، والله لولا دين علي ليس

عندي قضاؤه ، وعيال أحشى عليهم الضيقة بعدي ، لركبت إلى محمد حتى أقتله ، فإن لي فيهم علة ،
ابني عددهم أسير في أيديهم .

فاغتنمها صموان فقال: على ذلك أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالي أسولكم ما بقوا ، لا
يسمعهم شيء ، يعجز عنهم .

قال عمر: اكنم على شأنك وشأنك . قال: أعمل .

قال: ثم أمر عمر بسيفه فشحذ وسم ، ثم انطلق إلى المدينة ، فبينما عمر بن الخطاب بالمدينة في نفر
من المسلمين يتذكرون يوم بدر وما أكرمهم الله به ، وما أراهم من عدوهم ، إذ نظر إلى عمر بن
وهب قد أناخ باب المسحذ متوشح السيف ، فقال: هذا الكلب عدو الله عمر بن وهب ، ما جاء
إلا لشر ، هذا الذي حرق بيتنا ، وحزرننا لنقوم يوم بدر ، ثم دخل عمر على رسول الله صلى الله عليه
 وآله وسلم ، فقال: يا رسول الله هذا عدو الله عمر بن وهب قد جاء متوشحا السيف .

قال: فأدخله ، فأقبل عمر حتى أخذ خمالة سيفه في عنقه فلبه بها ، وقال عمر لرجال ممن كان
معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاحلوا عنده ، واحلوا هذا
الكلب عليه فإنه غير مأمون . ثم دخل به على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعمر أخذ خمالة
سيفه ، فقال: أرسله يا عمر ، ادن يا عمر ، فدنا ، فقال: أنعموا صباحا ، وكانت نخبة أهل الجاهلية
بيهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قد أكرما الله بنخبة عمر من نخبتك يا عمر ،
السلام نخبة أهل الجنة .

فقال: أما والله يا محمد إن كنت لحدث العهد بها .

قال: فما جاء بك ؟

قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا إليه .

قال: فما بال السيف في عنقك ؟

قال: فبحها الله من سيف ، فهل أعنت شيئا .

قال: اصدقني ما الذي جئت له ؟

قال: ما جئت إلا لهذا .

إلى غير ذلك مما روي من إسلام خلق كثير ، لأسباب مختلفة غير
سماع القرآن ، وهذا يضعف تعلقكم بالقرآن ، وبأن التحدي به كان
قد وقع .

قيل: هذا يلزم من قال: إنه لا معجز له صلى الله عليه وعلى آله
سوى القرآن ، ولا أعرف مسلما يقول ذلك ، أو يعتقد . وإذا كان
هذا هكذا فليس ذلك طعنا فيما نذهب ^(١) إليه ، وسنفرد إن يسر الله

قال: بل قدمت أنت وصموان بن أمية في الحضر فتداكرما أصحاب القليب من فريش ، فعدت:
لولا دين علي وعيالي لخرحت حتى أقتل محمدا ، فتحمل صموان لك بدينك وعيالك على أن تقتلني ،
والله حائل بينك وبين ذلك .

قال عمر: أشهد أنك رسول الله ، قد كنا با رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من حبر السماء
، وما يتزل عليك من الوحي ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إني لأعلم ما أنباك به إلا
الله ، فالحمد لله الذي هداني للإسلام . وساقى هذا المساق . ثم شهد شهادة الحق .

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله سلم: فقها أحاكم في ديه ، وأقرئوه القرآن ، وأطلقوا له
أسيرهم .

قال: يا رسول الله إني كنت حاهدا على اطفاء نور الله ، شديد الأذى على من كان على دين الله
، وإني أحب أن تأذن لي فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله وإلى الاسلام ، لعل الله يهديهم ، وإلا أذيتهم
كما كنت أؤذي أصحابك في دينهم . فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فلحق بمكة ، وكان
صفوان حين خرج عمر بن وهب قال لفرخ: أنشروا جماعة تأتيكم الآن تسبكم ومعه دية . وكان
صفوان يسأل عنه الركبان حتى قدم راجب فأخبره عن إسلامه ، فحلف أن لا يكلمه أبدا ، ولا ينفعه
ينفع أبدا ، فلما قدم عمر مكة أقام بها يدعو إلى الاسلام ، ويؤذي من يخالفه أدى شديدا ، فأسلم
عنى يديه ناس كثير .» .

(١) في المخطوط: ذهب . ولعل الصواب ما أثبت .

سبحانه وتعالى بابا من هذا الكتاب ، نذكر فيه المشاهير من معجزاته صلى الله عليه وعلى آله التي هي سوى القرآن .

على أنه قد روي عن جماعة أنهم أسلموا حين سمعوا القرآن . ولو ثبت أن أحدا لم يسلم عنده ، كان ذلك مما يقدح في صحة كونه معجزا ، دالا على صدق رسول الله صلى الله عليه وعلى آله ، والدليل لا يقدح فيه الاستدلال به ، أو أن المستدل به لا يعرف صحته " .

وإنما يجب علينا أن ننظر في حال الدليل ، هل هو دليل صحيح أم

لا ؟

وأما ما عدا ذلك فما " لا فكر فيه .

فمن " روي أنه أسلم حين سمع القرآن: عمر بن الخطاب .

وروي أنه أسلم حين سمع ﴿ طه (١) ﴾ | طه | " .

وروي أن جبر بن مطعم أسلم حين سمع النبي صلى الله عليه

وعلى آله يقرأ: ﴿ وَالطُّورِ (١) ﴾ | الطور | " ، وفيه آية التحدي الظاهر

(١) في المخطوط: نصته . ولعل الصواب ما أتت .

(٢) في المخطوط: فيما . ولعل الصواب ما أتت .

(٣) في المخطوط: ممن . ولعل الصواب ما أتت .

(٤) سيرة ابن هشام ١/٣٧٠ .

(٥) عن جبر بن مطعم أنه « أتى المدينة في فداء وهو يومئذ مشرك فدخل المسجد ورسول الله

صلى الله عليه وآله يصلي المغرب فقرأ بالطور فكانما صدع قلبي قراءة القرآن » .

أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده ٨٣٤ (١٦٨٠٨) . والطبراني في معجمه الكبير

، حيث يقول: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَقَوْلُهُ بَلْ لَّا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ
مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤) ﴾ [الطورا] .

وروي أن سعد بن معاذ قرئ عليه القرعان ، وأسلم .
وكذلك: أسيد بن حضير .

فإن قيل: تلاوة آية التحدي لا تكون تحديا ، وإنما التحدي أن
يبتدئ مخاطبتهم بالتحدي ؟!

قيل له: لا فرق بين الأمرين في حصول التحدي ، بل إذا قرأ
عليهم آية التحدي ، وعرفهم أنها من عند الله تعالى ، ربما كان أبلغ في
التحدي ، على أن آية التحدي في أوائلها الأمر بالتحدي ، لأنه تعالى
يقول: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ ﴾ ، ولا يجوز أن يظهر صلى الله عليه وعلى
آله أن الله تعالى أمره أن يقول قولا ، إلا ويعرف منه أنه قال ذلك ، أو
ما ينوب منابه . يدل ذلك على أنه لا بد من أن يكون تحديا ابتداء في
المخاطبة ، أو تلاوة تنوب مناب ابتداء المخاطبة .



الكلام في أن معارضة القراءان لم تقع

فإن قيل: فما الدليل على أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله لما تخداهم بالقراءان لم يعارضه أقوام ولم يأتوا بمثله ؟!

قيل له: الدليل على ذلك أنه لو كان ثَقِيلًا ، ولو نُقِلَ لوقع العلم . فلما لم يقع العلم به ، علمنا أنه لم ينقل . وإذا ثبت أنه لم ينقل ، ثبت أنه لم يكن .

فإن قيل: فلم ادعيتم أنه إذا لم ينقل لم يجب القطع على أنه لم يكن ؟

قيل له: لأننا نمثل هذه الطريقة نعلم أنه لم تجر بين رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وبين قريش من مبعثه صلى الله عليه وعلى آله إلى يوم بدر وقعة مثل وقعة بدر ، وأنه لم يكن بين وقعة بدر ووقعة أحد مثل وقعة أحد . وأن الأحزاب لم يجتمعوا على باب المدينة إلا مرة واحدة ، وأنه لم تجر بين أبي حنيفة وابن أبي ليلى ومالك نقائص في الشعر ، مثل ما جرى بين الفرزدق وجرير ، والأخطل والبيث . وأن جعفر بن محمد عليه السلام لم يقع منه خروج مثل خروج زيد بن علي عليهما السلام ، وأن زيدا بن علي لم يكن له خروج بخراسان ، وأن أبا يوسف ومحمدا لم يصنفا في النحو مثل كتاب سيبويه . وأنه لم يظهر عنهما من الطب مثلما ظهر عن جالينوس ، إلى نظائر ما ذكرنا ، أكثر من أن تعد ونحصى .

و لم يتحصل لنا العلم بكل ما ذكرنا ، إلا من حيث علمنا أن شيئا من ذلك لو كان لثُلِّ ، ولو نقل عُلِمَ . فبان بما ذكرنا أن القراءان لم يعارض ، لأنه لو كان غورِض لنقل ، ولو نقل لحصل لنا العلم .
 فإن قيل: إن جميع ما استشهدتم به قد وقع العلم لنا بصحته ولا ننكره . ولكن من أين وجب أن يكون حكم معارضة القراءان حكم ما استشهدتم به ؟!

قيل له: لأن ما ذكرنا من الطريقة أمر عام ليس يختص شيئا دون شيء ، فيجب أن تكون جميع الطرق التي تتعلق بها الدواعي إلى نشرها وذكرها ، وتقوى البواعث عليها ، جارية في هذا الباب مجرى واحدا .
 فإن قيل: فكأنكم تقولون: إن كل ما لم ينقل من الأحوال الماضية نقلا متواترا يجب القطع على أنه لم يكن . ولئن قلتم ذلك لزمكم أن تقطعوا على أنه لا معجز للنبي صلى الله عليه وعلى آله إلا ما يكون الخبر به متواترا . ويلزمكم القطع على أن كل خبر يروى عنه صلى الله عليه وعلى آله من طريق الأحاد كذب لا أصل له . وهذا خلاف ما بين المسلمين . ويلزمكم في أحوال الدنيا والمعاملات أن كل ما لا يتواتر الخبر به من المحوِّرات ، فهو مقطوع على أنه لم يكن ، وفي هذا من الفساد ما لا يخفى ؟!

قيل له: نحن لا نقول إن كل ما لا يتواتر الخبر به يجب القطع على أنه لم يكن على الإطلاق ، وهذا لا يقوله مُحَصِّل . وإنما نقول: إن الأمر إذا كان مما يكون وقوعه لو وقع ظاهرا لا خفاء به ، ثم كانت

الدواعي إلى نشره قوية ، والبواعث على ذكره شديدة ، ما لم يعرض ما يوجب تغير حال الدواعي والبواعث ، ومتى لم يكن له نقل يوجب العلم فيجب القطع على أنه لم يكن .

وشيء مما ذكرتم لا يلزم على هذا - على ما نبينه - بأن كثيرا من معجزات رسول الله صلى الله عليه وعلى آله يجوز أن يكون ظهور للواحد ، أو الاثنين ، أو الثلاثة ، دون العدد الكثير . ومثل هذا مما لا يصح أن يتواتر به الخبر .

وكثير من معجزاته صلى الله عليه وعلى آله وإن كانت ظهرت ، بشهادة العدد الكثير . يجوز أن تقوى الدواعي إلى نشرها والبواعث عليها ، تعويلا على غيرها ، ويجوز أن تضعف الدواعي على نقلها على مر الأيام ، لقيام غيرها مقامها " ، وإن كانت الدواعي والبواعث في أول الأمر قوية .

وكل هذا يجوز أن يكون الأصل صحيحا ، وإن لم يتواتر النقل به ، وعلى هذه الطريقة يجري الكلام في أحوال الدنيا والمعاملات ، لأننا نخوِّز في السلطان أن يفعل أفعالا كثيرة مما تخصه فلا تُنقل نقلا متواترا . ولا يجوز أن يفعل فعلا يعم نفعه أو ضرره ظاهرا ذاتعا ، فلا يتواتر في المدة بعد المدة إلى أن يعرض ما يوجب ضعف الدواعي والبواعث إلى نقله ، ولهذا جاز أن تخفى كثير " من معجزات الأنبياء المتقدمين

(١) في المخطوط: مقامه . ولعل الصواب ما أثبت .

(٢) في المخطوط: كثيرا . والصواب ما أثبت .

صلوات الله عليهم ، لأن التكليف بمعرفتها زال ، أو عُرف حالهم من جهة نبي بعدهم ، فضعفت الدواعي إلى نقله .

وإذا ثبتت هذه الجملة ، فإن معارضة القرآن لو كانت ووقعت ، كان وقوعها على وجه يظهر للولي المصدق برسول الله صلى الله عليه وعلى آله ، والعدو المكذب له ، وكانت الدواعي إلى نقلها والبواعث على نشرها قوية مستمرة إلى يومنا هذا ، بل إلى آخر الدهر ، لأن الاسلام ما بقي " ، والاحتجاج بالقرآن ما استمر ، فيجب أن تكون الدواعي ثابتة حاصلة إلى نقل المعارضة ، لأن المكذب به صلى الله عليه وعلى آله كان يذكرها احتجاجا ، والمصدق به طالبا للكلام عليها ، كما يذكر الخصم حجة خصمه أو شبهته للكلام عليها . وآخر كان يذكرها لفصاحتها ومزيتها كما يؤثر ويحفظ كلام الفصحاء ، وكانت الملحدة والباطنية من بينهم خصوصا ، يهتفون بها لما في أنفسهم على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله .

فكل ما ذكرناه يوضح أنها لو كانت وقعت كان وقوعها معروفا ، والدعاوي إلى نقلها تكون مستمرة .

ومنى كان الأمر على ما وصفنا ، ولم نجد النقل الذي ذكرنا ، فيجب القطع على أنها لم تكن ، كما نقول في سائر ما جرى مجراه في

(١) كذا في المخطوط . ولعل المراد: أن الاسلام بظل إسلاما ودنيا مدة بقاله . والقرآن يخرج

به مدة استمراره .

الظهور ، وقلة الدواعي إلى نقله من أمور الدنيا والدين ، وأحوال الملوك وسياساتهم .

ولمثل هذا نقول: إن ما تدعيه الإمامية من النصوص لا أصل لها ، لأنها لو كانت لوجب أن يتواتر بها النقل ، ويظهر .
ولخص بعض العلماء القول في ذلك فقال: « كل أمرين كانا في زمان واحد ، أو زمانين متقدمين ، وكانت الدواعي إلى نقلهما ^(١) متساوية أو متقاربة ، فلا يجوز أن يظهر أحدهما ويظهر نقله ، ويخفى الآخر ويخفى نقله ، لأنهما إذا اجتماعا في السبب الموجب الظهور ، فيجب اجتماعهما في الظهور .. »

قال: « وقد علمنا أن القرعان لو كانت له معارضة من مشركي العرب كانت تكون في الزمان المتقارب ، وكانت الدواعي إلى نقلها كالدواعي إلى نقل القرعان وأقوى منه ، على ما أوضحناه ، ولأن المعارضة لو كانت ، لكانت هي الحجة دون القرعان ، وكان القرعان هو الشبهة ، وكان ذلك مما يريد في قوة الدواعي إلى نقلها ، وهذا بين واضح لمن تأمله بعين النصفة .. »

على أن أحد لا يدعي: أن أحدا من العرب انتدب لمعارضة القرعان ، فعارضه أو عارض بعضه ، فلا وجه لتطويل الكلام في هذا الباب .
فإن قيل: ما أنكرتم أن يكون خوف السيف ، وعلو كلمة الاسلام ، أوجب خفاء نقل المعارضة ، أو منع ابتدائها ؟!

(١) في المخطوط: نقلها . ولعل الصواب ما أنت .

قيل له: أما ابتداءؤها والاتیان بها لو لم يتعذر عليهم ، كان لا يجوز أن يكون ما ذكرتم مانعا لهم منها ، لأن الأحوال كانت على خلاف ذلك، وسنشیع القول فيه ، ونوضحه في الفصل الذي نذكر فيه أن كَفْهَم عن المعارضة لم يكن إلا للتعذر . وأما النقل فلا يجوز أن يخفى لما ذكرتم .

ألا ترى أن عامة الأحوال منع قوة جملة الاسلام ، وظهور أمره ، لم يسلم من أن يكون فيها من كان يطعن على النبي صلى الله عليه وعلى آله ، ويروم القدح في الاسلام .

فهذا يزيد بن معاوية لعنه الله لما حمل إليه رأس الحسين بن علي صلوات الله عليه جعل يقول:

ليت أشياخي بيدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلوا واستهللوا فرحا ولقالوا يا يزيد لا شلل
لست من عتبة إن لم أنتقم من بني " أحمد ما كان فعل "

(١) في المخطوط: بني . والصواب ما أثبت .

(٢) البيت الأولان لعبد الله بن الرمرمي ، قالها متحمرا على قتلى المشركين بيدر ، قال عامر الشعبي: وأصاف يزيد على تلك الآيات بيتين هما:

لعت هاشم بالملك فلا بحر جاء ولا وحي نزل
لست من حذاف إن لم أنتقم من بني أحمد ما كان فعل

مقتل الحسين لمحوارمي ٢ ٥٨ . وناريخ اس كنم ٨ ، ١٩٢ ، ٢٠٤ . والصوح لأعم الكوفي ٣ / ١٥٠ . غير برید البت اثاني موضع فيه اسمه .

فَمَنْ لَا يَتَحَاشَى أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ ، أَي مَانِعْ يَكُونُ فِي زَمَانِهِ مِنْ نَقْلِ
مَعَارِضَتِهِ الْقِرْعَانَ ، وَهُوَ السُّلْطَانُ الْمُنْتَصِبُ لِلْخِلَافَةِ !!؟

ثُمَّ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ عَلَى مَا رَوَى - يُظَنُّ فِي أَيَّامِ
خِلَافَتِهِ - مَرْقُ (١) الْمَصْحَفِ ، وَقِيلَ: حَرَّقَهُ . ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

أَتُوْعِدُ كُلَّ جِبَارٍ عَنِيْدٍ فَهَآ أَنَا ذَاكَ جِبَارَ عَنِيْدٍ
إِذَا مَا حِثَّ رَبُّكَ يَوْمَ حِشْرِ فَقُلْ يَا رَبُّ حَرِّقْنِي الْوَلِيْدَ (٢)
وَهُوَ الْقَائِلُ:

تَلْعَبُ بِالْبَرِيَّةِ هَاشِمِي بَلَا وَحِي أَنَاهُ وَلَا كِتَابُ (٣)
فَكَيْفَ يَظُنُّ بِأَنْ نَقْلَ الْمَعَارِضَةِ لِلْقُرْآنِ يَخْفَى فِي زَمَانِهِ ؟! أَوْ كَانَ
يَقَعُ الْكَفُّ عَنْهَا لَوْلَا التَّعْذُرُ !! ثُمَّ كَانَ فِي آخِرِ أَيَّامِ بَنِي أُمَيَّةٍ وَأَوَّلِ أَيَّامِ

(١) فِي الْمَخْطُوطِ: فِي الْمَصْحَفِ . وَلَمَّا صَوَّبَ مَا أَتَيْتُ .

(٢) حَاءُ فِي الْأَعْيَادِ لِأَيِّ الْفَرْجِ الْأَصْفَهَائِ: أَنَّ الْوَلِيدَ لَعَنَهُ اللَّهُ اسْتَفْتَحَ الْمَصْحَفَ يَوْمًا ، فَقَرَأَ أَوَّلَ
مَا قَرَأَ آيَةَ الْكَرِيمَةِ: ﴿ وَخَاتَ كُلِّ حَبَّارٍ عَنِيْدٍ (١٥) ﴾ [إِبْرَاهِيمَ] ، فَتَارَ لَعَنَهُ اللَّهُ وَمَرْقُ الْمَصْحَفِ
فَانْتَلَا:

أَتُوْعِدُ كُلَّ جِبَارٍ عَنِيْدٍ فَهَآ أَنَا ذَاكَ جِبَارَ عَنِيْدٍ
إِذَا مَا حِثَّ رَبُّكَ يَوْمَ حِشْرِ فَقُلْ يَا رَبُّ حَرِّقْنِي الْوَلِيْدَ
وَانْظُرْ مَرْوَحَ الذَّهَبِ ٢٢٨/٣ - ٢٢٩.

(٣) الْبَيْتُ لِلْوَلِيدِ بْنِ يَرْبُودِ الْأُمَوِيِّ ، وَبَعْدَهُ:

نَدَكْرِي الْحَبَابَ وَلَسْتُ أَدْرِي أَحَقُّ مَا تَقُولُ مِنَ الْحَبَابِ
فَقُلْ لِلَّهِ بِمَعْنِي طَعَامِي وَقُلْ لِلَّهِ بِمَعْنِي شَرَابِي
انْظُرْ مَرْوَحَ الذَّهَبِ ٢٢٩/٣.

بني العباس مثل ابن المقفع " الذي تھوُس " ، وأوھم الأعمار " أنه ممن يعارض القرعان ، ولم يتحاش ذلك .

(١) ابن المقفع: هو أبو محمد عبد الله رورية بن ذاقوہ. فارسی الأصل. ولد حوالي سنة ١٠٦ھ، في قرية بفارس اسمها (حور). وهي مدينة (فیروز آباد) الحالية، وقيل بالعراق.

لقب أبوه بالمقفع، بفتح الفاء، لأن المحاج صر به فتفقت يده، أي: تشنحت. وقيل: بكسرهما لعمله القفعة، وهي شبيهة بالرَّبيل، بلا عروة وتعمل من الخوص. نشأ بين أحياء العرب. فكان أبوه (داقوہ) المقفع الفارسی يعمل في جباية الخراج لولاة العراق، من قبل بني أمية، وهو على دين المھوسية، ثم أسلم في آخر عمره، وولد له ابنه هذا وسماه (رورزة) نشأ بالبصرة، وهي يومئذ حلبة العرب، ومنتدى البلغاء والخطباء والشعراء. فكان لكل ذلك — فوق ذكائه المفرط — أعظم أثر في تربيته، وتحيته، لأن بصر من الكتاب والأدباء، والمترجمين إليها.

وكان محوسياً مزدكياً، قيل أسلم على يد عيسى بن علي — عم السفاح — محضر من الناس، وتسمى (عبد الله) وتكنى بأبي محمد. وتفرق من بني أمية وولاهم، فكان يكتب ليزيد بن عمر بن هيرة والي العراق في عهده، ثم كتب لأخيه داود بن هيرة بعده وهو لا يزال محوسياً. في خلافة مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية.

فلما ظهر العباسيون، وشككوا من الأمويين اتصل بعيسى بن علي — عم الخليفة السفاح، والمصور — وكان حاكم الأهواز، فأسلم على يده — كما قيل — فكان كاتب ديوانه، كما قام بتعليم بني أخيه قنوق العرية.

والمؤرخون يقولون إنه كان كاتباً بليغاً بصارع صديقه الكاتب عبد الحميد الكاتب، والذي كان يكتب بالشام لمروان بن محمد الملقب بالحمار — آخر خلفاء بني أمية. وترجم له كتب (أرسطاطاليس) الثلاثة في المنطق، وكتاب (المدخل إلى علم المنطق) المعروف بإسحاق عوجي. وترجم له عن الفارسية وقبل عن الهندية كتاب (كليلة ودمنة) الشهير. وأقيم بالزندقة.

قال ابن حجر: وحكى المحاضر أن ابن المقفع، ومطيع بن أبياس، ونبی بن زیاد، كانوا يتهمون، ويقال: إن ابن المقفع مر بيت نار المھوس، فتمثل بأبيات عاتكة.

والبيتان ذكرهما الشريف المرتضى في أماليه، وقال روى ابن شيبة قال حدثني من سمع ابن المقفع وقد مر بيت نار الجحيم، بعد أن أسلم فلمحه ومثل:

يا بيت عاتكة الذي أتزل حذر العدى وبه الفؤاد موكل
إني لأمنحك الصدود وإني فسا إليك مع الصدود لأمل

وقال الشريف المرتضى أمها:

وروى أحمد بن يحيى نعلب قال: قال ابن المقفع يرثي س رباد، وقال الأحفش:
والصحيح أنه يرثي ما ابن أبي العوجاء:

رزنا أبا عمرو ولا حي مثله فله رب الحادثات بمن وقع
فإن تك قد فارقنا وتركنا ذوي حلة ما في السداد لها طمع
لقد حر نعماً فقدنا لك أنا أمسا على كل الرزايا من الخزع

قال نعلب: البيت الأخير بدل على مذهبهم في أن الخير مروح بالشر، والشر ممزوح بالخير.
أقول: والأبيات المذكورة في حاشية أبي تمام/٣٥٧.

وقال ابن حجر: ونقل عن ابن المهدي أنه قال: ما رأيت كتاباً في زندقة إلا هو أصله. لسان
الميران ٤٤٩/٣.

وكذلك قال الشريف المرتضى في أماليه ١٣٥/١.

وأضاً ما نقل عنه الإمام القاسم الرسي في كتابه الرد على ابن المقفع، من النصوص التي
تؤكد صدق ما قيل عنه من الزندقة، شاهد عدل، وحيث ثبت، سيما والإمام القاسم قريب العهد
به، إذ ولد ابن المقفع سنة (١٠٦هـ)، وولد الإمام القاسم سنة (١٦٩هـ). إضافة إلى ورع
الإمام الشهد الذي يستحيل معه النقول والإنشاء. ورغم أبي نخت كثيراً عن كتب ابن المقفع
إلا أبي لم أعثر إلا على مجلد بعنوان آثار ابن المقفع، بعد لأي وجهد، حصلت عليه من مكتبة
بعمان الأردن، يحتوي هذا المجلد على:

— كيلة ودمنة

— الأدب الكبير

— الأدب الصغير

— الدرة البينة

— رسالة في الصحابة، وبضع ورقات رسائل وحكم.

ولم أفع على كتابه الذي نقل منه الإمام القاسم، والإمام المؤيد بالله، ولعل الله أن يمس
بالوقوف عليه.

وفي أيام المأمون ظهر الإلحاد وظهر الكلام في نصرة « المانوية »^(١)
و « الديصانية » وبالأخيرة صُنّف « الدامغ في مطاعن القرءان » واختلف
في مصنفه .

ولقد شن الجاحظ حملة شعواء على الثنوية، وذكر طرفاً من عقائدهم التي ذكرها الإمام
القاسم في كتابه (الرد على ابن المقفع)، وهو من المعاصرين للإمام القاسم، فقال: إن كتبهم لا
تعيد علماً ولا حكمة، وليس فيها مثل سائر، ولا خير طريف، ولا صنعة أدب، ولا حكمة
عربية، ولا فلسفة، ولا مسألة كلامية... وحل ما فيها ذكر النور والظلمة، وتناكح الشياطين،
ونسافد العفاريات، وذكر الصنديد، والتهويل بعمود الصبح). الحيوان ٢٨/١.
وهذا يؤكد وجود رسالة ابن المقفع في هذا الشأن، التي رد عليها الإمام القاسم، وقد أثبت
المستشرق الإيطالي (مبكل أنجلو حويدتي) رسالة ابن المقفع التي فيها الإمام القاسم وأكد أنها من
تأليفه.

قتله - حرقاً بتهمة الردقة - سفيان بن معاوية المهلبي، أمير البصرة، بأمر المنصور.
وقيل: إن سب قتله الأمان الذي كتبه لعبد الله بن عني - عم المنصور - بعد أن حرج بالشام
بعد موت السفاح، وكان أميراً عليها، وغلب عليها، وادعى أن السفاح عهد إليه، فحجز المنصور
أبا مسلم الخراساني، فدخل البصرة، فاستأمن له أخواه عيسى وسليمان المنصور فأمنه، فطلب عبد
الله من يرتب له كتاب أمان لا يستطيع المنصور أن يرفضه، وكان ابن المقفع كاتب سليمان أمير
البصرة فأمره فكتب نسخة الأمان، ومن حملته: ومضى عذر أمير المؤمنين بعنه عبد الله، فرفقه
أحرار، وسأوه طوالئ، والمسلمون في حل من بيعته. فاشتد على المنصور، وأمر سفيان بن معاوية
المهلبي - وكان بعادي ابن المقفع - أن يقتله فقتله.
هذا ما قيل في سب قتله.

وكما أسلفنا فقد ولد ابن المقفع سنة (١٠٦هـ)، وقُتل سنة (١٤٢هـ). يعني أنه كان في
ربيعان شبابه عند مقتله، فعمره آنذاك (٣٦) سنة.

(١) الهوس: طرف من الجنون .

(٢) الأعمار: جمع غمر، وهو الجاهل المر الذي لم يخرب الأمور .

(٣) المانوية نسبة إلى ماي بن فاتك، مؤسس المانوية، ولد بجنوبي بابل نحو سنة (٢١٦م) أي
بعد ميلاد المسيح عليه السلام، واختلف في أصله، إلا أن أقرب للصواب أنه كان فارسي الأصل،
وتروى تربية دينية، هيئته فيما بعد إلى ادعاء النبوة هو في سن صغيرة في الرابعة والعشرين من

وصنف ابن الروندي « الفريد » في الطعن على نبوة نبينا صلى الله عليه وعلى آله ، والقدرح في معجزاته ، غير خائف ولا متحاش .

وصنف « التاج » في قدم العالم .

و « الزمرد » في إبطال النبوات ، وإذا كانت الأحوال على ما وصفنا ، فكيف يظن: أن معارضة القراء لو كانت ، يخفى نقلها ، سيما في زماننا هذا .

والباطنية قد اتسعت أحوالهم ، وكثر بذلهم الأموال على الاستدعاء إلى ما هم عليه ، من الجحد للتوحيد والنبوات ، فلو وجدوا سبيلا إلى ذلك لحصلوه بما لهم من طارف أو تليد (١) .

عمره. أما عن أسباب ادعائه النبوة في هذه السن وبواعت ذلك فهو أمر يصعب معرفته أو التكهن به ، لأن أغلب المراجع التي أبحث له نفع عد أسباب ادعائه للنبوة ، إلا أن الظاهر من ذلك هو أن ميوله الشخصية وبينته والتربية الدينية التي تلقاها قد أثرت كثيرا في ذلك. الموسوعة العلمية/٤١٧.

وشرع بشر بالمانوية وقصد الهدى ، ولما ارتقى شاور عرش فارس (٢٤١م) استدعاه ، لكن دعوته لاقت معارضة شديدة من كهنة الزرادشتية ، فلما نصب بهرام بن شاور ملكاً فصى بإعدامه سنة (٢٧٢م) .

وتعتبر المانوية فرقة عنصرية مسيحية ، وهي من أخطر الدعوات على العقيدة المسيحية والأفكار التي تعرضت لها منذ بشرها المسيح عليه السلام ، بل تعتبر من أطول هذه الدعوات التي أثرت فيها ، إذ استمرت من القرن الثالث الميلادي حتى القرن الثالث عشر .

انتشرت المانوية وشاعت واعتنقها الكثيرون في سوريا وآسيا الصغرى والهند والصين ومصر وملاذ البلقان وإيطاليا ومرسا ، وكان القديس أوغسطين نفسه مانوياً لبعض الوقت .

وتقوم عقيدة المانوية على ثنائية الإله ، وهي أهم فكرة في هذه العقيدة ، فهناك إله للنور وإله للظلمة ، والأول إله للخير والحصب والثمار ، والثاني إله للشر والدمار .

(١) الطارف من المال: المستحدث . والتليد: المال القديم الأصلي الذي ولد عندك .

وبمثل هذه الطريقة يتبين أن معارضة القرعان لو كانت ممكنة في شيء من الأعصار التي هي بيننا وبين النبي صلى الله عليه وعلى آله لأني بها ، ولم يكن دولها مانع ولا حاجز .

فإن قيل: فقد حكى عن مسيلمة " ، وطليحة الأسدي " ، وبالأخير عن ابن المقفع ، فصول عدة ادعى أنها معارضة للقرآن ، فما قولكم فيه ؟!

قيل له: أول ما في هذا أنه مما يدل على أن المعارضة للقرآن لم تقع ، لأنها لو وقعت لنتقلت ، كما نقلت هذه الفصول التي ذكرتها ، ولم يمنع منها مانع ، كما لم يمنع من نقل هذه الفصول مع ما فيها من الركافة والسخافة في النظم والوضع .

(١) مسيلمة بن ثمامة بن كبر الحنفي الوائلي ، متنبئ ، من المعمرين ، في الأمثال: أكذب من مسيلمة . ولد ونشأ بالهامة المسماة اليوم: بالحيلة بقرب العينة في نجد . تلقب في الجاهلية بالرحمن . وعرف برحمان الهامة ، وقد مع قومه على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد فتح مكة ، إلا أنه تخلف مع الرحال خارج مكة ، وهو شيخ هرم ، فأسلم الوفد ، وذكروا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم مكان مسيلمة . فأمر له نخل ما أمر به لهم ، وقال: ليس بشركم مكانا ... لما رجعوا إلى ديارهم كتب مسيلمة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله . سلام عليك ، أما بعد: فإنني قد أشركت في الأمر معك ، وإن لنا نصف الأرض ، ولقريش نصف الأرض ، ولكن قریشا قوم يعتدون » . فأجابه صلى الله عليه وآله وسلم: « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله ، إلى مسيلمة الكذاب ، السلام على من اتبع الهدى . أما بعد: فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » ، قاتله المسلمون بقيادة خالد بن الوليد في خلافة أبي بكر ، فقتل سنة (١٢هـ) . ولا يزال في نجد من ينتسب إلى بني حنيفة الذين تفرقوا في أنحاء الجزيرة .

(٢) طليحة بن حويلد الأسدي ، ادعى النبوة ، وارتد بعد أن وفد على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في وفد من قومه في السنة التاسعة للهجرة ، ثم أسلم في خلافة عمر ، توفي سنة (٢١هـ) .

وجملة الكلام في هذا ألها تنقسم قسمين:

إما أن تكون كلاما مستردلا لا ينحط عن كلام المتوسطين في العربية ، من أهل هذا العصر والأعصار التي كانت قبله . فكيف أن تبلغ مرتبة كلام فصحاءهم ، [و] ما جرى هذا المجرى . لا يخيل ^(١) على أحد أنه ليس يجوز أن يظن به أنه معارض للقراءان ، كما لا يجوز أن يظن أن أشعار الخمر الوردية تصلح أن تكون معارضة لأشعار امرئ القيس ، والنابعة ، أو الأعشى ، أو يكون المورد له أخذ ألفاظ القراءان فقدّم منها البعض ، وأخر البعض ، وزاد فيها ونقص منها . ومثل هذا لا يعد معارضة ، لأنه لو عُذّ معارضة لكان لا يتعذر على المفحّم ^(٢) إذا عرف وزن الشعر أن يعارض ديوان امرئ القيس ، وسائر الشعراء الفحول من القدماء والمحدثين - على ما نبينه من بعد - ونحن نذكر تلك الفصول ونبين صحة ما قلناه .



(١) لا يخيل: لا يُظن .

(٢) المفحّم: العبي ، والذي لا يقول الشعر .

[قرآن مسيلة الكذاب]

فمن ذلك ما حكى عن مسيلة الكذاب أنه قال: « والليل الأطحم ، والديب الأدلم ، والجزع الأزلم ، ماهتكت أسيد من محرم » . وقال: « والليل الدامس ، والذئب الهامس ، ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس » .

وكان يقول: « والشاء وألوانها ، وأعجبها السود وألبانها ، والشاء السوداء ، واللبن الأبيض ، إنه لعجب محض ، وقد حرم المذق ، فما لكم لا تجمعون » .

وقال: « ضفدع بنت ضفدعين ، نقي ما تنقين ، أعلاك في الماء وأسفلك في الطين . لا الشارب تمنعين ، ولا الماء تكدرين . لنا نصف الأرض ، ولقريش نصفها . ولكن قریشا قوم يعتدون » .

وقال: « والمدريات ^(١) زرعاً ، والحاصدات حصداً ، والذاريات قمحاً ، والطاحنات طحناً ، والخابزات خبزاً ، والشاردات ثرداً ، واللاقمات لقماً ، إهالة وسمناً ، لقد فضلتم على الوبر ، وما سبقكم أهل المدر . ربكم فامنعوه ، والمعتز فأووه ، والباغي فئاووه » ^(٢) .

(١) كذا في المخطوط ، ولعلها: المدريات .

(٢) عن قيس « جاء رجل إلى ابن مسعود فقال: إني مررت بمسجد من مساجد بني حيفة فسمعتهم يقرأون شيئاً لم ينزل الله ، الطاحنات طحناً ، العاحنات عحناً ، الحمارات حيراً ، اللامعات

وهذه الفصول أبين سخافة ، وأظهر ركافة ، من أن يحتاج إلى ذكرها في كتابنا هذا ، على أنها ليست مما فيه شبهة على أحد سمعها ، لكننا ذكرناها ليتعجب منها المتعجب !! وليعلم أنه لو كانت للقرآن معارضة في الحقيقة لنقلت ، كما نقل هذا الكلام السخيف الذي لـو أراد بعض المتعلمين - الذين تكون بضاعتهم في اللغة مزجاة " - إيراد أسجاع في هذا المعنى لم يرض لنفسه بمثل هذا .

والرجل - أعني مسيلمة - وإن كان كاذبا وقحا ، فإنه كان رجلا من العرب ، ولم يبلغ به جهله إلى أن يدعي أنه يعارض بمثل هذا الكلام القرآن ، لأنه لو فعل ذلك كان يفتضح بين قومه ، وهو لم يوردها على أنها معارضة ، وإنما كان يوردها على أنها مترلة عليه ، وليس كل ما يقصد أن يدعى فيه أنه مترل من عند الله يمكن أن يقال فيه : إنه معارضة للقرآن ، لأننا لا ندعي إعجاز القرآن من حيث أنه مترل من عند الله تعالى فقط ، بل لأوصاف آخر تخصه .

لقما ، قال : فقدم ابن مسعود بن النواحة إمامهم فقتله واستكر البقية ، وقال : لأحزرمهم اليوم الشيطان ، سيروهم إلى الشام حتى يرزقهم الله نوبة ، أو يفتيهم الطاعون .

قال : وأحبري إسماعيل عن قيس بن أبي حارم أن ابن مسعود قال : « إن هذا لابن النواحة ، أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبعثه إليه مسيلمة ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : لو كنت فنانا رسولا لقتلته . » رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ٤٣٩/٦ (٣٢٧٤٣) ، والطبراني في معجمه الكبير ١٩٤/٩ (٨٩٥٦) .

ألا ترى أنه لا شك أن التوراة والانجيل والزبور كانت متزلة من عند الله ، وإن لم يثبت فيها الاعجاز .

ومن كلام هذا المهرص " الكذاب : « ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى » .

وحكى : « لقد منَّ الله على الحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفاق وحشا ، وأحل لها الزنا » . وهذا الكلام وإن كان سخيفا ، فإنه أسفـ[ه] مما تقدم من كلامه . والعلة فيه : أنه أدخل فيه شيئا من ألفاظ القرآن ، لأنه أخذ الابتداء من قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) ﴾ [الفيل] ، فجعل « الحبلى » مكان ﴿ أَصْحَابِ الْفِيلِ (١) ﴾ .

وكذلك فيما حكى من قوله : « لقد منَّ الله على الحبلى » ، أخذه من قول الله عز وجل : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ١٦٤] . فجعل « الحبلى » مكان ﴿ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقوله : « أخرج منها نسمة تسعى » من ألفاظ القرآن إلا قوله : « نسمة » ، فاكسى هذا الفصل ضربا من الزبرج " ، لما فيه من ألفاظ القرآن .

واعلم أن الشاعر يدخل لفظة من القرآن في بيت من الشعر ، أو يدخلها الكاتب في فصل من كتابه ، والمُحاور في فصل من محاورته ،

(١) كذا في المخطوط ، ولم أقف له على معنى يتوافق مع السياق في كتب اللغة .

(٢) الزبرج : الذهب ، وكل شيء حسن : زبرج .

فيكتسب ذلك البيت وذلك الفصل من العذوبة والرونق ما يصيِّره غُرة^(١) في سائرهِ ، وهذا من عجيب ما اختص به القراء ، وفيه دلالة واضحة أنه مباين لكلام البشر والحمد لله .

وقد رأيت بعض من كان يتعاطى الفصاحة ، ويدعي البلاغة من أهل عصرنا هذا ، يعجب بفصل يحكيه عن طليحة الأسدي ، وهو « ما يفعل الله بتعفير خدودكم ، وفتح أدماركم ، اذكروا الله أعفة قياما » . وكان يقول: « ما هذا بكلام رذل » . وكان يوشح به ما كتب ، أقدره أنه منطوي عليه^(٢) .

وهذا الفصل إنما صار له يسر من الرونق ، لأنه أدخل فيه شيئا من ألفاظ القراء ، لأن الله تعالى يقول: ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ ﴾ [البقرة: ١٤٧] ، فأخذه ، وأخذ^(٣) « اذكروا الله أعفة » من قوله تعالى: ﴿ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا ﴾ [آل عمران: ١٩١] ، ومن قوله تعالى: ﴿ اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤١] .

على أن هذا القدر وبأضعافه لا يمكن أن يعرف حال الكلام ، وحال المتكلم ، كما أن بالبيت الواحد وبالبيتين لا يمكن أن يعرف حال الشاعر ، وبالفصل الواحد وبالفصلين وبالثلاثة لا يمكن أن يعرف حال الكاتب والكتابة . وإنما يمكن أن يعرف ذلك إذا امتد نفس الكلام

(١) الغُرة: أول كل شيء وأكرمه .

(٢) كذا في المخطوط . ولعله يريد: أن هذا الرجل معتقد لبوة طليحة الأسدي .

(٣) في المخطوط: فأخذ هو أخذا . ولعل الصواب ما أثبت .

، وظهر التصرف فيه ، ولهذا نقول: إن بهذا القدر من القراءان لا يمكن أن يعرف إعجازه ، لأن هذا القدر من القراءان لا يمكن أن يعرف إعجازه ، لأن هذا القدر وأضعافه قد يتفق فيه ما لا يمكن لصاحبه الاستمرار عليه .

فأما ما ذكر عن ابن المقفع في هذا الباب فهو أكثر ، ونحن نذكر طرفا منه وننبه به على غلظه ، فإني رأيت كثيرا من الجهال يدخلون به الشُّبُه على أنفسهم . فمن ذلك: « وأما الذين يزعمون أن الشك في غير ما يفعلون ، وتنتهي الثقة إلى ما يقولون ، أولئك ممن غضب عليهم رهم ، إنه خبير بما يعملون ، الذين اتخذوا من ذوي نصيرا ، أولئك لا يجدون وليا ولا هم ينصرون ، ومنهم من يتخذ أندادا من دون الله رجما بالغيب ، أولئك وراءهم شر ما يظنون » .

فانظروا - رحمكم الله - إلى صفاقة هذا الانسان ، كيف جاء إلى ألفاظ القراءان فحرَّفها عن مواضعها ، وأوهم أنها من كلامه ، فأفسد وضعه ونضمه ، وما أشبهه ، إلا ما حكى لي بعض أهل الأدب أنه أنشد قول المتنبي:

بقائي شاء ليس هم ارتحالا وحسن الصبر زموا لا الجمالا^(١)
فقال: أخذ قول أبي تمام ففسخه وفسخه ومسخه ، يعني قوله:
قالوا الرحيل فما شككت بأفها نفسي عن الدنيا تريد رحبلا^(٢)

(١) لم أفق عليه .

(٢) البيت لأبي تمام . ورد في المخطوط: شككت بأنه . . . انظر ديوانه .

فأبلغت الحكاية المتنبي ، فقال: هلا وهبه لقولي:

وحسن الصبر زموا والجمالا

وابن المقفع أسوأ حالا من المتنبي ، لأنه ليس لكلامه من الحسنات ما يوجب له السيئات . فتأملوا - رحمكم الله - كيف جاء إلى ألفاظ القرآن ، لأن ﴿ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ [المائدة: ١٤] " من ألفاظ القرآن ، وأنه ﴿ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة] من ألفاظ القرآن ، وكذلك قوله: " أولئك لا يجدون وليا ولا هم ينصرون " كله من ألفاظ القرآن ، إلا أنه حرّف وغير وأفسد اللفظ ، وسلبه حسنه بتغيير النظم

وكذلك قوله: " ومنهم من يتخذ من دون الله أندادا رجما بالغيب أولئك وراءهم " كل ذلك من ألفاظ القرآن . وليس له من الزيادة في هذا إلا قوله في أوله: " يزعمون أن الشك في غير ما يفعلون " ، وهذا كلام مبتذل " من ألفاظ العامة والسوقة ، لأن إرادتهم نفي " الشك عما كانوا يفعلون ، فلم يصرح به ، وإنما أثبتته في غير ما يفعلون .

ولعمري إن الفصيح قد يعدل عن التصريح إلى التلويح ، لكن على وجه يكون أبلغ من التصريح ، وبالألفاظ تكون أجزل من ألفاظ التصريح ، ويكون ذلك لغرض صحيح . وذلك مثل قول الله تعالى: ﴿

(١) في المخطوط: ﴿ غضب عليهم ﴾ . ولا يوجد هذا اللفظ .

(٢) في المخطوط: مستدل . ولعل الصواب ما أثبت .

(٣) في المخطوط: مع .

وَأَنَا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾ [سبا] ، أراد: إنى على الهدى وأنتم فى ضلال مبين ، فعدل عن ذلك إلى الإيجاز والتلويح بلفظ هو أشرف وأجزل ، وكان الغرض فى هذا بيان ذلك بما يكون أجمل ، والتنبيه عليه بما يكون ألطف ، وكلام هذا المختلق لا يحتمل ذلك ، لأنه أردفه بقوله: « عليهم غضب من رهم » ، وهذا نبؤ فى المعنى الذى له يعدل عن التصريح إلى التلويح .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢] ، فعاتبهم بالطف عتاب ، وجعل خطابهم أجمل خطاب . ثم عقبه بقوله: ﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٢] ، فكان عجز الكلام مطابقا لصدوره ، واستمر الغرض فيهما على منهاج واحد .

ومن زيادته أيضا قوله: « أولئك وراءهم شر ما يظنون » ، وهذا وإن كان اللفظ لغوا^(١) ، فإنه أخذه من معنى قول الله تعالى: ﴿ وَبَدَأَ لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر: ٤٧] ، وكساه من لفظه الخسيس ما أزال رونقه ومحجته .

ومن كلام هذا الجاهل وأوهم أنه عارض: « قل أعوذ برب الناس » ، المعاذ بصاحب البلد ، مالك البلد ، وباني البلد ، وساكن البلد ، من

(١) فى المخطوط: المختلف . ولعل الصواب ما أثبت .

(٢) فى المخطوط: لغو . ولعل الصواب ما أثبت .

شر العاربة ، وأهل الطاغية ، الذي أضل صاحبه ، ومنع جانبه ، وحى جاره من سكان المدر ، وخلاف العذر والعرر .

تأملوا - رحمكم الله - حال هذا الجاهل في ادعائه أنه أورد معارضة ، ومن جاء إلى كلام فصيح شريف الوضع أو كلام متوسط أو مسترذل . فأبدل (") كل كلمة منه بكلمة نافرة أو غير نافرة ، هل يكون معارضا ؟ وهل يستحق ذلك أن يسمى: معارضة ؟!

فأما قوله: « أضل صاحبه ، ومنع جانبه » . . . إلى آخر الفصل ، فكلام لا يلاحن بعضه بعضا ، لأن قوله: « أضل صاحبه » ذم ، وقوله: « حى جاره » مدح . وقوله: « سكان المدر ، وخلاف العذر والعرر » لا ملاءمة بين بعضه والبعض ، وإنما طلب به السجع من أقبح الوجوه . على أن سكان المدر لا مزية لهم في الشر على غيرهم ، فلا وجه لتخصيص الاستعاذة من شرهم لولا عمى قلبه .

وقلنا: إن هذا الفصل لا يصح بته على وجه من الوجوه أن يسمى: معارضة ، لأنه جار مجرى أن يقول الانسان: ونظنهم متبهيين وهم نيام .

ويدعي أنه عارض قوله: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ [الكهف: ١٨] ، فلا يستحق أن يسمى: معارضة بته ، لأنه أبدل كل لفظة منه بلفظة ، وأتى بالفاظ وضیعة بدل ألفاظ شريفة .

ولئن حاز أن ذلك معارضة ، فلم لا يكون معارضا لقول امرئ
القيس :

كَانَ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابَسًا لَدَى وَكْرَهَا الْعَنَابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي (١)
بأن يقول :

تَغَالِ الْوَحْشُ فِي طَلِ أَرْضِنَا وَفِي يَتَا التَّفَاحِ وَالْعَنَبِ الْبَالِي
ولم لا يكون معارضا لقوله :

خَلِيلِي مَرَا بِي عَلَى أُمِّ جَنْدَبٍ لِنَقْضِي حَاجَاتِ الْفُؤَادِ الْمَعْدَبِ (٢)
بأن يقول :

حَبِيبَا سَمَرَا بِي عَلَى أُنْتِ زَيْنَبُ لِنَقْضِي أَوْتَارَ الْفُؤَادِ الْمَعْدَبِ
ولم لا يكون معارضا لقول الكميّ :

طَرَبْتُ وَمَا شَوْقًا إِلَى الْبَيْضِ أَطْرَبُ وَلَا لَعِبًا مَنِي وَذُو الشَّيْبِ يَلْعَبُ (٣)
بأن يقول :

لَعَبْتُ وَمَا مِيلًا إِلَى السَّمْرِ أَلْعَبُ وَمَا لَهْوً مَنِي وَذُو السِّنِّ يَطْرَبُ
أَتَرَى هَذَا الْجَاهِلَ لَمْ يَعْرِفْ شَيْئًا مِنْ نِقَاضِ حَرِيرِ وَالْفَرْزَدَقِ ، وَمَا
مَعَارِضَاتِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ وَعَلَقْمَةِ ؟ وَلَمْ يَتَصَوَّرْ كَيْفَ كَانَتْ تَجَرِي
المعارضات بين العرب .

وما عندي أنه خفي عنه ذلك ، لكنه أراد أن يسخر بما أتاه من
بعض الجهال أو الأغمار .

(١) البيت من معلقة امرئ القيس .

(٢) البيت مطلع قصيدة لامرئ القيس . انظر ديوانه .

(٣) البيت مطلع قصيدة للكميّ بن زيد الأسدي . انظر ديوانه .

على أن كلام ابن المقفع إذا لم يدَّع أنه يعارض القرآن ليس من هذا الجنس ، بل هو من كلام الفصحاء .

فإن قيل: فكيف يجوز أن يُجَوَّد كلامه إذا قصد غير معارضة القرآن ، ويسقط إذا أرادها ، إلا أن يقولوا بالصرف ؟!

قيل له: هذا مما نبَّهه ونوضحه في الفصل الذي نبين أن الاعجاز تعلق بالنظم والفصاحة جميعا ، وستجده إن شاء الله هناك شافيا كافيا .
ومن كلام هذا الجاهل - أعني ابن المقفع - : « ألا إن الذين اتخذوا إلها من دون الواحد القهار ، لبس ما يصنعون ، ولا تكونوا كما للذين آمنوا ، ولم يشر إيمانهم لظلمهم ، أولئك عليهم غضب من ربهم وهم لا يهتدون » ، والكلام في هذا كالكلام فيما تقدم ، الألفاظ كلها ألفاظ القرآن ، حرَّفها وأفسدها بالتقدم والتأخير ، والتبديل والتغيير ، ثم جاء إلى قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ [الأنعام: ٨٢] ، فغيره بأن قال: « الذين آمنوا ولم يشر إيمانهم لظلمهم » ، فجاء إلى ذلك النظم الشريف الرائع فنقله إلى النظم العامي .

ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ ، جرى على منهاج وطريقة واحدة . فإنه جعل الفعل في الأول والآخر للذين آمنوا ، فاتسق الكلام أحسن الاتساق ، وانتظم أحسن الانتظام . وهذا الغي جعل الفعل الأول للذين آمنوا ، والفعل الثاني لإيمانهم ، لأنه قال: « لم يشر إيمانهم » ، فحصل في الكلام بعض الاضطراب .

ولست أقول: إن هذا القدر لا يحتمل أن يقع في كلام الفصحاء ،
ولكن إذا أتى كلاما فصيحاً فرام أخذ معناه بلفظ من عنده يكسوه ،
فأقل ما في بابه أن يساويه ، إن لم يجاوزه " .

فأما أن يسقط دونه فهو من أمارات الخذلان . على أنا قد بينا أن
هذا الجنس من الكلام لا يستحق اسم المعارضة ، ومن أتى به لا يصح
أن يسمى: معارضا على مذهب العرب والعجم . فإن للعجم أيضا
معارضات على مقادير لغاقم ، وضربنا لصحة ما قلناه الأمثال بالآيات
التي أبدلنا كل لفظة منها بلفظة ، فاتضح الكلام فيه بحمد الله ومنه .

ومن كلام هذا الجاهل - وقيل: إنه أوهم به معارضة قول الله
تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) ﴾
[الفجر] -: " تأمل صنيع الله بأهل الشام ، وقد شملتها الآثام ، وكثر
فيها الإحرام ، فيومئذ حين أظلمت الأكام ، والقادمين من السرق
بالخيام ، إن ربك صب عليهم سوء العذاب ، إنه لا يجعل العقاب ،
ولهم الجزاء الأوفى يوم الثواب " .

تأملوا - رحمكم الله - هذا الفصل وما فيه من الخلل ، لتعلموا بُعد
هذا الانسان عما تحراه ، وسقوط كلامه دون الغرض الذي رماه .
فإن أول الكلام من كلام الكتاب المقلين في البضاعة ، المتكلفين
للصناعة ، وفي كُتَاب عصرنا من لا يلحق هذا الكلام شيئا من كلامه
."

(١) في المخطوط: وإن لم يجاوزه . ولعل الصواب ما أثبت .

فقوله: « شملتها الآثام ، وكثر فيها الإحرام » ، تطويل لا يفيد آخره إلا ما أفاد أوله .

ولعل ظانا يظن أنه مثل قول الله عز وجل: ﴿ الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) ﴾ [الفجر] ، وليس ذلك كذلك ، لأن الطغيان هو مجاوزة الحد في الترفع والتكبر ، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءَ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْحَارِثَةِ (١١) ﴾ [الحاقة] ، والحنا والفساد ليسا من ذلك في شيء .

وهذا الجاهل أخذ هذا من قول الله تعالى: ﴿ وَأَخَاطَتْ بِهِ خَطِيبْتُهُ ﴾ [البقرة: ٨١] ، فانظروا في حال الكلامين في جزالة اللفظ واختصاره ، مع أن فيها المعاني ، ليعلم أن ما بين الكلامين ما بين الثرى والثريا .

وقوله: « إن ربك صب عليهم سوء العذاب » . وقوله: « الجزاء الأوفى » ، كله من ألفاظ القرآن ، لأنه أفسد الوضع حين عقب « صب عليهم سوء العذاب » بقوله: « إنه لا يعجل العقاب » ، لأنه لا يحسن أن يقال: « عذبهم » .

ثم يقال: « لا يعجل العقاب » ، لأن الإخبار بأنه لا يعجل العقاب إنما يحسن أن يكون توعدا مع المهل ، أو توعدا قبله ، أو بعد ذكر العفو . فأما مع الإخبار بقرول العذاب فإنه لا يحسن . لكن يد الخذلان تصرفه كيف شاءت ، ولهذا لم يذكر الله عز وجل ترك تعجيل

العقاب إلا مع ذكر المهل أو العفو ، وهما كقوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ
الْقَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبْتُمْ لَأَعَجَلَ لَكُمْ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ
مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا ﴾ (٥٨) ، وكقوله: ﴿ وَلَوْ
يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ ذَاتِهِ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى
أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [النحل: ٦١] ، وكقوله: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا
كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَاتِهِ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾
[ماطر: ٤٥] ، وكقوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ
وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ . . . إِلَى قَوْلِهِ: إِنْ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ﴾
[الأنعام: ١٣٣ - ١٣٤] .

وقول هذا الجاهل: « وهم الجزاء الأوفى يوم الثواب » ، كلام مختل
لأن جزاء المخرج (١) لا تعلق له الثواب .

ومن كلام هذا الجاهل بعد هذا الفصل: « يا أيها الناس قد نسب
أهل العراق إلى الشقاق والنفاق ، وفي الزعاق ، ويظهرون طاعتهم
للخلاف ، وإن ربك هو أعلم بمن حاد عن طريقهم ، وهو أعلم
بالمعتدين ، وأوفى للمهتدين » .

أما ابتداء هذا الكلام فهو أسجاع باردة لا فائدة فيها ، وهو من
جنس كلام مسيلمة ، ولهذا قال أبو بكر لما بلغه شيء من كلام
مسيلمة: « إنه كلام لم يخرج من إله » ، يعني: من عند الله تعالى ، ﴿
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (١٢٥) .

الحل | ، فأفسد النظم لأن قول الله تعالى اشتمل على قسمة حسنة ، لأنه يبين أنه أعلم بمن ضل عن سبيله ، وبمن اهتدى ، وهذا الجاهل غير ذلك ، وأزال حسنه ، وجعله تطويلاً غير مفيد ، لأن الحائد عن الطريق والمعتدي واحد ، مع أن فيه إبدال لفظة بلفظة . وقد بينا أن ذلك لا يصح أن يسمى : معارضة .

ثم قال هذا الجاهل : « ولئن أكرمه ، وأفاء من النعمة عليه ليتم ها شكره ، ثم يعرف بذلك ربه ، إنه رب عليم ، ورعوف حلیم » ، وهذا كلام كما ترى ركيك من كلام الكُتّاب الذين لم يتقدموا في الصناعة ، ولم يؤتوا حظاً من البراعة .

ولهذا الجاهل كلام كثير يجري هذا المجرى ، ولا فائدة في إطالة الكتاب بذكر جميعه ، بعد أن نبهنا على غمطه وطريقه ، لئلا يفتر به مغتر .

ثم قال بعد فصول من كلامه : « وبقي أن تستوي حالة الكلامين بأن لا يتفاضل الاعتقاد فيهما ، فيعظم أحدهما ، ويصغر الآخر ، ثم تكثر تلاوة أحدهما كما كثرت تلاوة الآخر ، فيستعذب ألفاظ أحدهما كما يستعذب ألفاظ الآخر ، ويستفصحه كما استفصح الأول ، فبالإلف يعذب المتلو ، ويُستلذ المأكول والمشروب والمنكوح ، وبالتكر والاستغراب ينفر عنه ، ويبعد عن الصواب ، ولتعد به الحنجرة ، كما تعد بغيره .. »

فيقال لهذا الجاهل السخيف: أرأيت لو أن بعض سخفاء الكتاب المتأخرين في البلاغة كتب كتابا يظن^(١) اللفظ ساقط المعنى ، ثم يذكر أنه عارض به رسائل المتقدمين في صناعة الكتابة ، ثم اعتذر بما اعتذرت به ، فقال: يجب أن لا يتفاضل الاعتقاد فيهما فيعظم كلامه ، ويصغر كلامي ، هل يكون جوابه عند أهل المعرفة بهذا الشأن إلا التبسم والاستخفاف لعقله ومعرفته؟!

وأما قوله: « وليكثر من تلاوته كما أكثر من تلاوة الآخر . . . » إلى آخر الفصل ، إلى ذكره المأكول والمشروب والمنكوح ، كلام جاهل بالعبارات ، أو متجاهل .

لأن المعلوم من أحوال الناس وعاداتهم التي لا تكاد تخفى على المراهقين فضلا على البالغين المحصلين: أن الاكثار من الشيء تلاوة كانت فيما يتلى ، أو شربا فيما يشرب ، أو غير ذلك يوجب الملل ، ويسبب السآمة ، ويصور التلؤ والمشروب والمأكول والمنكوح يصوره بما يستقل ، لهذا يعدل الانسان في هذه الأمور من شيء إلى شيء ، مسترشحا إلى الثاني عند الملل من الأول ، ولهذا يستكثر من ألوان الطيبخ

ولهذا يعدل في النكاح عن الحلال الحاصل إلى الحرام المستحدث ، وربما كان من يتمكن الانسان منها أصبَح^(٢) وجهها ممن لا يتمكن ،

(١) كذا في المخطوط .

(٢) من الصباحة وهو الجمال .

وليس الغرض فيه إلا الاستلذاذ للحديد ، فالأمر فيما ذكره إذن على العكس مما قاله .

فإن قيل: فتحن نعلم أن بعض أهل البلدان يستلذون من الأطعمة والملابس ما لا يستلذه أهل بلد آخر ، وليس ذلك إلا للإلف .

قيل له: ذلك يكون إذا اختلفت الأجناس ، كما أن أهل طبرستان يستلذون خبز الأرز فوق ما يستلذون خبز البر .

فأما إذا كان الجنس واحدا ، فلا شك في مزية المستحدث الجديد . ولهذا قيل في المثل: « لكل جديد لذة » .

ولهذا قالوا في القرآن: « إنه لا يخلق ولا يعمل على كثرة الرد » . فجعلوا ذلك من آياته .

ولا يكسب المال إذا كثرت ترديده ، ودامت تلاوته .

يجري الأمر فيه على خلاف المعتاد ، على أن ما ذكره لو كان صحيحا لبطل التفاضل بين الأشياء في ذواتها ، وكان الفضل يرجع إلى المعتاد المتقدم ، وكان المكثّر لإنشاء " شعر الحيرزي إذا أنشد في النادر شعر امرئ القيس ، وكان عارفا بالشعر ومحاسنه ومساوئه ، وبالفارق بين الكلام الفصيح وغير الفصيح ، يجب أن يرى شعر الحيرزي على طبقة من شعر امرئ القيس ، وهذا لا يرتكبه إلا جاهل ، فكان يجب على هذا أن يكون الذي يكثّر عنده الجوارى الزنجيات القبائح ، إذا

وجد رومية حسناء أن يكون استلذاذه للزنجيات القباح أشد ، وهذا
هوس لا يظنه عاقل !!

فأما مد الحنجرة به ، فأى تأثير له في مواقع الكلام ؟! أما يعلم
هذا الجاهل: أن الانسان قد يسمع كثيرا من الأبيات المملحة من المغنين
والقوَّالين ، ثم لا يخفى عليه إذا كان من أهل الصناعة الفرق بين جيدها
ورديتها ، وفصيحتها ومسترذمها ، ثم لا يخفى عليه الفرق بين الرديء
الذي سمعه ملحنا ، وبين الذي لم يسمعه قط ملحنا ؟ فأى تأثير في هذا
الباب لمد الحنجرة ؟ لولا أنه كما قال عز وجل: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ
وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (٤٦) [الحج] .

فإن قيل: فهبكم قد عرفتم التفاوت الذي بين القراءان ، وبين كلام
هذا الانسان ، وعلمتم أنه لا يصح أن تكون معارضة للقرآن للوجوه
التي ذكرتموها ، والأمثال التي ضربتموها ، فكيف تعرفه العامة والذين
لا يعرفون ما ذكرتم وبينتم ؟!

قيل لهم: طريق معرفتهم هو أنهم يعرفون الأخبار التي تتوافر عليهم
. إن مثل ^(١) أهل العراق ومن نخا نخوهم ، وكذلك الفرس وأشباههم ،
تقصر فصاحتهم وبلاغاتهم في منشور الكلام ومنظومه عن فصاحة
العرب من أهل البادية وبلاغاتهم . إذا عرفوا ذلك وعرفوا عجز العرب
عن الاتيان بمثل القراءان بما نبينه عرفوا عجز من دونهم ، لأنه لا يجوز أن
يعجز عن الشيء من يكون في الطبقة العليا من التمكن ، ولا يعجز عنه

(١) في المخطوط: مثلا . ولعل الصواب ما أثبت .

من يكون في الطبقة الدنيا ، فيحصل لهم العلم بهذا الاعتبار أن ما أتى به
هذا الجاهل لا يصح أن يكون معارضا للقرآن ، وأن القراءان معجز .
واحمد لله رب العالمين على ذلك .



الكلام في بيان أن الإعراض عن المعارضة إنما كان للتعذر

فإن قيل: ولم ادعيتم أن العرب كُفّت عن معارضة القرمان لتعذرها عليهم ، وما أنكرتم أن يكونوا كفوا عنها وتركوها لبعض أغراض كانت لهم ، فإن الناس قد تصرفهم الصوارف عن كثير مما يتمكنون من فعله ؟

قيل له: قلنا ذلك لأنهم كفوا عن المعارضة وتركوها وعدلوا عن الاشتغال بها ، مع ما كان من النبي صلى الله عليه وآله وسلم من التحدي لهم على ما بيناه ، مع توفر دواعيهم لتوهين أمره ، وإظهار ما كانوا يدعون من افتراءه " صلى الله عليه وآله وسلم وحاشاه من ذلك

وقد علمنا: أن العقلاء إذا دُعوا إلى أمر يكرهونه ، يهون عليهم لدفعه وإبطاله بذل أمواتهم وأنفسهم ، وكان من يدعوههم إلى ذلك يدعوههم لحجة يبرزها ويدعيها ، وكانوا متمكنين من إيراد ما يدحضها ويبطلها ، ويكشف عن ضعفها وهنها ، من غير ضرر بمسهم ، أو مشقة عظيمة تلحقهم ، فلا بد من أن يأتوا به ، ومتى لم يأتوا به ، دل على أنهم غير متمكنين من الاتيان به .

ألا ترى أن واحدا لو جاء وادعا النبوة في قوم ، وهم له كارهون ، ولتكذيبه مجتهدون ، فقال لهم: معجزتي أن من كلمته منكم في هذا

اليوم لا يمكنه أن يجيبني ، ثم أخذ يكلمهم طوال النهار من غير أن يجيبه أحد منهم ، مع وفور بواعثهم على توهين أمره ، وتنفير أصحابه عنه بإظهار كذبه ، دلنا ذلك على أن جوابه قد تعذر عليهم ، وأن ذلك معجز له ، وهذا مما لا يخيل على أحد أنصف نفسه أنه على ما قلنا .

وجملة هذا الباب: أن كل من علمنا من حاله أنه لا يفعل فعلا ما ، مع توفر الدواعي إليه ، وقوة البواعث عليه ، ومع ارتفاع الموانع عنه ، وفقد الحواجز دونه ، نعلم أنه " لم يفعله إلا لتعذره عليه . ولولا ذلك ، لم يكن لنا طريق من جهة الاكتساب يتوصل به إلى العلم بتعذر شيء على أحد . وفيما ذكرناه وأوضحناه دليل على أن معارضة القراء أن كانت متعذرة على العرب .

فإن قيل: فأنتم بنيتم كلامكم هذا على أن دواعيهم كانت متوفرة إلى ما ذكرتموه . فدلوا عليه .

قيل له: من أوضح ما يدل على قوة دواعي المرء إلى أمر من الأمور ، يُعرف من حاله أنه قد بذل لطلبه ونيله والتوصل إليه ، أعز الأشياء عليه . وقد علمنا أن أعز الأشياء على الإنسان: النفس ، والمال ، والأرحام .

ووجدنا مشركي العرب من قريش وغيرهم قد بذلوا الأنفس والأموال ، وقطعوا الأرحام ، لمعاداة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولإدخال الوهن عليه ، وإبطال ما كان يدعيه من النبوة ،

وبذل هذه الأمور لا تصح من العاقل لإبتغاء أمر وطلب حال ، إلا إذا كانت دواعيه إليه ، وبواعثه عليه ، تكون قد بلغت في القوة مبلغا عظيما ، حتى قاربت حد الإلجاء وإن لم تكن ^(١) بلغته .

على أن الأسباب المقوية للدواعي والبواعث كانت حاصلة ، فلا بد من حصول قوتها ، لأن أقوى الدواعي أن ينظر الانسان إلى نظرائه في النسب ، ويدعي عليهم الرئاسة ، وأنه يجب عليهم ^(٢) الإنقياد له ، والخضوع لأوامره ونواهيه فيما يحكم عليهم ولهم ، في أنفسهم وأموالهم وأهليهم وذرائعهم ، مع ذمه من خالفه منهم فلم يتبعه ، ولم يتقد له ، وتكفيره إياهم ، ودم أديانهم ، وما كان عليه آباؤهم وأسلافهم ، من غير رئاسة كانت له عليهم ، ولا زيادة في مال أو جاه أو ملك يتميز به منهم ، بل يكون في القوم من يزيد عليه في كثير من الأحوال ، ثم تكون أحواله مع ذلك في ضمان ^(٣) القوة ، وأخذة في المزيد ، وأحوال القوم آخذة في جانب التراجع ، ماضية في حيز التهافت ، مع حصول تلقيهم بالامكان لجميع ما ادعاه ودعاهم إليه وشدة امتعاضهم لذلك ، مع أن القوم يُعرفون بالعصية ، وشدة الحمية . والقرعان مما كانوا يعتقدون أن عليهم فيه سُبّة وعارا ، وكل ما ذكرناه كانت أحوال القوم مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فدل ذلك على قوة

(١) في المخطوط: يكن . ولعل الصواب ما أثبت .

(٢) في المخطوط: لهم . ولعل الصواب ما أثبت .

(٣) كذا في المخطوط .

دواعيهم إلى ما ذكرنا ، ولم يجوز مع ذلك أن لا يقع منهم ^(١) معارضة
القرآن لولا تعذرها عليهم .

فإن قيل: ما أنكرتم أن يكون القوم خفيَ عليهم أن معارضة
القرآن أبلغ الأشياء في إبطال دعواه ، وإزالته عما كان يتوخاه ،
فأعرضوا عنها إلى ما سواها ، واشتغلوا بما عداها ؟!

قيل له: هذا لا يجوزُ مَنْ عرف أحوالهم ، لأنهم كانوا أعرف
الأمم بمواقع المخاطبات ، ومذاهب المعارضات ، إذ تلك من عاداتهم
السالفة ، وسجاياهم الخالفة ^(٢) .

ولا يجوز أن يكون خفيَ عليهم أن معارضته لو تمكنوا منها تكون
أبلغ الأشياء في توصلهم إلى مرادهم فيه ، لأنه صلى الله عليه وآله لم
يكن يدعي ما كان يدعيه لتمكنه من مال أو سلطان أو اقتدار ، أو
تعزُّز بشريعة يصدر عن أمره فيما يمثله لهم من محاربة عدو ،
أو معاونه ولي ، وإنما كان يدعي أنه رسول الله صلى الله عليه وآله ،
وأن شعاره ودثاره الصدق وبجانبه الكذب ، ومن يكون كذلك لا
يخفى على العقلاء أن أبلغ الأشياء في تبديل حاله ، وتفريق أصحابه
ورجاله عنه ، إظهار كذبه فيما يدعيه ويقول .

وهب أن ذلك يخفى على الواحد والاثنين لغفلة تعرض - مع تعذر
ذلك - كيف يجوز أن يخفى ذلك على العدد الكثير ، والجم الغفير ؟!!

(١) في المخطوط: ينفع منه . والصواب ما أثبت .

(٢) في المخطوط: الخالفة . ولعل الصواب ما أثبت .

وهب أن ذلك يخفى مدة من الزمان يسيرة ، كيف يجوز أن يخفى ذلك ثلاثا وعشرين سنة ؟!

وهب أنهم ظنوا في أول الأمر أنهم يجمعونه بالحرب والقتال . كيف يظنون ذلك بعد ما كشفت لهم تلك الحروب عن قوة أمره ، وضعف أمرهم ، بل قتل كثير من صناديدهم وساداتهم حربا وصبرا ، وسي كثير من ذراريهم ، ونفي كثير منهم عن أوطانهم ؟ وهذا أوضح من أن يحتاج له إلى تطويل الكلام !!

فإن قيل: ما أنكرتم أن يكون ذلك خفي عليهم ، لأنهم كانوا إخوان الحروب ، وأصحاب الغارات ، ولم يتواتر أن ضربوا في الجدل وطرائقه بسهم ، ولا ثبت لهم في ذلك قدم ، ولم يكن النظر في الديانات ، والبحث عن صحيحها وسقيمها ، والتنقير عن الطرق المؤدية إلى الفصل بين الحجاج والشبه من عاداتهم ؟!

قيل له: هذا ما لا يجوز أن يخفى عليهم، لأن علمهم بالمعارضات وطرفها كان أقوى علومهم ، ومعرفتهم بها أكثر معارفهم ، وما يجري هذا المجرى يكون العلم به ضروريا ، ثم العلم بأن من ادعا حالا من الأحوال ، واعتصم لصحته بأمر من الأمور ، فأقوى الأشياء في إيضاح كذبه ، والإبانة عن إفترائه وتقولهُ ، هو تبين فساد ما اعتصم به ، وسقوط ما التجأ لتصحيح دعواه إليه ، من العلوم الضرورية التي يشترك فيها العقلاء ، والمراهقون الذين قاربوا كمال العقل ، وإن لم يكونوا بلغوه .

ولهذا ترى المختلفين في قيمة سلعة إذا ذكر المغالي بها سلعة على صفة ، يجب أن يغالي بقيمتها من أجل تلك الصفة التي يجد ^(١) المخالف له في ذلك أن يطعن في تلك الصفة وينازع فيها ، ولا يشتغل بغير ذلك . وتجده الصبيان إذا ادعا أحدهما أنه أحسن ^(٢) صراعا من الآخر لوجهه يورده ، ترى المياري له ينازعه في تلك الصفة يحاول إيراد ما يمنعه من الاحتجاج بها ، ثم تجد أحوال أصحاب المهن من الصناعات ، والمشتغلين بالزراعات ، يستوون فيما ذكرناه ، ويتبارون فيما حكيناه ، فإذا ثبت ذلك بان أن ما ادعوا ^(٣) خفاءه على العرب من أحوال المعارضات ، باطل لا يدعيه عاقل .

على أنهم بعد مهاجرة النبي صلى الله عليه وآله إلى المدينة قد خالطوا أهل الكتاب ، واستعانوا بهم ، ولهذا انضم قريش وغطفان بعضها إلى بعض ، وانضم اليهم اليهود الذين كانوا حول المدينة ، يوم الأحزاب ، واجتمعوا وتناصروا ، وكان الساعي في ذلك والجامع لشملمهم ، والمؤلف بينهم حيي بن أخطب ، وهو القائل لرسول الله صلى الله عليه وآله يوم قريظة حين قُدِّم لضرب عنقه: « يا محمد ما لمت نفسي في عداوتك » ^(٤) .

(١) في المخطوط: تجد . ولعل الصواب ما أنتت .

(٢) في المخطوط: أحدهما أمرا أحسن . ولعل الصواب ما أنتت .

(٣) في المخطوط: ذلك بأن ما ادعوا . ولعل الصواب ما أنتت .

(٤) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٣٦٧/٥ (٩٧٣٧) . من حديث طويل .

واليهود كانوا يتعاطون النظر في الديانات ، وكذلك النصارى ،
 فهلا قُبِلَ لهم من ذلك ما خفي على مشركي العرب ؟ وهلا اهتموا ^(١)
 بها - أعني اليهود والنصارى - إذ كان فيهم الفصحاء والبلغاء وأرباب
 الألسن ، لولا علمهم بتعذرها عليهم .

على أن ما روي عن الوليد بن المغيرة ، وعتبة بن ربيعة ، وأمّية بن
 خلف فيما تقدم ذكره ، يدل على أن القوم كانوا فطروا لذلك ، ولم
 يكن خفي عليهم ، وكانوا قد صرفوا همهم إلى الاشتغال به ، فبان أن
 الذي أوجب كفهم هو التعذر .

وإنما كان السهو عرض لهم ، وخطأ في التدبير اتفق عليهم ، فقد
 يعرض السهو فيما يكون العلم به ضرورة ، ويتفق الخطأ والذهاب عن
 الرأي في كثير من التدبير .

ولهذا تجد الخطأ يكثر في تدبير العقلاء في الحروب والسياسات ،
 والأمور العامة والخاصة .

قيل له : إن الذي يجري هذا المجرى من الخطأ والانحراف عن
 الصواب ، إن اتفق يتفق للواحد والاثنين ، والمرة بعد المرة .

فأما أن يكون العدد الكثير من العقلاء ، تمر عليهم السنون ،
 وتكرر عليهم الأعوام ، وهم على ضرب من السهو فيما يكون العلم به
 ضرورة . ولا يتنبهون عليه ، ولا يتنبه عليه واحد منهم ، على مر
 الزمان ، وتطاول الأعوام ، فذلك مما يستحيل ، ولا يجوز توهمه .

(١) في المخطوط : اهتم . ولعل الصواب ما أثبت .

فإن قيل: إن القوم كانت لهم صوارف صرفتهم عن الاشتغال بالمعارضة . فقابلت تلك الصوارف تلك الدواعي التي دعتهم ، ولا يتمتع في الدواعي والبواعث أن تقابلها ^(١) الصوارف ، فلا يحصل الفعل الذي دعت الدواعي إليه ، وإن كان ممكنا غير متعذر ^(٢) ؟!

قيل له: لا سبب إلى ادعاء صوارف بجهولة ، ولا صوارف غير معلومة . لأن ذلك يؤدي إلى أن لا يمكن الفصل بين ما يتعذر فعله علينا ، وما لا يتعذر .

فإذا ثبت ذلك ، فالصوارف المعلومة لا تخلو من وجود نذكرها:

إما أن تكون طلبتهم الراحة ، وفرارهم من التعب الذي يلحقهم بالأتان بالمعارضة ، أو إثارهم الإبقاء عليه صلى الله عليه وآله حشمة له ، وكرهه لمكاشفته ، واستشعارهم خوفه وخشيته ، واستهانتهم به ، واشتغالهم بالحروب ، أو ظنهم أن غير المعارضة أجدى عليهم ، وأدنى إلى مرادهم .

ولا يصح أن يقال: إن القوم مالوا إلى طلب الراحة ، من الاشتغال بالمعارضة ، لأنهم قد باشروا بمعاداته صلى الله عليه وآله أمورا هي أكثر تعباً ، وأشد نصيباً ، وأعظم خطراً من المعارضة .

فإنهم بدلوا الأموال والمنهج ، وحاربوا حتى قتلوا وقتلوا ، وفرقوا كلمة العشيرة ، وقطعوا الأرحام القرية ، وواصلوا أولى الأسباب

(١) في المخطوط: يقابلها . ولعل الصواب ما أنت .

(٢) في المخطوط: معتذر . والصواب ما أنت .

البعيدة ، ولا يخفى على أحد من العقلاء أن المعارضة لو أمكنتهم كانت
 " تكون أقوى مشقة ، وأقرب متاولا ، وأيسر مطلبا ، وأذهب مع
 الراحة ، وأدنى إلى السلامة .

ولا يصح أن يقال: إنهم آثروا الإبقاء على رسول الله صلى الله
 عليه وآله واحتشموه وكرهوا مكاشفته ، لأن القوم لم يدعُوا من قبح
 معاملته عليه السلام بابا إلا قرعوه ، بل ولجّوه . حتى حملوا أختانه على
 طلاق بناته صلى الله عليه وآله ، فقالوا: نشغله من حتى لا يتفرغ إلى
 ما هو فيه ، فأجابه إلى ذلك عتبة وعتبة ابنا أبي لهب ، وردهم أبو
 العاص بن الربيع " .

وقالوا لأبي طالب: ندفع إليك فتى قريش وأصبحهم وأفصحهم
 عمارة بن الوليد بن المغيرة لتتبناه ، وتدفع إلينا محمدا فنقتله . فقال أبو
 طالب: بش الرأي رأيتم لي ، آخذ ولدكم للتربية ، وأسلم ولدي للقتل
 "!! وكتبوا الصحيفة على بني هاشم وبني المطلب على ألا يؤوؤهم ،
 ولا ينكحوهم ، ولا ينكحوا إليهم ، وأجلوا كثيرا من أصحابه صلى
 الله عليه وآله إلى المهاجرة إلى الحبشة وإلى المدينة ، واجتمعوا في دار
 الندوة يدبرون عليه ، كما حكى الله تعالى ذلك عنهم بقوله تعالى: ﴿

(١) في المخطوط: كادت . ولعل الصواب ما أنبت .

(٢) سيرة ابن هشام ٢ / ٣٠٦ - ٣٠٧ .

(٣) تاريخ الطبري ٢ / ٣٢٧ .

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ
وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ [الأنفال] .

وهذا يسم من كثير مما عاملوه به صلى الله عليه وآله ، بل طُلَّ من
وابل ، بل وشل من بحر . فكيف يظن بهم أنهم آثروا الإبقاء عليه ؟
ولا يصح أن يقال: إن القوم تركوا المعارضة خوفا له ^(١) ولأصحابه
، وخشية لهم ، لأن جميع ما قدمنا يدل على أن القوم لم يخافوه ، ولم
يخذروا جانبه .

ولا يصح أن يقال: إنهم أعرضوا عن حديث المعارضة استهانة به
صلى الله عليه وآله ، وقلة اكتراث بأحواله ، لأن جميع ما قدمناه يبين
أن القوم كانوا مهتمين بأمره ، بل كانوا قد جعلوا الاشتغال [به] أوكد
مهماتهم ، ثم الحروب التي جرت بينهم وبينه صلى الله عليه وآله بعد
مهاجرته إلى المدينة ، توضَّح جميع ما قلناه من أنهم لم يَعتَشموه ، ولم
يخافوه خوفا يصرفهم عن إنجاشه ، ولم يستهينوا به استهانة دعتهم إلى
ترك الفكر فيه ، والانشغال بأحواله .

ولا يصح أن يقال: إن اشتغالهم بالحروب صرفهم عن المعارضة ،
وأقطعهم دونهما ، وصدَّهم عنها ، لأنه كان بين مبعثه صلى الله عليه
وآله وأول وقعة عظيمة وقعت بينه وبينهم وهي وقعة بدر نحو ^(٢) من
خمسة عشر سنة . فأين كانوا طول هذه المدة ؟!

(١) في المخطوط: عليه . والصواب ما أثبت .

(٢) في المخطوط: نحو . والصواب ما أثبت .

ثم كان بين وقعة بدر ووقعة أحد نحو سنة ، ثم من بعد ذلك أيضا لم تكن الوقائع بحيث لا تنفس ، ولا ترجىء ^(١) من الأعنة ، وكثير من تلك الوقائع هم الذين كانوا يتدأونها .

فهل عدلوا عنها إلى المعارضة لو كانت ممكنة لهم ؟! على أن الحروب لا تمنع من المعارضات ، وهذا واضح .

ولا يصح أن يقال: إنه خفي عليهم أن المعارضة أجدى عليهم ، وأدى إلى ما طلبوه من توهين أمره ، لما بيناه من قبل أن ذلك مما لا يجوز أن يخفى على المراهقين ، فضلا عن العقلاء ، وأن العلم بذلك من علوم الضرورة .

فإن قيل: ما أنكرتم أن تكون الدواعي دعتهم إلى تكذيبه وإبطال دعواه ، وتوهين أمره دون معارضة إذ كان ذلك غرضهم ومرادهم ؟ فمن أين لكم أن الدواعي دعتهم إلى المعارضة ؟!

قيل: قد علمنا أن الداعي إلى الشرع داعٍ إلى أبلغ ما به يتوصل إليه سبحانه ، إذ ^(٢) كان ذلك من أيسر الأمور وأسهلها في التوصل إليه . ألا ترى أن من دعاه عطشه إلى شرب الماء فإنه يدعوه إلى استدعائه إن كان ذلك أخف وأيسر ، أو استعباه إن كان ذلك أدنى وأسهل ، أو اشتراه إن كان ذلك أهون وأقرب .

(١) كذا في المخطوط .

(٢) في المخطوط: إذا . ولعل الصواب ما أثبت .

فإذا ثبت ذلك ، ثبت أن الداعي لهم إلى إبطال أمره وتكذيب دعواه ، وإفساد حاله صلى الله عليه وآله ، كان داعيا لهم إلى المعارضة ، لعلمهم بأنهم لو أتوا بما كانت أبلغ الأشياء في التوصل إلى مرادهم ، مع أنها أسهل الأمور في ذلك وأيسرها .

ويمكن أن يُورد هاهنا أسئلة ضعيفة تركنا ذكرها ، لوجهين: أحدهما: ما كان من كراهتنا لتطويل الكتاب .

والثاني: أن ما قدمناه من الابتداعات والأجوبة يأتي عليها ، إذا تأملها المتأمل ، ونظر فيها الناظر .

على أن القراء لا بد من أن يكون قد وقع على وجه يكون بوقوعه عليه ناقضا للعادة ، أو يكون وقع خلاف ذلك الوجه ، بأن يكون وقع كما يقع سائر الكلام المعتاد ، فلا بد من أن تكون العرب عارفة بذلك ، لأن أحوال الكلام لم تكن تخفى عليهم ، فإن كانوا عرفوه ناقضا للعادة ، فقد بان أنهم تركوا معارضته لتعذرها عليهم ، وإن عرفوه جاريا مجرى الكلام المعتاد ، فلا وجه من أجله يكونون تاركين لمعارضته ، وإذا لم يعارضوه فقد صح أنهم تركوها للتعذر ، لوقوع القراء على وجه يكون ناقضا للعادة .

ولا يصح أن يقال: إنهم شكوا في حاله " ، لأن علمهم بمثل هذا علم ضرورة ، على أنهم لو شكوا كان أقل ما يكون منهم أن يجربوا

أنفسهم ، ليحصل لهم العلم به بذلك ، فيعود الأمر إلى ما قلناه ، من أنه لا بد من أن يكونوا عرفوا ذلك وتحققوه .

ولا يصح أن يقال: [إنهم] تركوا معارضته لأنهم وجدوه كسائر الكلام المعتاد الذي كان يجري بينهم دائما في محاوراتهم ومخاطباتهم ، لأن العلم بأنه بخلاف ذلك علم ضروري . ولأن ذلك لو كان كذلك لجرى مجرى أن يدعي النبوة ، ويتحداهم بأنه يأكل ويشرب ويقوم ويقعد ، ويتصرف كما يتصرف غيره ، ويجعل ذلك معجزته صلى الله عليه وآله ، وهذا لا يجوز أن يقع من العاقل الذي يكون غرضه أن يعظم في الصدق ، ويُعتَقَد فيه أنه ممن يجب أن يطاع ، وأن يأتمر الخلق لأوامره ، ويتزجروا عند زواجره ، لأن ذلك مما يجري مجرى التسوية بالنفس إليه " ، [وهذا] يؤدي إلى أن يسخر منه ويستهزأ به ، ويسقط بإيراده من العيون ، وتنحط منزلته ، لأن ذلك مما ينفر عنه أصحابه ، ويمكن أعداءه من التسلق " عليه ، ولأن ذلك لو كان كذلك لاحتج به الأعداء ، وقرعوه وقرعوا أصحابه . وهذا يوضح بطلان قول مَنْ يتعلق بذلك .

(١) كذا في المخطوط .

(٢) التسلق: الصمود . يقال: تسلق الحداد: تسوره .

الكلام في بيان أن القراءان يجب أن يكون معجزا إذا تعذرت معارضته

فإن قيل: فلمَ قلتم: إن تعذر المعارضة إذا ثبت يكون القراءان معجزا؟!

قيل له: لأنه قد ثبت أن المعجز هو ما يظهر على بعض الناس ، مما يتعذر الاتيان بمثله على جميع البشر، لحسنه أو لصفة تخصه ، فإذا ثبت ذلك ، ثبت أن الاتيان بمثل القراءان قد تعذر على جميع البشر ، وثبت أنه معجز ، وأنه جارٍ بحرى إحياء الموتى ، وفلق البحر ، وقلب العصا حية ، والمشي على الماء .

فإن قيل: ولم ادعيتم تعذره على جميع البشر ، وإنما يئتم حال العرب ، وتعذره عليهم؟!

قيل له: قد علمنا أن البشر أجمع ثلاث طبقات: أحدها: عوام الفرس والهند والروم والزنج ، ومن جرى مجراهم من سائر الأمم ، الذين لا علم لهم بشيء من لغات العرب بته ، ولا سبيل لهم إلى نظم سطر واحد منها على وجه من الوجوه .

والثانية: هم الذين تعلموا اللغة وتكلفوا معرفتها ، وهم طبقات: فمنهم: من لم يتعلق منها إلا باليسير الذي لا تأثير له .

ومنهم: من تجاوز ذلك إلا أنه لم يبلغ مبلغا يعد به في الفصحاء ،
ولا يتأتى له التصرف في شيء من أقسام الكلام ، على وجه يعد
فصاحة وبلاغة .

ومنهم: من تجاوز ذلك إلى أن كاد ينطاح فصحاء العرب ،
وياربهم في أقسام المنظوم ، وأصناف المنثور .

والثالثة: هم فصحاء العرب الذين حصلت لهم مزايا الفصاحة طبعاً
لا تكلفاً ، وسجية لا تعلملاً ، ولا إشكال على أحد في أن الاتيان بمثل
القرءان متعذر على الطبقة الأولى ، الذين لا معرفة لهم بشيء من لغات
العرب ، والطبقة الذين يلونهم ، وهم الذين أخذوا منها يسيراً لا يؤبه
لمثله . والطبقة الذين يجاوزونهم ، إلا أنهم لم يلحقوا بشأو الفصحاء ،
ولم يحلوا بواديبهم ، وهؤلاء لا يتعذر عليهم صياغة بيت من الشعر ،
لكن لا يعد في الفصاحة ، وإنشاء رسالة أو خطبة ، لكن لا يحكم لهم
بالبلاغة .

وإنما يقع الاشتباه في حالة الطبقتين الآخرين ، وهم الذين بلغوا
من هؤلاء مرتبة الفصحاء ، ولحقوا بدرجة البلغاء ، وتصرفوا في أقسام
الكلام ، ثم فصحاء العرب الذين جاوزوا الفصاحة والبلاغة طبيعة
وجيلة .

وقد بينا تعذر الاتيان به على هاتين الطبقتين بما تقدم ، بما لا فائدة
في إعادته ، فإذا ثبت ذلك وثبت أن جميع البشر لا يعدون الأقسام التي

ذكرناها ، ثبت تعذُّره على جميع البشر ، وإذا ثبت تعذُّره على جميع البشر ثبت أنه معجز على ما بيناه .

على أنه إذا ثبت أنه قد تعذر على فصحاء العرب ، وهم الطبقة العالية في هذا الباب ، فتعذُّره على الطبقة التي هي دونهم ، وهم سائر الفصحاء مما لا شبهة فيه .

على أنه يمكننا أن نعرف تعذُّره على هؤلاء بمثل ما أمكن تعذُّره على العرب ، لأن الأزمنة كلها لم تغل ممن كان يعادي النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويناوئى الاسلام ، إما إعتقاداً ، أو تقرباً إلى من كان يعتقد ذلك ، أو تكسباً به ، حتى استفرغوا في ذلك جهدهم ، واستنفدوا^(١) وسعهم على ما تقدم طرف من ذكرهم .

فإذا لم يأتوا به ، صح تعذُّره عليهم ، ولا يجب أن يظن ظان أن المتأخرين أشد تمكناً في هذا الباب من المتقدمين ، من حيث فرعوا التحسين والتطبيق ، وعطف إعجاز الكلام على صدره ، والاستطراد ، والتشبيه ، والاستعارة ، وما جرى مجرى هذا مما يعد فصاحة . وذلك أن المتقدمين كانوا أعرف بجمع هذه المحاسن من المتأخرين ، وكانوا أشد تمكناً من إيرادها موارد ، ووضعها في مواضعها ، وإن لم يكونوا وضعوا هذه الأسماء ، وكانوا يحرون فيها على طبائعهم من غير تكلف لها ولا تَعَمُّل ، وذلك مما يزيد الكلام حسناً ويكسبه رونقاً ، والمعرفة بهذه الأمور على حدها يعرفه المتأخرون ، ووضع الأسماء لها مما لا يصير

(١) في المخطوط: واستنفدوا . ولعل الصواب ما أثبت .

الانسان به أفصح ولا أشعر ولا أخطب . وإنما يصلح به الانسان الفاسد ، ويضم المتشعب ، ويسدد المختل .

لهذا تجد من يعرف كل ما ذكرنا ونعتنا ، ويتصوره ويتحققه ، ويفصل بين غثه وسمينه ، ومستحسنه ومستردله .

ثم إذا أراد أن يعمل قصيدة ، أو يتدئ خطبة ، أو ينشئ رسالة ، عجز عن إنشائها .

والمتقدم الذي لم يحصل له العلم بهذه الأسماء والأوصاف .

وهذا يجري مجرى العلم بالعروض وألقابه .

ألا ترى أن المتقدم في ذلك لا يوجه التقدم في الشعر .

ألا ترى أن الشعراء المتقدمين من جاهلي أو مخضرمي أو إسلامي ، كان قبل الخليل لم يعرف شيئا من ذلك ، ثم من جاء بعدهم لم يلحق شأوهم من حيث عرف ذلك ، بل أن ينشأ بعدهم من ضرب في جنس الشعر بسهم ، فليطبع أوتي ، لا لمعرفة هذه الأمور ، فبان بجميع ما بينا أن المتأخر الذي تكلف العلم باللغة ، وتعلم المحاسن والمساوي بالتعمُّل ، لا يجب أن يوفى في هذا الباب المقصود على المتقدمين من فصحاء العرب ، الذين جروا على طريقة الفصاحة في منظوم كلامهم ومنثوره طبعاً وسجية ، ولهذا تجد فيمن يُعدُّ في الشعر مقلداً من إذا ترسَّل اختل اختلالاً ظاهراً ، وفي المتقدم في الرسائل من إذا حاول النظم بُعدُ بُعداً متفاوتاً ، وهذا يكشف أن التكلف والتعمُّل لا يُبلغان المرء طبقة الفصحاء ، ولا يُلحقانه شأو البلغاء ، ولهذا تجد المكثِّر في اللغة ، والعلم

بأقسام الفصاحة ، والمعرفة بمحاسن النظم والنثر ومساوئهما ، إذا لم يكن له طبع في الشعر والترسل ، يسقط إذا حاول الشعر أو الترسل - عن درجة المطبوع فيهما ، وإن كان مقلّا في جميع ذلك ، وبضاعته منها مزجاة - سقوطاً ظاهراً ، أو يهبط عن رتبته هبوطاً بيناً ، كالخليل بن أحمد، ومن نخا نحوه من العلماء ، الذين لم يكونوا أولي طبع .

فإن قيل: لو كان القراء معجزاً لأنه لم يُعارض ولم يوت بمثله ، لوجب أن يكون المحسّطي وأقليدس والعروض (١) كل واحد منه معجزاً يدل على نبوة من أتى به . وإذا قد ثبت بطلان كون هذه الكتب معجزاً ، فيجب أن يطل كون القراء معجزاً على ما ادعيتموه !!!

قيل له: هذا كلام من لم يعرف وجه استدلالنا فحرّفه (٢) ، ولم يذكره على جهته ، وألزم عليه ما لا يلزم ، ونحن نبين ذلك بعون الله عز وجل وجل ، ونكشف عن سقوط هذا السؤال .

اعلم أنا لم نقل: إن القراء معجز لأنهم لم يوت بمثله قط ، بل لأنه تحدى به ، ولم يوت بمثله ، مع سائر الشروط التي ذكرناها ، وكتاب المحسّطي وأقليدس ، وما جرى مجراها من الكتب ، لا يصح أن يقع التحدي به ، لأنه إن تعذر على غير من أتى به يكون تعذره لأحد وجهين:

(١) المحسّطي كتاب بطليموس في علم النجوم ، وأقليدس كتاب العروض: أوزان الشعر التي وضعها الخليل .
(٢) في المحطوط: حرمه . ولعل الصواب ما أثبت .

إما أن يكون قد استغذ الطرق ، فلم يبق هناك طريق آخر لذلك الشيء ، وما جرى هذا المجرى فالإتيان ^(١) به مستحيل ، لا تصح القدرة عليه ، وما لا تصح القدرة عليه لا يصح التحدي به . ألا ترى أن إنسانا لو أتى بشعر مركب من هذه الحروف التي هي ثمان وعشرون ، ثم تحدى به ، فقال: اتوا بمثله من غير هذه الحروف ، لم يصح التحدي به ، لأنه ليس في المقدور . وكذلك لو قال: إني أضرب واحدا في واحد فيكون واحدا ، أو اثنين في واحد فيكون اثنين ، واثنين في اثنين فيكون أربعة ، واثنين في ثلاثة فيكون ستة ، واثنين في أربعة فيكون ثمانية ، واثنين في خمسة فيكون عشرة ، وثلاثة في ثلاثة فيكون تسعة ، وثلاثة في أربعة فيكون اثني ^(٢) عشر ، وثلاثة في خمسة فيكون خمسة عشر ، وأربعة في أربعة فيكون ستة عشر ، وأربعة في خمسة فيكون عشرين ، وخمسة في خمسة فيكون خمسة وعشرين ، ثم تحدى ، وقال: اضربوا بعض هذا العدد ببعض ، واتوا بكامل ^(٣) غير ما أتيت به ، كان ذلك لا يصح ، لأن ما تحدى به يكون مستحيلا ، أو جرى مجرى أن يفعل حركة في جسم فيقول: افعلوا في غير جسم أو جوهر .

(١) في المخطوط: الإتيان . ولعل الصواب ما أثبت .

(٢) في المخطوط: اثنا عشر . والصواب ما أثبت .

(٣) بكامل ، يعني: بمجموع أو جملة .

أو يكون التعذر الآن غيره ، لم نعمل فيه العكس ، ولم نمتحن ولم نتعلم ، وهذا أيضا لا يصح التحدي به ، لأن ذلك يجري مجرى تعذر الصياغة على النحار ، والنجارة على الخياط .

ألا ترى أن كل من أفكر^(١) فيه فكره ، وتعمل له تعلمه ، يأتي منه مثل ما يأتي به المتحدي ، حتى لا يكون بينهما من التفاوت إلا مقدار ما يكون بين الصانعين من الذكاء والبلادة .

فإذا ثبت ما بيناه ، وثبت أن المجسطي وأقليدس والعروض ، وما أشبههما من الكتب ، يمكن التوصل إليه بالفكر والعمل والتعلم والامتحان ، ثبت أنه مما لا يصح التحدي به ، وإذا ثبت ذلك ثبت أنه لا يصح أن يلزم كونه معجزا ، على قولنا إن القرعان معجز . لأن الاتيان بأسلوب من الكلام في أعلى طبقات الفصاحة ، أو في الطبقة العالية بالفكر والعمل ، مما لا يصح على وجه من الوجوه . بل لا بد فيه من طبع لا طريق إليه للتكلف والعمل .

ألا ترى - ولا نشك - أن الخليل بن أحمد كان أكثر في اللغة والعلم بأوزان الشعر وعيوبه ومحاسنه من امرئ القيس ، لأن امرئ القيس كان الظاهر من أمره أنه كان يعرف لغة قومه ، والقوم الذين قاربوهم ، والخليل تعلم اللغة حتى أحاط بها ، ومع ذلك فلا يشك أن الخليل كان لا يمكنه أن يقول من الشعر ما بمائل شعر امرئ القيس أو يقاربه .

(١) أفكر ، يعني: أعمل فكره .

ولهذا نرى ما بيننا المكثّر من علم اللغة ومحاسن الشعر ومساوئه ،
 إذا لم يكن مطبوعاً في الشعر لا يمكنه أن يأتي من الشعر مثلما يأتي به
 المطبوع ، الذي لا يبلغ علمه باللغة ومحاسن الشعر ومساوئه معشاره ،
 بل ربما لم يمكنه أن ينظم بيتاً واحداً إلا بجهد عظيم ، وتعب شديد . ثم
 إذا أتى به ، أتى به في غاية الوحشة ونهاية السقوط . وهكذا حال
 إنشاء الرسائل والخطب والتوسع في المحاورات .

فإن قيل: إن المجسطي وإن كان يمكن أن يتوصل إليه بالامتحان
 والفكر والتعلم ، فقد كان في مبادئه ما لا يمكن ذلك فيه ، ولا طريق
 للتوصل إليه بالامتحان والتعلم .

قيل له: هذا إن صح ، فقد قالوا هم: إن ابتداءه كان من هرمس ،
 وإن هرمس هو إدريس النبي صلى الله عليه () ، وإن كان فيه ما سبيله
 هذا السبيل ، فيجب أن يكون معجزاً يدل على نبوة من أتى به .

ولهذا قال كثير من العلماء في علم النجوم وعلم الطب: إنهما كانا
 في الأصل مما أتت به الأنبياء صلوات الله عليهم ، وأنه لا سبيل للخلق
 إلى الاتيان بمثله . فهذا مما يجب أن ينظر فيه . إلا أن سؤال القوم قد
 سقط ، لأنه إذا صح وثبت ما ادعوه ، وجب أن يكون ذلك القدر منه
 معجزاً .

(١) القائلون بذلك هم الصابئة ، ومعنى هرمس عندهم: عطارد. مروح الذهب للمسعودي

على أن المحسّطى وأقليدس وما أشبههما من الكتب لو صحّ التحدي به ، لم يلزمنا أن نقول: إنه معجز . على قولنا: إن القرعان معجز .

لأننا لم نعلم أن القرعان معجز بأن صحّ التحدي به ، وإنما عملنا ذلك لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أتى به قوما هم في الفصاحة والمعرفة بأساليب الكلام مثله أو دونه يسير ، فتحداهم به وقرعهم بالمعجز عن الاتيان بمثله ، وادّعا عليهم أنهم له في حكم العبيد في نفوذ أحكامه فيهم ، وأنهم يلزمهم مفارقة ما كانوا عليه من الدين ، وتكفيرهم لم يفارقه " ، والإنقياد له ولأوامره ، والقوم له كارهون ، وفي تكذيبه جاهدون ، وظهرت قوة دواعيهم إلى كل ما دعا إلى إفساد أمره ، وتوهين حاله ، وإظهار كذبه ، ولم يأتوا بمثله .

فدلنا ذلك على أنه كان متعذرا عليهم ، ولم يثبت في المحسّطى وما جرى مجراه شيء من ذلك ، لأنه لم يثبت أنه أتى قوما مثله في تلك الصناعة وتحداهم بالمعجز عن الاتيان بمثله ، وجعله لنفسه حجة عليهم ، في أنهم يلزمهم المجري على أحكامه ، والتصرف تحت أوامره ونواهيه ، مع كراهة القوم له ولأحواله ، ووفور بواعثهم إلى إفساد أمره ، والإبانة عن كذبه ، وأنهم لم يأتوا بمثله ، مع تطاول الزمان على تلك الأحوال .

فإذا لم يثبت شيء من ذلك ، فكيف يلزمنا أن نقول: إنه كان معجزاً ؟ وما له (١) قلنا: إن القرعان معجز لم يحصل له ؟
 فإن قيل: قد علمنا أن تفرد الواحد بضرب من الفضل حتى يُذكر به ، ويُروّس بتحصيله ، مما يحرك طبع غيره على الاتيان بمثله ، فيجري ذلك مجرى التحدي .

قيل له: هذا لا يقوله من عرف أحوال الناس وعاداتهم ، لأننا نعلم من أحوال كثير من العلماء الذين يتقدمون في كثير من العلم ، أنهم لم يكن لهم دواعي إلى تصنيف الكتب في العلوم التي برعوا فيها ، بل ربما لم يُحدّد الواحد منهم ، إذا علم أن غيره قد كفاه المونة في ذلك ، وأتى بما كان مراده ، كان ذلك صارفاً له عن الاشتغال به ، وإن جاز أيضاً أن يتفق ذلك ما سأل عنه السائل ، لكن ذلك لا يمكن الإبانة بعلم أن للقوم أحوالاً كأحوال من عاды رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، من كفار قريش وسائر العرب ، على ما بيناه . ومنى ما مرت الأحوال على ذلك ، فلا بد من الاتيان بمثل ما أتى به من كان معهم في مثل حال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، إلا أن يتعذر ذلك عليهم .

فأما مقدار ما سأل عنه السائل ، فلا يجب من سألهم أن يقع الاتيان بمثل ما أتى به بعضهم ، وإن كان ممكناً لهم .

فإن قيل: فإذا لم يعلموا تلك الأحوال فشكوا في كونه معجزاً ؟!

قيل له: الوجه الأول يمنعنا من الشك ، ويوجب القطع على أنه ليس بمعجز ، وأنه يجري مجرى سائر الصناعات والمهن ، لأننا قد بينا أن التحدي مما لا يصح ، كما لا يصح ذلك في الصناعات والمهن .

فإن قيل: فما تنكرون على من قال: إن القرآن هو من هذه الحروف وجنسها مقدور للبشر ، ولا يصح أن يكون المعجز جنسه في مقدور العباد ، لأنه يؤدي إلى التناقض ، لأن من شأن المعجزات أن يتعذر على العباد ، وما كان جنسه مقدورا لهم ، فهو متأني منهم ، والتأني ينافي التعذر ، وإذا كان ذلك كذلك ، لم يصح أن يكون القرآن معجزا ؟!

قيل له: هذا الذي ادعيت من التناقض على الوجه الذي ظننت ظاهر السقوط ، لأن جنس الشيء وإن كان مقدورا للعباد ، فإنه لا يجب أن يصح فعل ذلك الشيء منهم على كل وجه ، بل لا يمتنع أن يتعذر فعله على بعض الوجوه ، وإن صح فعله على وجه آخر ، وهذا لا يؤدي إلى التناقض ، لأنه من الوجه الذي يتأني لا يتعذر ، ومن الوجه الذي يتعذر لا يتأني ، وإنما يتعذر ما يتعذر بما يكون جنسه مقدورا للعباد ، لأن القادر ربما احتاج لإيقاعه على وجه مخصوص إلى كونه عالما ، أو في حكم العالم ، أو يحتاج إلى الآلة ، وما يجري مجرى الآلة ، فإذا قصد الآلة فيما يحتاج لفعله على وجه مخصوص إلى الآلة ، أو القلم فيما يحتاج لفعله على وجه مخصوص إلى كونه عالما ، تعذر فعله على ذلك الوجه ، وإن كان جنسه مقدورا .

ألا ترى أن الفعل المحكم ، وإن كان جنسه مقدورا لمن ليس بعالم ، فإنه يتعذر عليه ولا يتأتى مثله .

ألا ترى أن هذه الحروف أجمع مقدورة للناس أجمع ، ومع هذا فلا يصح من أحد إيقاعها على وجه يكون متكلما بلغة العرب إذا لم يكن عالما بلغتهم ، وكذلك لا يصح إيقاعها من الأعرابي على وجه يكون متكلما بلغة الفرس ، إذا لم يكن عالما بلغتهم ، وكذلك حكم الصناعات أجمع كالكتابة والصناعة وغيرهما ، لأن جنس ذلك أجمع مقدور للجميع ، ثم إيقاعها على وجه الاتقان والاحكام يتعذر على من لم يكن عالما بتلك الصناعة ، وكذلك الآلة أيضا .

ألا ترى أن الخياط يتعذر عليه الخياطة ، مع كونه قادرا عليها وعالما بها ، إذا فقد الإبرة ، وكذلك الصانع إذا فقد المطرقة ، وسائر الآلات التي يحتاج إليها ، ولهذا يتعذر علينا الطيران ، وإن كنا نقدر على جنسه ، لأن جنسه إنما هو الأكوان ، وإنما يصح منا لفقدنا الآلة التي هي الريش والجناح ، ونظائره أكثر من أن تعد ونحصى .

فإذا صح ذلك وثبت ، وصح سقوط قول من قال: إنه يتناقض كون الشيء مقدورا لنا ، متعذرا فعله علينا ، على وجه مخصوص ، فإذا ثبت ذلك جاز أن يكون القراء معجزا يتعذر فعل مثله على جميع البشر ، وإن كان جنسه مقدورا لنا .

يكشف ذلك أن فلق البحر جنسه مقدور لنا ، وإن كان يتعذر فعله على ذلك الوجه المخصوص على جميع البشر .

ألا ترى أنه تفريق أجزاء الماء على وجه مخصوص ، وإحداث
أكوان مخصوصة ، وذلك جنسه مقدور للبشر .

ألا ترى الله عز وجل لو بعث نبيا وجعل معجزته أنه ينقل بعض
الجبال الراسيات عن موضعه لصح ذلك ، وإن كان جنس نقله مقدورا
لنا ، لأن نقله إنما هو أكوان تحدث على وجوه مخصوصة ، وإنما المراعى
في هذا الباب أنه يحصل أمر نعلم أنه يتعذر فعل مثله على جميع البشر ،
سواء كان التعذر للجنس أو للصفة .

ألا ترى أنه لا فرق بين فلق البحر ، وبين قلب العصا حية في هذا
الباب ، وإن كان تعذر فلق البحر للصفة ، وتعذر قلب العصا حية
للجنس .

فإن قيل: فلم لا يجوز أن يكون ما يدخل تحت مقدور العباد
معجزا ، لأن المشاهد له يُجَوِّزُ أن يكون ذلك من فعل بعض مرده
الشياطين ، أو من فعل بعض من بعصي من الملائكة ، لأن العلم بأن
الملائكة لا تعصي إنما هو بطريق السمع ، ونحن بعد في إثبات السمع ؟
قيل له: لا يجب للنظر أن يشك فيه ، بل يجب القطع على أن الله
عز وجل يمنع منه . وذلك أنه لو حصل لكان شبهة لا يمكن حلها .
وما جرى من الشبه هذا المجرى يجب على الله عز وجل المنع منها .

فإن قيل: ولم قلتم: إن ذلك يكون شبهة لا يمكن حلها ، بل ما
أنكرتم أن يكون ذلك حجة لمن قال: إنه لا يجوز أن يكون المعجز مما
يكون جنسه في مقدور العباد ؟!

قيل له: لأن هذا الجنس من الشبهة يصح إيراده فيما ليس يكون
جنسه في مقدور العباد ، بأن يقال: يجوز أن يكون بعض الناس ظفر
بشجرة إذا قطع غصنها ، وألقى على وجه مخصوص يصير حياة ،
ويكون ذلك عادة ، ويكون ظفر بشيء إذا مسح به الميت صار حيا من
طريق العادة ، ويجري ذلك مجرى الخواص التي تحكى في أشياء .

ألا ترى أن من لم يشاهد حجر المغناطيس ولم يسمع به ، إذا
شاهده يحرك الحديد بغير مماسه يُحَوِّزُ كون ذلك معجزا ، وكذلك ما
يحكى من الحجر المسمى: باغض الخل ، فقد حكى أنه إذا أُرسِلَ على
إناء فيه خل انحرف ، وسقط خارج الإناء ، ولم يسقط في الخل ،
وكذلك نظائر كثيرة تحكى وتذكر في الخواص ، وكل ذلك جائز من
طريق العقل ، ولا جواب عن ذلك ، إن تعلّق به الرهمي (١) ، وحاول
التوصل به إلى إبطال النبوات رأسا ، إلا ما ذكرناه من أن ذلك لو كان
لكان شبهة لا مخلص منها ، فيجب على الله عز وجل المنع منها .

(١) الرهمي سمة إلى هدي يدعى (رهم) والبهمة طوائف ثلاث: فطائفة تقول: يقدم
العالم، وتعرف بمدرك له قدم، إلا أنها تعتقد أن الإنسان غير مكلف سوى المعرفة.
وطائفة تقول: يحدث العالم، وتعرف بوجود صانع حكيم، ولكنها تنكر الرسل والكتب
السماوية وترى أن لا واسطة بين الله تعالى وحلقه غير العقل.
وطائفة ثالثة تقول: يحدث العالم ووجود الخالق، ولكنها تؤمن بأن مدرات العالم: الأفلاك
السبعة (الروح الانسا عشر) ولا تزال هذه الحقبة الباطلة قائمة في أفئدة بعض الكهنة من
أسانها.

ذكر بعض كتاب الملل والنحل أن من عقائدهم أنهم لا يأكلون البقر وأنهم يعسّلون بيوها.
فلعلهم فرقة من الهدوس عباد القمر.

فإن قيل: ما تنكرون على البرهمي إن ادعا أن ذلك ليس بشبهة ،
بل هو حجة ، ويوجب إبطال النبوات؟

قيل له: جوابه أنا نبين أن البعثة يجوز أن تصير واجبة ، بأن يعلم
الله عز وجل أنها لطف للمكلفين ، فإذا ثبت ذلك فلو كانت واجبة لم
يكن لها طريق إلا المعجز ، فكل ما أدى إلى إبطال المعجزات أجمع ،
فيجب على الله المنع منه .

فإن قيل: بين هذه الأشياء التي ذكرتم ، وبين ما يكون جنسه
مقدورا للعباد ، أن هذه الأشياء لو وقعت عند ادعاء الكاذب النبوة ،
لكان الله هو الفاعل لها على وجه يقبح ، والله عز وجل لا يفعل القبيح
، وما يكون جنسه تحت مقدور العباد لو وقع لوقع من مردة الشياطين
، ولا يمتنع وقوع القبائح منهم .

قيل له: لا فرق في هذا الباب بين فعل القبيح والانصراف عن
الفعل الواجب ، لأن الله تعالى كما لا يجوز أن يفعل القبيح ، لا يجوز
أن يدع فعل الواجب ، لأن كل واحد منهما لا يكون إلا من محتاج أو
جاهل ، أو من يكون بالصفتين جميعا ، ويتعالى الله عن ذلك !! وإذا
كان هذا هكذا ، فلا فضل في أن يفعل تلك الأشياء عند دعوى
الكاذب مع قبحها ، وأن " هذا انصراف عن فعل الواجب ، وذلك
فعل القبيح ، ولا فضل بينهما ، وأن كل واحد منهما لا يجوز على الله
عز وجل .

على أن هذا أيضا يرجع إلى أنه عز وجل لو أجرى الأمر على ذلك ، يكون قد انصرف عن الفعل الواجب ، لأنه عز وجل إن كان أجرى العادة بتلك الأمور أن يفعلها ، فإنه لا يجوز أن يفعلها عند دعوى الكاذب ، وذلك يجري مجرى القبيح ، وإنما كان يجب على القدم عز وجل ، لو كان الأمر على ما ذكرتم أحد أمرين: إما أن يمنع التمكن منه .

أو يدفع ذلك ويظهره بلطائفه ، لئلا يصير شبهة لا يمكن حلها ، فلو لم يفعل ذلك ، لكان قد عاد الأمر إلى أنه لم يفعل ما وجب عليه تعالى الله عن ذلك !!

فإن قيل: ما أنكرتم على من قال لكم: يجوز أن يكون النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخذ هذا القول من نبي كان أتى به قبل " ذلك النبي ، وأخفى حاله ، وادعا النبوة به من غير أن يكون " صادقا فيما ادعا فيه ؟!

قيل له: هذا سؤال قد أحاب بعض العلماء المتقدمين عنه بجوابين: أحدهما: أنه قال: « لقد علمنا ضرورة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي أتى به دون من سواه ، كما علمنا في شعر كثير من الشعراء ، وكتب كثير من المصنفين . وفي هذا سقوط هذا السؤال .

(١) في المخطوط: وقيل . ولعل الصواب ما أثبت .

(٢) في المخطوط: كان . ولعل الصواب ما أثبت .

والجواب الثاني: أن ذلك لو كان ، لكان شبهة لا يمكن حلها ، وما جرى هذا المجرى فيجب على الله عز وجل المنع منه ، فيعلم أنه لم يكن .

ويمكن أن يجاب عنه بأن يقال له: إن ذلك لو كان كذلك ، لكان ذلك النبي ممن قد بعثه الله ، وكلفه أداء الرسالة . ولو كان ذلك كذلك ، لوجب على الله عز وجل أن يحفظه إلى أن يبلغ ويؤدي الرسالة ، ولو كان بلغ وأدى ، لكان ذلك لا يغنى .

والجواب المعتمد عندي غير هذه الأجوبة ، وهو أن يقال لمن قال ذلك: في القراءان كثير من أقاصيص أحوال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأحوال الصحابة رحمهم الله ، وأحوال أعدائه ، مثل ما ذكر سبحانه في السورة التي يذكر فيها الأحزاب من قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ ﴾ [الأحزاب: ٩] . . . إلى آخر القصص ، وفي هذه السورة ذكر زيد بن حارثة ، وما قال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في شأن زوجته ، وما كان من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من التزويج ، حيث يقول: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب: ٣٧] . . . إلى آخر القصة .

وفي السورة التي يذكر فيها الأنفال قصة بدر من قوله: ﴿وَإِذْ
يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧] . . . إلى آخر
القصة . وفي هذه السورة قصة الأسارى ، والمفارقات " التي حوت .
وفي السورة التي يذكر فيها آل عمران قصة بدر ، وقصة أحد .
وفي السورة التي يذكر فيها التوبة وقصة حنين ، وقصة الغار ، ولو
تبعنا هذا في جميع القرعان لطال الكتاب به .

ومن المحال أن تكون هذه الأقسام بعينها كانت اتفقت لبعض
الأنبياء غير نبينا صلى الله عليه وآله وسلم بمكة والمدينة . ولئن جاز أن
يتفق ذلك ، لوجب أن يكون نقله ظاهرا ، وهذا من أوضح ما يقال في
إسقاط هذا السؤال .

فإن قيل: فهل يجوز أن يكون مثل القرعان مقدورا للجن أو
للملائكة؟! .

قيل له: لا سبيل لنا من طريق النظر إلى المنع من ذلك ، لأننا لا
نعرف أحوال الملائكة عليهم السلام والجن . إلا أننا من طريق السمع
علمنا أنه ليس في مقدور الجن .

فأما الملائكة عليهم السلام فلا يعرف ذلك من حالهم ، ولو لم
نعرف أحوالهم نحن أيضا لم يقدح ذلك في كونه معجزا ، لأننا إذا عرفنا
تعذره على أمر يخفى ، كفى في كونه معجزا . على ما مضى القول
فيه .

فأما ما ذهب إليه قوم من أننا قد سمعنا من أحوال الجن وأشعارهم ، ما يمكننا الاستدلال به على أنهم على الاتيان بمثله عاجزون .

كنحو ما يحكى عن عمرو الجني من قوله:

أشجاك تشتت شعب الجن فأنت له أرق وصب^(١)
... إلى آخر القصيدة .

وما يحكى من قوله:

من معذب جذل جاد القريض له حبر يغير لنا بيتا على دار^(٢)
وما يحكى عن بعضهم:

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر^(٣)
وما روي عن سواد بن قارب من الأبيات التي يحكيها عن بعض
الجن وهي:

عجبت للجن والعالم وركبها العيس بأفتام^(٤)
... إلى آخر الأبيات .

حكايات لم تعرف صحتها ، بل ليس لشيء منها سند ، لا
ضعيف ولا قوي ، إلا ما يحكى عن سواد بن قارب ، وبمثل هذا لا يقع
العلم .

(١) لم أقف عليه .

(٢) لم أقف عليه .

(٣) التلخيص في علوم البلاغة / ٢٨ .

(٤) لم أقف عليه .

والثاني: أن هذه الآيات ، وما جرى مجراها ، لو علمنا على التحقيق أنها من قول الجن ، لم يمكننا أن نعلم بهذا القدر من أحوال جميعهم ، فصار الاشتغال به مما لا يجدي ، والاعتماد على قول الله عز وجل: ﴿ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (٨٨) [الإسراء] ، وعلى إجماع الأمة على ذلك .

دليل آخر على أن القرآن معجز: ومن الدليل على ذلك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مهما شك في شيء من أحواله ، فلا شك في صحة عقله ، وأصالة ذاته ، وشدة حصافته ، ووفور ذاتيته ^(١) . قد علم ذلك المصدق به ، والمكذب له ، لأن الحال في ذلك أظهر من أن يجوز أن يرتاب فيه عاقل .

على أن المصدق به يعلم ذلك ، من حيث يعلم أن الله عز وجل لا يجوز أن يبعث إلى خلقه من لم يكن على تلك الصفة ، والمكذب له يعلم ذلك ، من حيث يظن أنه دبر أحوال نفسه وأحوال أصحابه ، حتى تم له ما تم ، وقد تلا هو صلى الله عليه وآله وسلم على أعدائه وأوليائه ، على ما تقدم بيانه ، ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴿ [البقرة] ، وتلا عليهم: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ

يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿إِنْس: ٣٧﴾ ، وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٨) ﴿إِنْس: ٣٨﴾ ، وتلا عليهم: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (٨٨) ﴿الْإِسْرَاء: ٨٨﴾ .

وقد علمنا أن العاقل إذا ادعا أمرا لا يكون مبناه إلا على الصدق وبجانبه الكذب ، ويشدد حرصه على تصحيحه ، حتى يتحمل له المشاق ، ويركب له الأخطار ، ويعاديه على ذلك قوم البُءاء عقلاء ، يرجعون إلى الحصافة التامة ، والتمييز الشديد ، سيما إذا كان ما يدعيه لا يتم إلا بما يحصل في النفوس من تعظيمه وحشمته ، لصدق لهجته ، ووفور وقاره وهيئته ، فلا يجوز مع سلامة الأحوال أن يورد على العدو الكاشح ، والولي المناصح ، ما لا يأمن أن يظهر فيه كذبه في يومه أو غده ، أو بعد مدة قصيرة أو طويلة ، حتى يفتضح بذلك عند الجميع ، ويختج به عليه أعداؤه ، ويفر عنه أصحابه ، لأن ذلك يجري مجرى التعرض بتشويه الإنسان لنفسه بين أعدائه وأوليائه ، مع التماسه منهم تعظيمه وتوقيره وإكباره وإجلاله ، مع سلامة الأحوال . وما جرى هذا المجرى ، نعلم قطعاً أنه لا يقع على وجه من الوجوه .

فإذا ثبتت هذه الجملة فتلاوته صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآيات عليهم لا تخلو:

من أن تكون من تلقاء نفسه .

أو بأمر علام الغيوب .

ولا يجوز أن يظن عاقل أنه كان يتلوها عليهم من تلقاء نفسه ،
لأنه تلاها على قوم هم مثله، أو مقاربون له في المعرفة بأحوال الكلام
وأساليه ، وبأحوال الفصاحة ، ولم يكن يجوز أن يأمن أن يأتي عدة
منهم كل واحد منهم بمثله ، إما في الوقت ، وإما في مدة قصيرة أو
طويلة ، فيظهر كذبه ويبين تقوُّله ، ويتسلق^(١) به أعداؤه ، ويخذله
أوليائه .

فإذا فسد ذلك ، صح أنه وازد من عند علام الغيوب تبارك وتعالى
، وإذا صح أنه من عنده عز وجل ، صح أنه معجز .

فإن قيل: أكثر ما ذكرتموه يكون تغريرا بالجاه ، ومن طلب مثل
الأمر الذي طلبه فقير ممتنع أن يفرر بنفسه ، فضلا عن جاهه ، لأن
التغريير بالنفس أعظم من التغريير بالجاه .

قيل له: التغريير بالنفس أيسر عند من طلب معالي الأمور ، من
التغريير بالجاه ، لهذا تجد كثيرا من الناس يفرر بنفسه في الحروب للأنفة
، وكذلك تجد كثيرا ممن له علو الهمة ، يؤثر إعانة^(٢) النفس على
التشويه بها .

على أن التغريير بالنفس أو بالجاه إن اختاره العاقل ، فليس يختاره
إلا إذا لم يكن منه بد في الأمر الذي يطلبه .

(١) كذا في المخطوط .

(٢) كذا في المخطوط ، وفي المخطوط: ويؤثر . ولعل الصواب ما أنت .

فأما إذا كان يعلم أنه يجد منه بدا ، أو يغلب في ظنه ، وكان الذي يغلب في الظن أن المحذور واقع ، فإنه لا يجوز أن يختاره بته .

ومن المعلوم أن هذا القرآن لو لم يكن من عند الله عز وجل كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم مستغنيا عن هذه الآيات المخصوصة ، وأنه لم يكن يتلوها عليهم ، لأن كثيرا منهم كان قد أسلم وآمن بسائر ما ظهر عليه من الآيات - على ما نبينه بعد هذا إن يسر الله سبحانه وأعان عليه - وكان في حكم المعلوم أنه لو لم يكن معجزا ، ولم يكن من عند الله ، أنه كان يحصل منهم الاتيان بمثله لا محالة .

ولو وقع لعاد الأمر إلى ما كان يكره ، ولم يكن له في ظاهر الحال فيها فائدة كثيرة ، لأن العرب كانت عارفة بحال القرءان ، وفائدة التحدي ، وكانت تحمله بعده صلى الله عليه وآله وسلم لسائر الناس ، وما يجري هذا المجرى لا يجوز أن يختاره العاقل مع سلامة الأحوال ، فثبت أنها كانت من عند الله عز وجل .

على أن ما نعرفه من حكم التحدي ، وأنه كان لا بد من حصول المعارضة من القوم ، ولم يتعذر عليهم ، معلوم لكل عاقل ، ومعلوم أيضا أحوال القوم وأحواله صلى الله عليه وآله وسلم بكمال عقله ، فلو لا أن القرآن من عند الله عز وجل ، كان لا يجوز أن يتحدى ذلك التحدي ، لعلمه بأنه يوتى بمثله في أقرب مدة ، كما أن إنسانا لو جاء إلى أعدائه ، وطلب التروؤس عليهم ، والتحكم بما شاء فيهم ، وأن يكون أولى بأنفسهم منهم ، وقال: دلالتى على ما أدعى أني أكلكم

اليوم طول نهارى ، فلا يمكن لأحد منكم أن يجيبني . فمن المعلوم إذا كانت الأحوال سليمة ، أن لا يدع أحدا منهم أن يجيبه ، وأن يكون هو لا يفعل إذا كان عاقلا سليما ، سيما إذا كان مبنى أمره على الصدق ، وبجانبه الكذب .

وهذه كانت حال النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع العرب فيما تحداهم به ، لولا أنه من عند الله عز وجل .

فإن قيل: ما تنكرون على من قال لكم: إن ذلك كان خطأ من جهة الرأي على ما قلتم ، وأن الأولى كان لا يأتي به ، إلا أن الحازم قد يزل ، والمصيب قد يخطئ ، والمحق " قد يسف ، وإذا كان ذلك كذلك ، لم يجب أن يكون ذلك من عند الله عز وجل ، وحاز أن يكون من عنده ، اتفق على سبيل الخطأ كما يتفق من الناس ، ثم اتسق الأمر على مراده ، فلم يعارض الاتفاق ، كما يتفق في كثير من الأمور أن يخطئ فيه الانسان ، فيجري الأمر مع خطئه على مراده على سبيل الاتفاق .

قيل له: إن الخطأ إذا عظم وفحش حتى يشترك في العلم به المميز المحصل ، والغمر الذي لم يحكم التجارب ، بل المراهق الذي لم يبلغ بعد الحلم ، لم يجز أن يقع من العاقل المميز الذي له في التحصيل والتنقير عن الأمور أوفى المحظوظ .

ألا ترى أن من يريد تأديب ولده وتهذيبه ويردعه عما لا يحسن ، وحمله على طريق الصلاح يجوز أن يمه بمقارع ، فيقع الخطأ فيه ،

(١) في المحظوظ: والمحقق . ولعل الصواب ما أثبت .

ويتجاوز الغرض المطلوب حتى يوهن بعض أعضائه ، ولكن لا يجوز أن يبلغ به الخطأ مع كمال عقله ، وسلامة أحواله ، حتى يضربه بالسيف ضربة يعلم أو يغلب على الظن أنها تأتي عليه ، وكذلك من يداوي نفسه يجوز أن يخطئ فيرسل على بعض أعضائه العلق (١) ، فيزيد ذلك في مرضه وألمه . ولكن لا يجوز مع كمال العقل أن يخطئ فيرسل الأفعى على بعض أعضائه على سبيل التداوي .

وكذلك يجوز أن يجني على نفسه ، بتناول ما يضره من الأدوية على سبيل الخطأ ، ولكن لا يجوز أن يخطئ فيتناول البش (٢) ، مع علمه به وبصفته وفعله . ونظائر هذا أكثر من أن تعد وتحصى .

فإذا صح ذلك وثبت ، فقد علمنا أن إيراد هذه الآيات لو لم تكن من عند الله عز وجل ، لكان من الخطأ العظيم الفاحش الذي لا يجوز وقوع مثله من كامل العقل ، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم أتى قوما هم نظراؤه في النسب ، وأشكاله في اللسان ، وأمثاله في المعرفة بمجاري الأمور ، فدعاهم إلى دين كرهوه ، وعادوه عليه وناصروه ، ولم يدعوا ممكنا في مناوئته إلا أتوه ، وهو يعلم أن أمره مبني على صدق اللهجة ، وبجانب الكذب والتزهد عنه ، وأن يسير الكذب لو ظهر منه لأدى إلى إفساد حاله ، وتوهين أمره ، ومكّن منه أعداءه ، ونفّر عنه أوليائه ، وهدم ما أسسه ، ونشر ما ضمه ، ونقض ما شاده .

(١) العلق: الدم العليظ ، والقطعة منه .

(٢) كذا في المخطوط .

وهو مع ذلك قد ابتدأ أمره يستتب ، وحاله ينتظم ، وقد آمن به قوم بما ظهر من سائر آياته ، وصار أصحابه في الزيادة .
 فإذا كانت أحواله جارية على ما مثلنا ، ماضية على ما وصفنا ، فمن الخطأ العظيم الفاحش ، الذي لا يقع " مثل من العقلاء ، أن يأتي بأمر أقل ما فيه أن يعلب على الظن إن لم يكن معلوما مقطوعا به أن يفضحه في أقرب مدة ، وأرخص " زمان ، ويفسد حاله ، وتبطل دعوته ، ويظهر كذبه .

فإذا ثبت ما ذكرناه ، صح وبأن أن هذا القرآن لم يكن من عنده صلى الله عليه وآله وسلم ، وإنما كان من عند علام الغيوب جل وتعالى ، وعلى أن هذا التحدي لم يقع منه مرة واحدة ، أو في سورة واحدة ، فينسب إلى الاتفاق والغفلة . بل كرره صلى الله عليه وآله وسلم حالا بعد حال ، وأورده في سور كثيرة ، وأمر أصحابه بتلاوته في جميع القرآن ، إلى أن اختار الله عز وجل له دار كرامته ، لم يتلوم فيه ، ولم تضعف نفسه صلى الله عليه وآله وسلم ، وما جرى هذا المجرى لا يجوز أن ينسب إلى أنه اتفق على سبيل الغلط والخطأ . وإذا لم يجر ذلك وبأن فساد ، صح ما قلناه من أنه من عند الله عز وجل .

فإن قيل: ما تنكرون على من قال لكم: إن عدد من كان يكمل لمعارضة القرآن من العرب كان محصورا ، لأن من المعلوم أن كل واحد

(١) في المخطوط: لا ينع . والصواب ما أثبت .

(٢) كذا في المخطوط ، ولعلها: وأد .

منهم لم يكن يكمل للآتيان بالكلام الفصيح ، منظوما كان أو منشورا ، ومتى كان ذلك كذلك ، فيجوز أن يكون النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان واطاهم على أن يكفوا عن معارضته ، وأن يكون القوم جعلوه على ثقة من ذلك ، حتى وثق بما عاهدوه عليه واعتمدوه ، لما كان من تمكينه إياهم من أغراض كانت لهم ، وإطماعه لهم في رياسات تحصل لهم ، فتحداهم لذلك بانسراح صدر ، وقوة نفس .

قبل له : هذا كلام من لا يعرف أحوال العرب ، وأحوال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، لأن العرب كانوا في ديار متباعدة الأطراف كتهامة ، وسائر أرض الحجاز إلى اليمن وشجر " وعمان وبحد والشام ، وكان الفصحاء منهم متفرقين بحسب بلدانهم ، وتنائي أوطانهم .

والنبي صلى الله عليه وآله وسلم يومئذ كان في حكم المنفرد الوحيد ، إذ لم يكن يساعده على أمره إلا من كان يؤمن به ويصدق به ، ولم يكن صلى الله عليه وآله وسلم واجدا سعة من المال ، ولا متمكنا من الرجال ، بل كان شريدا طريدا ، قد جفاه أهله ، فكيف كان يظن مع هذه الأحوال من تجميع الرجال ، وجمع كلمتهم ، مع تراخي الديار ، وتباعد مزارهم ، وعدمه صلى الله عليه وآله وسلم الرسل الذين يوجههم إليهم ، بل أي رغبة كانت فيه لطلاب الدنيا وأحوالها ؟!

على أنه لو كان مثل كسرى في كثرة أمواله ، وانبساط ملكه ، ووفور حاله ، وعظم هيئته ، مع ما كان يتعلق به من الرغبة والرغبة ،

كان لا يتم له ذلك ، بل كان يتعذر عليه جمعهم على ذلك ، وتقريرهم عليه ، فكيف يظن العاقل أنه تم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك !!؟

على أن مثل هذا التواطئ مما لا يصح وقوعه في العرف ، وبحرى العادة ، وبه يستدل على صحة الأخبار المتواترة ، ولولا تعذر ذلك واستحالته من طريق العادة ، لكان يجوز أن يشك في كثير من " محبر الأخبار المتواترة ، وهذا أظهر من أن يحتاج إلى إطالة الكلام فيه .

على أن ذلك لو كان ، لكان لا يجوز أن ينكس ، بل كان يظهر ظهوراً تاماً ، على ما تقدم بيانه في باب التحدي . لأن الدواعي تدعو إلى نشر مثله ، والبواعث تبعث على إذاعته ، والأغراض تتوفر في ذلك وتختلف .

على أنه من أين كان يثق بأن من واطأه - لو أمكن ذلك وكان الطريق إليه مستحيماً " - يفي له بذلك ؟ وكيف كان يأمن أن يستغفر رأيه ، فينقض ما بذله حتى يفتضح بذلك ، ويفسد عليه أموره ، ويظهر كذبه ، وهذا ظاهر الفساد .

فبان بهذه الوجوه التي بيناها سقوط ما سألوا عنه في هذا الباب .

فإن قيل: ما تنكرون على من قال لكم: إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يجوز أن يكون ظن أن الاتيان بمثل هذا القراءة يتعذر على

(١) في المخطوط: في . ولعل الصواب ما أثبت .

(٢) كذا في المخطوط .

قومه ، من حيث علم أحوالهم ، ومجاري أمورهم ، فأقدم على التحدي ، لِمَا غلب من ذلك في ظنه، لأن العاقل الحصيف قد يقدم على الأمر المظنون بما يقدم " على الأمر المعلوم ، وفي كون ما ذكرناه جائزا خارجا من حيز " الامتناع ما يطل دعواهم أنه يجب أن يكون من عند الله عز وجل .

قيل له: هذا الظن ظنٌ لا أمانة عليه ، بل لا يجوز حصوله للعاقل المميز " ، لأن خلافه هو المعلوم .

فالمتعلم " إن ما يأتي به الانسان من أي جنس كان ، وأي باب كان ، فإنه من المعلوم أنه لا يتعذر الاتيان بمثله على من كان على مثل صفته في ذلك الشيء .

ونحن نعلم أن أولئك العرب كانوا مثل النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المعرفة بأحوال الكلام وطرقه ، وجيده ورديته ، وفصيحته ومتوسطه ، أو مقاربين له في ذلك .

ومن كان كذلك ، فمن المعلوم أنه لا يتعذر عليه الاتيان بمثل ما أتى به ، والعلم بهذا طريقه الضرورة ، فلا يصح أن يقال: إنه صلى الله عليه وآله وسلم يجوز أن يكون عدمه " ، وإذا كان ذلك معلوما ، فلا

(١) في المخطوط: تقدم . ولعل الصواب ما أثبت .

(٢) في المخطوط: حر . ولعل الصواب ما أثبت .

(٣) في المخطوط: المتميز . ولعل الصواب ما أثبت .

(٤) كذا في المخطوط .

(٥) كذا في المخطوط .

يجوز أن يظن العاقل خلافه ، لأن ذلك يصير من ظنون السودوس (١) ،
 الزائلين عن كمال العقل ، ونحن بنينا (٢) دليلنا هذا على أن النبي صلى
 الله عليه وآله وسلم كان كامل العقل ، وافر التحصيل ، صحيح التمييز ،
 ، على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يتحدّ به قومه الذين هم
 قرابته فقط ، بل عم التحدي جميع العرب ، بل جميع البشر ، فلو جاز
 أن يظن الإنسان أنه صلى الله عليه وآله وسلم ظن ذلك بقومه لمعرفته
 بكثير من أحوالهم ، وبواطن أمرهم - على بُعد ذلك - فكيف يظن أنه
 ظن ذلك بسائر العرب ، مع كونه متباعدة عن ديارهم ، متناثيا عن
 ضبط أحوالهم ، وفيهم مثل: ليبد بن ربيعة ، وكعب بن زهير ، الذي
 جاءه صلى الله عليه وآله وسلم ، والأعشى ، وحسان ، وغيرهم من
 الفصحاء المشهورين ؟!

وإذا ثبت أن الأحوال كانت على ما ذكرناه ، صح ووضح أنه
 صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن يجوز أن يظن ذلك ، لو كان القول
 من عنده ، إذ كان يجب أن يكون المعلوم بخلاف ذلك . وفي بطلان
 ذلك دليل على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان عالما بتعذر ذلك
 عليهم ، لكونه من عند الله عز وجل .

(١) كذا في المخطوط .

(٢) في المخطوط: بيا . ولعل الصواب ما أنت .

فإن قيل: يجوز أن يكون صلى الله عليه وآله وسلم ظن أن القوم يكفون عن الاشتغال بالأتیان بمثله ، وإن لم يكن متعذرا عليهم ، فبني أمر التحدي عليه .

قيل له: هذا الظن حصوله للعاقل أبعد وأشد استحالة من الظن الذي بعُد التحدي عنه .

أولا: لأننا قد بينا فيما تقدم أنه معلوم بكمال العقل أن من أنسى قوما هم أمثاله ونظراؤه في النسب والمحل ، وادعا رئاسته عليهم ، وأنهم يلزمهم الانقياد له ، وقبول طاعته ، وهم له كارهون ، قد أظهروا له البغضاء والعداوة ، واحتج عليهم بأمر يمكنهم مقابله بمثله من غير ضرر يلحقهم ، فإنه لا يجوز منهم الكف عن ذلك على وجه من الوجوه .

يكشف ما قلنا في جواب السؤال وما قبله: أننا نعلم أن واحدا من علماء عصرنا هذا ، من فقيه أو متكلم ، أو أديب أو متطبب ، إذا كان في بلد فيه وفيما حوله عدة من نظرائه فيما يتعاطاه ، أو مقاربين له مع ظهور بغضهم^(١) له ، وكرهاتهم رئاسته عليهم ، وانتصاهم لعداوته ، وركوبهم الصعب والذلول في ذلك .

فإنه لا يجوز متى كان عاقلا لا آفة به أن يظن أنه يطلب الرئاسة عليهم ، وتصريفهم على أوامره ونواهيه ، بأن يحتج به عليهم ويتحداهم به ، وهم متمكنون من مقابله بمثل ما احتج وأورد بأهون سعي ، فلا يقع منهم ، ولا يختارون فعله ، بل يكفون عنه .

(١) في المخطوط: بعضهم . ولعل الصواب ما أثبت .

وإذا ثبت ذلك ، صح أن ما ذكروه من جواز حصول مثل ذلك الظن باطل ، وأنه صلى الله عليه وآله وسلم إنما تحداهم بما أورده عليهم بأمر علام الغيوب ، ومع العلم أنه متعذر عليهم .
 فإن قيل : فَحَوِّزُوا أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَرَفَ ذلك من جهة بعض الأنبياء ، وأن يكون وقع إليه أنه أخير عن حاله وحال القوم معه بأن يكفوا ^(١) عن معارضته ، فاعتمد ذلك ، وبني أمر التحدي عليه ، لعلمه بصحته ، وأن أصل ذلك الخير من عند الله عز وجل .

قيل له : هذا الذي ذكرت لو كان ، يزيد أمره صلى الله عليه وآله وسلم قوة رغبة وتأكيدا ، وكان ذلك ضربا من التبشير به ، وذلك أن ذلك النبي لو أخير أن القوم يكفون عن معارضته ، وأحوالهم على ما وصفنا ، لكان لا يخلو ذلك الكف من أن يكون منهم على سبيل الاختيار ، أو لأن ^(٢) الاتيان بما كان متعذرا عليهم ، أو لأن ^(٣) الله عز وجل صرفهم عنها ببعض لطائفه .

وقد ثبت أن الكف على سبيل الاختيار منهم مما يستحيل ، ولا يصح كونه ، فلم يبق إلا أنه كان للتعذر أو للصرف ، وأيهما كان وجب كونه معجزا ، دالا على نبوته . فتقدم خير نبي - إن تقدم -

(١) في المخطوط: يكفون . والصواب ما أثبت .

(٢) في المخطوط: ولأن . ولعل الصواب ما أثبت .

(٣) في المخطوط: ولأن . ولعل الصواب ما أثبت .

يكون بشارة له بأن الله عز وجل بعثه نبيا ، ويُظهر عليه العلم الذي يدل على نبوته .

فإن قيل: فإذا ثبت أنه من عند الله عز وجل ، فما الذي يدل على أنه معجز ؟ لأن التوراة والإنجيل ، وإن كانا مترلين من عند الله ، فلا يجب كونهما معجزا ؟

قيل له: إذا ثبت بما بيناه تعذر مثله على الناس ، ثبت كونه معجزا كما بيناه في الدليل الأول .

فإن قيل: إذا كان هذا الدليل لا يتم إلا بذكر التحدي ، وبيان تعذر مثله ، وعليه بنى الدليل الأول ، فلم جعلتم هذا دليلا ثانيا ؟!

قيل له: هذان الشرطان وإن جمعا الدليلين ، فلكل واحد منهما شرط يخصه ، لأن الدليل الأول لا يتم إلا بأن يعلم أن المعارضة لم تقع ، وهذا لا يجب أن يشترط في الدليل الثاني ، لأن الدليل الثاني يصح أن يستدل به .

وقيل: النظر في أن المعارضة وقعت أو لم تقع ، حين يكون حصول العلم بأن المعارضة لم تقع بعد استكمال النظر في الدليل ، ووقوع العلم به .

والدليل الأول ليس من شروطه أن نبين أن كامل العقل^(١) لا يجوز أن يقع منه من تلقاء نفسه مثل هذا التحدي ، ولا يجب اشتراطه في الدليل الأول .

(١) في المخطوط: العقل . ولعل الصواب ما أثبت .

والدليل الثاني لا يتم إلا باشتراطه ، لأنه مبني عليه .

وإذا كان لكل واحد من الدليلين شرط يخصه - ولا يتم الدليل إلا بشرطه - لما صح كونهما دليلين ، وإن جمعتهما شروط أخر .

دليل آخر على أن القراءان معجز: ومن الدليل على ذلك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ابتدأ الاتيان بهذا القراءان على غاية الاحكام والاتقان ، وقد ثبت جريان العادة أن كل أمر يقع على وجه لا يصح وقوعه عليه إلا بعلوم تحصل للفاعل له ، لا يصح وقوعه ابتداء على غاية الاحكام والاتقان ، وأن بلوغه الغاية يتعذر على "مر السدهور والأعصار ، وتعاطي جماعة فجماعة له . وأنه لا فرق في ذلك بين "شيء من الأمور التي هي منظوم الكلام ومنثوره ، أو ما يتعلق بالتنجيم أو الطب أو الفقه أو النحو ، أو الصناعات التي هي النساخة أو الصياغة أو البناء أو ما أشبه ذلك .

فإذا ثبت ذلك وثبت وقوع القراءان على الوجه الذي بيناه ، ثبت أنه وقع على وجه انتقضت به العادة ، وما وقع على وجه تنتقض به العادة ، وجب كونه معجزا ، وجرى مجرى قلب العصا حية ، وإحياء الموتى ، والمشي على الماء والهواء .

فإن قيل: ولم ادعيتم أن القراءان وقع على غاية الاحكام والاتقان

!؟

(١) في المخطوط: إلا على . ولعل الصواب ما أثبت .

(٢) في المخطوط: من . ولعل الصواب ما أثبت .

قيل له: قد علمنا ذلك كما علمنا في غيره مما بلغ الغاية في بابهِ ،
 وذلك كما علمنا أن التنجيم بلغ الغاية في أيام بطليموس ، وأن الهندسة
 قد بلغت الغاية في أيام أفقليدس ، وأن الطب بلغ الغاية في أيام جالينوس
 ، وأن الشعر بلغ الغاية في أيام امرئ القيس ، والناطقة ، وزهير ،
 والأعشى ، وأن النحو بلغ الغاية في أيام سيويه والخليل ، وأن الخط بلغ
 الغاية في أيام ابن مقلة ، وكذلك سائر الصناعات والمهن ، وكان
 الطريق إلى الجميع أنا قد علمنا من حال كل واحد ممن تعاطاه ، بأن
 كل من حاوله وتعاطى مثله ، إما أن يكون قصر عنه قصورا بينا ، وبَعْدُ
 بُعْدًا متفاوتا ، أو قاربه ، أو زاد عليه شيئا ، زيادة كانت يسيرة لا يؤبه
 بنثلها .

فدلنا ذلك على أن جميع ما ذكرناه وقع على غاية الاحكام
 والانتقان في بابهِ ، في الأوقات التي ذكرناها .

فإذا ثبت ذلك وثبت أن القرءان لما أتى به النبي صلى الله عليه وآله
 وسلم حاول كثير من الناس الاتيان بمثله ، فقصوروا عنه قصورا ظاهرا ،
 وسقطوا دونه سقوطا فاحشا ، عرفه من نصيح^(١) نفسه ، ولم يحدد ما
 تصوَّره .

فأما مَنْ عَانَدَ وتواقع^(٢) ، فإنه ادعا المقاربة ، وأوهم الأغمار
 بالمائلة ، ولم يدع أحد أنه يبرز عليه ، ويطلب وراءه أمرا للمزيد ،

(١) في المخطوط: أنصح . ولعل الصواب ما أثبت .

(٢) من الوقاحة .

لوضوح الأمر في بلوغه الغاية ، ولحوقه درجة النهاية . فكان وقوعه على غاية الاحكام والاتقان ، أوضح من سائر ما ذكرناه ، لأن عامة ذلك قد زيدت عليه زيادات على مقدار احتمال الصنعة ، والقراءان ارتفع عن ذلك ارتفاعا حسم المطامع عن ابتغاء المائلة ، فكيف ابتغاء الزيادة ؟! فصح بذلك ما ادعيناه ، ووضح ما ذكرناه .

على أنه لو ثبت أن وراء غاية القراءان غاية يترتب وقوعها مزيدا يُطلب ، لم يقدح ذلك في استدلالنا هذا ، لأننا قد علمنا أنه لما حصل ووقع ، لم يكن وقوعه على أدنى مراتب الكلام وأضعف وجوهه ، بل كان متجاوزا لذلك شأوا بعيدا ، وأما مديدا .

وهذا القدر كافٍ في وقوعه على وجه انتقضت به العادة .
على أنا نقول لهذا السائل: إن كنت تعرف شيئا من الأشياء بلغ الغاية في مجرى العادة ، فأبى عنه لنوضح بمثله أن ما ادعيناه في حال القراءان أوضح من ذلك ، ولسنا نريد بالغايات التي ذكرناها في هذه المواضع أجمع الغاية التي لا تكون في المقدور أو المعلوم ما يزيد عليها . وإنما نريد ما يسمى غاية ، ويُعد نهاية في مثله من طريق العادة ، فليكن ذلك مقصورا عند الناظر في كلامنا هذا . فإن المدار عليه ، والغرض ينتهي إليه .

فإن قيل: ما تنكرون على من قال لكم: إن ما ادعيتموه من النبي صلى الله عليه وآله وسلم ابتداء الاتيان به لا يصح ، لأن الفصاحة لم يكن هو صلى الله عليه وآله وسلم ابتدأها ، بل كانت متقدمة العهد ،

متداولة [بين] العرب ، قد استمرت عليها الأعصار ، وتصرفت فيها الأفكار ؟

قيل له: لسنا نزعم أن الذي اختص به القراءان هو الفصاحة فقط ، حتى يلزمنا ما ذكرتموه ، وإنما نقول: إن الذي اختص به هو هذا النظم المخصوص ، والأسلوب المتميز ، واقعا في أعلى طبقات الفصاحة . وإذا كان هذا هكذا ، ولم يعرف للعرب قبله صلى الله عليه وآله وسلم هذا النظم المتميز عن غيره ، صح ما قلناه من أنه ابتداء به على الغاية في معناه

فإن قيل: إلى ماذا تشيرون بقولكم: هذا النظم المخصوص ، والأسلوب المتميز ، فإنا لا نعقل فيه أمرا زائدا على الكلام المعتاد ، ولم نعرف تميزا إلا بالفصاحة ؟

قيل له: نريد بذلك ما نعرفه ، ويعرفه كل متأمل كلام العرب ، لأن كلامهم أجمع لا يخلو: من أن يكون موزونا .

أو غير موزون .

فالوزون تختلف أجناسه ، ويتميز قصيره عن رجزه ، وكل ذلك مما يعرفه أهله .

وما ليس بموزون منه ينقسم أربعة أقسام:

منها نظم الخطب وطريقته .

ومنها نظم الترسل ومنهاجه .

ومنها أسجاع الكهنة .

ومنها المحاورات التي تجري بين الناس ، ملفوظا بها ومكتوبا في منافع الدين والدنيا ومضارهما ، وما ينطوي على الجد والهزل . ووجدنا أسلوب القراء ونظمه مفارقاً لهذه الأساليب أجمع ، لأنه ليس من نظم الخطب ، ولا الرسائل ، ولا أسجاع الكهان ، ولا المحاورات ، يعرفه كل من تأمله ، ممن ليس له أيسر حظ من المعرفة لكلام العرب .

فأما بيان أن الاعجاز تعلق بهذا الأسلوب المخصوص ، واقعاً في أعلى طبقات الفصاحة ، فسيجيء بعد الفراغ من إيضاح هذا الدليل ، إن يَسَّرَ الله عز وجل ، وسنفرد له فصلاً ، فإنه باب عظيم لا يستغنى عنه .

فإن قيل: ما تنكرون على من قال لكم: يجوز أن يكون النبي صلى الله عليه وآله وسلم أدار القراء في نفسه نحواً من خمسة وعشرين سنة ، من حين بلغ إلى أن بعث ، حتى رتبته ونقحه وهذبه ، ثم أظهره على ما هو عليه من الغاية؟

قيل له: ذلك مما لا يصح ، لأن القراء ليس دون الأشعار والرسائل .

وقد علمنا: أن الشعر لم يبلغ الغاية في هذا القدر من الزمان . ولا برجل واحد ، وكذلك الرسائل ، وكذلك سائر الصناعات ، وأن العادة جارية بأن كل من ابتدأ صناعة وابتكرها ، لا يتسع لبلوغ آخرها في مقدار عمره ، وأما لا تبلغ الغاية إلا بأزمة تتصل ، وبجماعات

يقتدي بعضهم ببعض ، ويستعين بعضهم بخواطر بعض ، ويبنى الخالف على ما أسسه السالف . فوضح بذلك سقوط هذا السؤال .

فإن قيل: إن الخليل بن أحمد ابتدأ العروض فأورده على غايته ، ولم يدل ذلك عندهم على انتقاض العادة ، فما أنكرتم أن يكون القراءان مثل ذلك ؟!

قيل له: إن العروض هو ضرب من تقطيع الأصوات وترتيبه ، وقد سبقه بذلك صاحب الموسيقى ^(١) ، وبلغ الغاية فيه .

وقد سمعنا من كان يعرف اللغة السريانية يذكر أن للأشعار المعمولة على ذلك اللسان عروضاً قد عملت ^(٢) ، ويجوز أن يكون الخليل بنى على تلك الطريقة ، ولا يكون له إلا بتبع أشعار العرب ، وعدّ أجناسها ، وردّها إلى الوزن ، مقتفياً به ما ذكرناه .

ثم قد سقط عنه أوزان وأضربٌ ، منها الوزن المسمى: ركض الخيل ^(٣) ، وقد جاء عليه الشعر المنسوب إلى عمر الجني ، وهو: أشحاك تشتيت شعب الجن فأنت له أرق وصب ^(٤) وهي قصيدة طويلة .

وفي المحدثين من عمل على ذلك ، فقال قصيدة طويلة أولها:

(١) يعني: صاحب الموسيقى .

(٢) في المخطوط: عمل . ولعل الصواب ما أثبت .

(٣) في المخطوط: الخيل . والصواب ما أثبت . كما في كتاب الرهان الرائق ، والذي

نقل هذا النص من هذا الكتاب .

(٤) لم أقف عليه .

أنسيت أفعالهم السححا فأراك تذكرهم لهجا " وسقط عنه أيضا ضربٌ من الوزن المسمى بالمنشرح " ، وهو أن يقع في القافية « مفعولات » بدل « مفتعلن » ، وقد جاء على ذلك أشعار كثيرة ، وتنبُّع هذا مما يخرجنا عن غرض كتابنا هذا ، وفيما أشرنا إليه كفاية .

فبان بما ذكرناه أنه لا يصح أن يقال: إن الخليل أورد ذلك ابتداء على الغاية ، كما أورد النبي صلى الله عليه وآله وسلم القراءان مبتدئا به ، ومبتكراً له على الغاية في معناه ، فسقطت المعارضة .
فإن قيل: ما تنكرون على من قال لكم: يجوز أن تكون أكثر هذه الصناعات لم تبلغ الغاية برجل واحد ، لأن العناية بها لم تتم ، والدواعي

(١) لم أفعل عليه .

(٢) نحر المسرح - بالسين ، والمؤلف كنه بالشين - إما أن يكون تاما ، وإما أن يكون مهوكاً ، فالمسرح التام: عروضه صحيحة ، وصره: إما مطوي ، وإما مقطوع . مثل:

أرسلت نفسي على سحيتها وقلت ما قلت غير محتشم

مستعلن - مفعولات - مستعلن . . . إلخ . والضرب جاء على: مستعلن ، حذف رابعة الساكن حذفاً لازماً ، فهو مطوي .

لو كنت يوم السوداء شاهداً وهن يصرن لوعيد الوجد

والضرب - وهو التطر الثاني - جاء على: مستعلن ، فهو متطوع .

والمنسرح المنهوك: عروضه وصره يكونان موقوفين ، أو مكسوفين . مثل:

١ - صبرا بني عبد الدار .

مستعلن - مفعولات .

٢ - وسوددا ومعدا .

مستعلن - مفعولات .

إليها لم تقوَ ، والبواعث عليها لم تتوفر . وإذا كان كذلك ، حاز أن تكون دواعي النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى إيراد القرآن على هذه الصفة توفرت ، وبواعثه عليه قويت ، فأتى به ، وإن لم يتفق لأحد قبله ما جرى هذا المجرى ، ومتى جوزتم ذلك بطل ما اعتمدتموه من أنه وقع على وجه انتقضت به العادة ؟

قيل له : هذا الذي ذكرتموه مما لا نخبره ، لأن تجويز مثله يؤدي إلى أن يلبس ما هو متعذر ، بما لا يتعذر ، وإلى أن لا يكون بينهما فرق ، وقد ثبت الفرق بينهما . فوجب بطلان هذا السؤال .

ألا ترى أن ذلك لو حاز لجاز لقائل أن يقول : جوزوا أن يكون واحد من الأطباء لم تقوَ عنايته ، ولم تتوفر بواعثه ، حتى يبلغ إلى حيث نحى الموتى ، ويرى الأكمه والأبرص ، وأنه لا يستحيل أن يبلغ بعض الأطباء بعنايته ، ووفور دواعيه ، وقوة بواعثه .

ولجاز للآخر أن يقول : جوزوا أن يكون واحد " من السحرة المشعبدن لم تبلغ به قوة دواعيه وبواعثه إلى أن يبلغ مبلغا ، ثم إن قلب العصا حية ضرب من الحيل ، وأنه من الجائز المتوهم أن يبلغه بعض السحرة والمشعبدن ، وكذلك يجوز ذلك في سائر الصناعات ، فلما علمنا بطلان قول من يجيز ذلك ويشك فيه ، وجب بطلان ما سأل عنه السائل في هذا الباب .

فإن قيل: الفرق بين ما ذكرتم وبين ما سألنا عنه ظاهر ، لأن الذي ذكرتموه ليس جنسه في مقدور العباد ، وما سألنا عنه جنسه في مقدور العباد .

قيل له: عن هذا جوابان:

أحدهما: أننا عرفنا الفرق بين ما يكون جنسه في مقدور العباد ، وبين ما لا يكون جنسه في مقدورهم . بأن عرفنا ما قلناه: أن جنسه ليس في مقدور العباد على " كل وجه ، وسؤالكم هذا يؤدي إلى أن لا يصح لنا العلم بالفرق بين ما يتعذر علينا وبين ما لا يتعذر . وذلك يؤدي إلى أن يفسد علينا الطريق الذي به نعرف الفرق بين ما يكون جنسه في مقدور العباد وما لا يكون . وكل سؤال يؤدي إلى إفساد ما لا يتم ذلك السؤال إلا به ، يجب أن يكون فاسدا .

والجواب الثاني: أنه لا فرق في هذا الباب بين ما يكون جنسه في مقدور العباد ، وبين ما لا يكون جنسه في مقدورهم .

ألا ترى أننا كما لا نجوز " أن يبلغ الانسان بقوة دواعيه ، ووفور بواعثه ، وشدة عنايته ، إلى أن يحتال حتى يطعم كالنسر أو العقاب ، وإن كان الطيران جنسه في مقدورنا ، لأن ذلك ليس أكثر من أكلان واقعة على وجوه مخصوصة ، وكذلك لا نجوز أن يحصل الانسان بشيء

(١) في المخطوط: العباد علينا على . ولعل الصواب: أنت .

(٢) في المخطوط: يجوز . ولعل الصواب: ما أنت .

من ذلك إلى أن ينقل بعض الجبال الراسيات عن مواضعها ، وإن كان
حسنه في مقدونا ، ونظائره أكثر من أن تحصى .

فبان أن القول بما يؤدي إلى أن يلتبس ما يتعذر بما لا يتعذر ، مما لا
يصح ويجب بطلانه . وسواء قيل ذلك فيما يكون حسنه تحت مقدورنا
أو لم يكن .

على أن الذي قالوه لو كان صحيحا ، لأدى إلى أن لا تقع الثقة
بشيء من المعجزات ، وما جرى هذا المجرى من الشبه التي لا يمكن
حلها ، يجب على القدم عز وجل المنع منه ، على ما سلف القول فيه .
فكان يجب عليه عز وجل أن لا يقع إيراد مثله ابتداء الغاية ، أو يمنع أن
يأتي به المتخصص على وجه ينقض العادة .

فإن قيل : هذا الذي سيتم استدلالكم عليه فاسد ، لأنه يؤدي إلى
أن السبق إلى الشيء يوجب كونه معجزا ، وقد علمنا فساد ، لأن
أمورا كثيرة تتجاوز الاحصاء والعد ، قد وقع إليها السبق ،
كالصناعات والمهن وما جرى مجراها ، وكثير من العلوم ، وليس يكون
شيء من ذلك معجزا .

قيل له : من تأمل كلامنا لم يسأل هذا السؤال ، لأننا لم نقل : إن
الابتداء بالقرءان فقط يدل على أنه معجز ، وإنما قلنا : إنه وقع على
وجه انتقضت به العادة ، لأن العادة جارية بأن الأمر المبتدأ به لا يجوز
وقوعه على الغاية في الباب المقصود إليه ، وأوضحنا ذلك وكشفنا عن
صحة ما قلناه .

ثم قلنا: وقد وقع القراءة ابتداء على الغاية في المعنى المقصود إليه ، فوجب أن يكون وقوعه على وجه يوجب نقض العادة ، وذلك يوجب كونه معجزا . وليس هذا من السبق المجرد إلى الأمر في شيء ، بل هو جارٍ مجرى من لا يحفظ اليوم شيئا من القراءة ، ثم يجدد في اليوم الثاني حافظا له وللقرئات ولوجوه القراءات ، في أنه يجب أن يكون معجزا ، لأن حفظه وقع على وجه انتقضت به العادة .

ولا يلزم على ذلك القول بأن مجرد الحفظ للقرآن وللقرئات ووجوهها معجز ، وكذلك القول في سائر الحروف والصناعات وأصناف العلوم . فوضح سقوط هذا السؤال عما اعتمدناه في هذا الباب .

فإن قيل: دليلكم هذا يقضي جواز وقوع الاتيان بمثل القراءة على مر الأعصار ، وامتداد الأزمان ، لأنكم إنما قلتم: إن مثله لا يجوز الابتداء به . والدليلان المتقدمان يقضي كل واحد منهما أن الاتيان بمثله لا يصح ، وعلى هذا إن صح واحد من الدليلين المتقدمين ، فيجب فساد هذا الدليل ، وإن صح هذا الدليل ، وجب فساد الدليلين المتقدمين ، فيجب فساد هذا . وأنتم قد اعتمدتم الأدلة الثلاثة وصححتوها ، وذلك متعذر .

قيل له: هذا غلط ظاهر ، وقلة تأمل لترتيب أدلتنا ، لأن الدليلين يوجبان أن الاتيان بمثل القراءة لا يصح ولا يجوز ، وإن كان قد حكي

عن قوم أنهم ذهبوا إلى أن التحدي وقع خاصا في ذلك العصر ، وأنه إن أتى بمثل
القرآن بعد ذلك ، لم يقدح في كونه معجزا .

والدليل الثالث: لم يتضمن جواز الاتيان بمثله بعد ذلك ، وإن كان لم
يتضمن وجوب تعذر الاتيان بمثله كما تضمنه الدليلان (١) ، فلا تناقض بينه وبين
الدليلين المتقدمين ، فلم يمتنع (٢) أن يشتمل جميعها على صحة كما ظنه السائل
!؟

ومثال ذلك: أن المستدل على حدوث الأحسام بأنها لم تسبق الأعراض
الحادثة ، يصح له مع ذلك أن يستدل على حدوثها بأنها لم تسبق الأحوال
المتحددة .

وبصح الاعتماد على الدليلين . وإن كان الدليل الأول يتضمن إثبات أعيان
حادثة ، والدليل الثاني لا يتضمنه ، لأن الدليل الثاني وإن لم يتضمن إثبات
أعراض حادثة ، فلم يتضمن أيضا نفيها ، ولم يمتنع أن يكون كل واحد منهما
دليلا صحيحا مستقلا بنفسه .

فكذلك أدلتنا في إعجاز القرآن ، وإن كان بعضها يتضمن وجوب ما لا
يتضمن وجوبه بعضها ، إذ لا يتضمن نفيه .

يوضح ذلك: أن القرآن لا يمتنع أن يكون معجزا لوجهين .
أحدهما: لا يتم إلا بأن يتعذر الاتيان بمثله على جميع البشر إلى آخر الدهر .
والنوحه الثاني: يتم تعذر ذلك مع تراخي الزمان أو لم يتعذر .



(١) في المخطوط: الدليلين . والصواب ما أثبت .

(٢) في المخطوط: فلم امتنع . ولعل الصواب أثبت ، ويؤكد ما في المثال الثاني .

الكلام في بيان ماله كان معجزاً

اعلم أن ما فيه من الإخبار عن الغيوب لا إشكال في كونه معجزاً ، لأن مثله لا يجوز أن يصدر إلا عن علام الغيوب ، وسنفرده لذلك كلاماً بعون الله .

وأما ماله كان معجزاً من غير هذا الوجه ، فقد اختلف فيه على ما بينه .

وهذا الاختلاف لا يقدح في الدليلين اللذين قدمنا ذكرهما ، لأن واحداً منهما لم يُبين على وجه مخصوص مما اختلف فيه .

وإنما بينا الدليل الثالث فقط على وجه مخصوص مما اختلف فيه ، لأنه مبني على أنه صار معجزاً للنظم المخصوص ، واقفاً في أعلى طبقات الفصاحة ، على ما مضى القول فيه ، فأَي وجه من الوجوه التي اختلف فيها صح ، لم يقدح فيما قدمناه من الدليلين .

وذلك أنهما مبنيان على أنه قد تعذر على العرب الاتيان بمثله ، على وجه انتقضت به العادة ، فلأَي وجه كان التعذر لم يؤثر ذلك في كونه معجزاً .

ألا ترى أن نبياً من الأنبياء لو أتى بما يتعذر الاتيان بمثله على جميع البشر علماً أنه معجز ، وإن شككنا أنه تعذر لحسنه أو صفته ، أو لأَي صفة كانت من صفاته ، أو لأن الخلق أجمع صرفوا عنه ، على أي وجه حصل الصرف ، لأن الذي يتم به كونه معجزاً ، هو حصول التعذر على وجه تنتقض به العادة ، فكذلك ما قلناه في وجوه إعجاز القرآن .

فإن قيل: ما تنكرون على من قال لكم: إذا كان كل واحد منكم يطعن في الوجه الذي يعتمد عليه صاحبه في بيان الوجه الذي كان له القراء معجزا ، وبين فساده ، فليس يثبت شيء من تلك الوجوه ، وإذا بطلت تلك الوجوه أجمع لم يصح كونه معجزا ، لأنه لا يكون معجزا إلا لوجه يخصه .

قيل له: الصحيح لا يفسد لظعن من يطعن فيه ، أو يحاول إفساده ، فإذا ثبت ذلك ، لم يجب فساد تلك الوجوه أجمع ، ولم يمنع أن يكون في جملتها وجه صحيح لا يؤثر فيه طعن من يطعن .

وإذا ثبت ذلك صح ما ادعيناه ، من كونه معجزا على ما بيناه . وإن اختلف في الوجه الذي له كان معجزا .

ونعود إلى ذكر الوجوه التي ادعا أن إعجاز القراء يتعلق بها ، ونبين ما نعتده منها .

اعلم أن من الناس من ذهب إلى أن القراء لم يتعذر الاتيان بمثله ، لشيء من أوصافه . وإنما الاعجاز هو الصرف .

ومنهم من قال: إن الاعجاز هو الفصاحة المجردة ، وإنما قد بلغت الحد الذي يتعذر الاتيان بمثلها على جميع البشر ، وهذا قول الأكثرين من المتكلمين .

ومنهم من ذهب إلى أن الاعجاز: إنما هو في النظم المخصوص الذي تميز " به القراء عما سواه .

ومنهم من ذهب إلى أن الاعجاز فيهما جميعا - أعني النظم مع الفصاحة البالغة أعلى طبقات الفصاحة - وهذا هو الذي يصح عندي ، ويتضح لدي .

على أن من قال بالصرف لا بد له من الرجوع إلى بعض هذه الوجوه ، لأن الصرف عنده لم يقع عن جميع الكلام ، وإنما وقع عن كلام له صفة مخصوصة ، وتلك الصفة لا بد من أن تكون هي الأسلوب ، أو الفصاحة ، أو هما جميعا . والكلام في الصرف يأتي بعد هذا الموضوع .

والذي يبين صحة ما اخترناه وادعينا صحته ، أنه لا يخلو :
من أن يكون الاعجاز فيه تعلق بالأسلوب المجرد .
أو الفصاحة المجردة .

أو بما جميعا ، ولا يصح ادعاء من يدعي تعلقه بالنظم ، أي الأسلوب فقط ، لأننا نعلم ضرورة أن تميز نظم القراء عن سائر أساليب الكلام المنشور كأسلوب الخطب ، وأسلوب الرسائل ، وأسلوب كلام الكهنة وأسجاعهم ، وأسلوب المحاورات ، ليس أكثر من تميز بعض الأساليب عن بعض .

وقد علمنا أن من تقدم^(١) في بعض هذه الأساليب حتى بلغ فيها الغاية ، لا يجوز أن يتعذر عليه الأسلوب الآخر ، حتى لا يمكنه أن يأتي

(١) في المخطوط: يقدم . ولعل الصواب ما أثبت .

بشيء منه ، وإن لم يمكنه التصرف فيه وبلوغ الغاية ، كما أمكنه في
النظم الآخر .

يبين ذلك أن الخطيب المصقع ، وإن تعذر عليه إنشاء الرسائل على
الغاية التي يطلب لها ، فليس يتعذر عليه جملة ، بل لا بد من أن يتمكن
من إنشائها في الطبقة الدنيا أو الوسطى ، وكذلك من تقدم في صناعة
الرسائل ، هذا حكمه " في الخطب ، وكذلك المقدم في المحاورات ،
المتناهي فيها .

فإذا ثبت ما بيناه ، ووضح أن من تقدم وبرع في بعض هذه
الأساليب حتى فاق نظرائه ، وقرع أكفائه ، لا يتعذر عليه الاتيان
بأسلوب القراء في الطبقة الدنيا ، فصح بما بيناه أنه لا يمكن أن يقال:
إن الاعجاز تعلق بمجرد النظم .

ولا يمكن أن يقال: تعلق بمجرد الفصاحة ، لأن ذلك لا يتم إلا
بأن تعلم أن القراء قد بلغ في الفصاحة مبلغا ، تجاوزت " الحد الذي
يمكن منها البشر تجاوزا انتقضت به العادة ، ولا يمكن ادعاء هذا العلم
، لأنه لا يخلو من أن يكون ضرورة أو مكتسبا ، ولا يجوز أن يكون
ضروريا ، لأن ذلك لو كان كذلك لاشترك فيه جميع من له قدم في
اللغة ، وحظ من العلم بمواقع كلام العرب ، والأمر بخلاف ذلك ، لأن

(١) في المخطوط: هذه حكمة . ولعل الصواب ما أثبت .

(٢) في المخطوط: وتجاوزت . ولعل الصواب ما أثبت .

مثل ذلك في التمييز فيه ، وفي غيره من الكلام ، وفي سائر الصناعات ،
يجب أن يكون طريقه الضرورة .

فإذا ثبت بما بيناه أن ادعاء التعذر في كل واحد من الأمرين لا
يمكن ولا يصح ، ثبت أن الاعجاز تعلق بمجموعها ، لأننا قد علمنا
تعذر الاتيان بمثله على العرب ، بما أثبتناه وأوضحناه في كتابنا هذا ،
والصفتان جرتا مجرى واحدا - أعني النظم والفصاحة - في الميل إلى
التعذر ، فوجب القول: بأنه تعذر الاتيان بمثل القرعان في الصفتين جميعا
، فصح ما ذهبنا إليه .

فإن قيل: ما تنكرون على من قال لكم: إنا وإن لم نعلم الآن
ضرورة أن القرعان قد بَآيَنَ سائر كلام العرب في الفصاحة مباينة
انتقضت بها العادة ، فإننا نخوِّز أن يكون العرب الذين كانت المعرفة لهم
بذلك جيلة وطبيعة ، عرفوا ذلك ضرورة .

قيل له: تحويز ذلك لا يؤيد صحة ما ادعيتموه ، لأن الذي بني
عليه الدليل ، لا يعني فيه التحويز ، وإنما يجب أن تثبت فيه الصحة على
القطع ، حتى يصح الدليل الذي بني عليه ، وأنتم لم تثبتوا صحته ، ولا
يستقيم سؤالكم .

فإن قيل: ما أنكرتم أن يكون من تأمل قول الله عز وجل: ﴿ وَيَقِيلُ
يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَفْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ
وَاسْتَوَتْ عَلَى الْحُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٤٤) [مردا] ،
وقوله سبحانه: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢)

وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) ﴿[النجم] ، وقوله عز وجل: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١)﴾ [الواقعة] . عرف ما ادعيناه ، من أن فصاحة القرآن وقعت على وجه انتقضت به العادة؟!

قيل له: نحن لا ننكر أن ألفاظ هذه الآيات جزلة واقعة في أعلى طبقات الفصاحة من جهة الجزالة ، إلا أن بين أن يكون الكلام كذلك ، وبين أن تنتهي فصاحته إلى حيث تنتقض العادة بـ " " ، وهذه الآيات لا يكاد يذكرها إلا المتكلم الذي لا يتصور من أقسام الفصاحة إلا حزالة اللفظ .

وذلك لعمرى قسم منها عظيم الموقع ، وإن كانت أقسام الفصاحة كثيرة متنوعة ، على ما نذكرها ونبينها بعد الفراغ من هذا الفصل ، وإنما صار هذا القسم يشترك في العلم به من خفت بضاعته في معرفة كلام العرب أو توفرت ، لأن لها حلاوة تُدرك من جهة السمع ، كما أن للألوان المخصوصة كالصفرة والخضرة ونحوها حلاوة تدرك من جهة البصر ، وكذلك ما يختص سائر الحواس ، وليس كذلك سائر أقسام الصناعات ، لأن العلم بما مفتقر إلى العلم بطرائق العرب في منظوم كلامهم ومثوره ، وجهات تصرفهم فيها ، وكثير من أحوال لغاتهم وعاداتهم في إيرادها .

وهذه أبواب لا يستقل بمعرفتها من لم يكن مطبوعا عليها ، إلا أن ينال منها حظا جزيلًا ، و قسما وافرا .

فإن قيل: ما تنكرون على من قال لكم: إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد تحدى بالقرآن ، وعلمنا ذلك من حاله ، ولم يثبت أن النظم كان مقصودا بالتحدي ، وإذا لم يثبت ذلك ، ثبت أنه لا بد من وجه يكون هو المقصود بالتحدي ، ثبت أن ذلك الوجه هو الفصاحة فقط ، فبطل قول من يقول: إن النظم مقصود بالتحدي ؟!

قيل له: لا فصل بينكم وبين من قال: لم يثبت أن الفصاحة مقصودة بالتحدي ، وإذا لم يثبت ذلك ، فكان لا بد من وجه يكون هو المقصود بالتحدي ، وعليه ثبت أن ذلك الوجه هو النظم فقط ، وذلك أن القرآن له هذا النظم المخصوص والفصاحة المخصوصة ، وقد وقع التحدي به ، وثبت عجز البشر عن الاتيان بمثله ، فلم يكن ادعاء تعلق العجز بأحد الأمرين أولى من ادعاء تعلقه بالآخر ، فيجب أن يقال: إنه متعلق بهما ، أو يقال: إنه لا يتعلق بواحد منهما ، ولا يصح القول بأنه لا يتعلق بواحد منهما ، لأنه لا بد من وجه به يتعلق الاعجاز ، ويكون هو المقصود بالتحدي ، فإذا ثبت ذلك ، فيجب تعلق الاعجاز بالأمرين ، وأن يكونا جميعا مقصودين بالتحدي على ما ذهبنا إليه .

على أننا قد عرفنا من حال كل من ادعا أنه يعارض القرآن ، أو يأتي بما يقاربه ، نحو مسيلمة ، وطليحة ، وابن المقفع ، على اختلاف

أحواهم ، طلب الأسلوب والفصاحة معا ، ولم يكن فيهم من كان يأتي بشعر أو خطبة فيدعي أنه قد أتى بما يقاربه ، فدل ذلك على أنهم أجمعون عرفوا أن المقصود بالتحدي هو النظم والفصاحة معا . فدل ذلك على صحة ما قلناه .

على أن قوله عز وجل: ﴿ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٣] ، وقوله عز وجل: ﴿ فَأَتُوا بِغَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ [هود: ١٣] ، يدل على أن النظم مقصود بالتحدي ، لأن اسم السورة لا ينطلق على الشعر ، ولا الخطبة ، ولا الرسالة ، ولا أسجاع الكهنة ، ولا المحاضرة ، وإنما ينطلق على ما له هذا النظم المخصوص .

فإذا كان كذلك ، كان قوله: ﴿ قُلْ فَأَتُوا بِسُورَةٍ ﴾ [يونس: ٣٨] جاريا مجرى أن يقول: فأتوا بجملة لها هذا النظم المخصوص ، فبان صحة ما ادعيناه من تعلق الاعجاز بالنظم مع الفصاحة .

فإن قيل: إذا ثبت أن هذا النظم المخصوص لم تكن العرب تعرفه ، ولا جرت عادتها باستعماله ، فمن أين ادعيت أن اسم السورة يتناوله دون سائر أجناس الكلام ؟!

قيل له: هذا الاسم جاري مجرى الأسماء الشرعية ، لأنه لم تكن العرب تستعمله في جل شئ من أجناس الكلام ، وإنما استعمل ذلك بعد نزول القرآن ، إلا أنه لما قال عز وجل: ﴿ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٣] ، وقال: ﴿ غَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ [هود: ١٣] ، صح أنه يجوز استعماله فيما يجانس نظمه من الكلام .

وهذه دلالة قوية يجوز أن تعتمد ابتداء ، في بيان أن النظم مقصود بالتحدي ، وإذا ثبت ذلك ، ثبت تعلق الاعجاز بالنظم على ما قلناه .
فإن قيل: ما تنكرون على من قال لكم: إن الاعجاز تعلق بالنظم فقط ؟

قيل: قد تقدم بيان فساد قول من يقول ذلك . لأننا بينا أن مثل هذا النظم لا يجوز أن يتعذر على من لا يتعذر عليه سائر أجناس النظم ، وذلك يُسقط هذا السؤال .

ولا يصح أيضا سؤال من يسأل فيقول: إذا لم يكن النظم معجزا ، فيجب أن تكون الفصاحة هي المعجزة .

ولا سؤال من يسأل فيقول: إن الفصاحة قد انتقضت بها العادة ، فلا وجه لضم الأسلوب إليها ، لأننا قد بينا أن الاعجاز بهما تعلق ، وأنه لا سبيل لنا إلى العلم بأن فصاحة القراء قد بلغت إلى حد انتقضت به العادة ، وبيننا أن الاعجاز بهما تعلق - أعني النظم والفصاحة - وأن ذلك جاري مجرى العلة ذات وصفين ، في أن كل واحد من الوصفين لا يتعلق بالحكم به على الأفراد .

فإن قيل: فإذا قلتم: إن النظم على الأفراد غير متعذر على البشر ، وكذلك الفصاحة على الأفراد غير متعذرة على البشر ، فكيف يصح أن تقولوا: يتعذر عليهم الجمع بينهما؟! وهذا يؤدي إلى القول بأن الاتيان بمثل القراء لا يتعذر على البشر !!

قيل له: معاذ الله من ذلك !! فإن القول الذي قلناه ، لا يؤدي إلى ما ذكرتم ، على ما نبينه ونوضحه .

وذلك أن الذي من أجله أن لا يتعذر النظم هو العلم الذي يحصل به ، وهو العلم بأن كل كلمة إذا وقعت عقيب أي كلمة أعقب هذا النظم ، أو غيره من نظم أجناس الكلام ، موزونه أو منثوره ، ويتعذر ما يتعذر من ذلك ، لفقد هذا العلم ، وكذلك الذي من أجله أن لا تتعذر الفصاحة هو أن يعلم أن كل كلمة إذا وقعت عقيب أي كلمة وما جرى مجراها من تبديل حرف عن حرف ، أو كلمة عن كلمة ، خرج الكلام فصيحاً .

وجملة هذا العلم هي علوم ضرورية ، وإن كانت لا تحصل إلا بالممارسة ، كالعلم بالمهن والصناعات .

ثم العلم بما إذا أتى به كان فصاحة ، في الطبقة الدنيا ، أو الوسطى ، أو العليا ، في نظم مخصوص ، علم ثالث . وهو أيضاً إذا حصل حصل ضرورة .

وإذا كان هذا هكذا ، لم يمتنع أن يكون الله عز وجل لم يجمع لأحد من البشر بين هذه العلوم الثلاثة .

أحدها: هو العلم بما به يكون هذا النظم واقعا في أعلى طبقات الفصاحة . وإذا لم يمتنع ذلك ، لم يمتنع أن يتعذر على جميع البشر الاتيان بمثل القرعان ، لفقد أحد العلوم الثلاثة ، وإن حصل العلمان .

يكشف هذه الجملة أننا نعلم أن الكاتب الذي يكتب الرسائل في أعلى طبقات الفصاحة إذا عدل عنها إلى الشعر ، ربما لم يمكنه أن يأتي به في أعلى طبقات الفصاحة ، وكذلك الشاعر المفلق ربما أمكنه في الشعر أن يرتقي إلى طبقات الفصاحة ، فإذا أخذ يكتب الرسائل هبط عن مرتقاه .

وعلم أن هذا الخطيب المصقع ، أو المحاور الفصيح ، قد يعدل الواحد منهما عما هو نهاية فيه إلى غيره ، فلا يمكنه بلوغ النهاية فيه .
فوضح بما ذكرنا أن العلم بإيقاع الفصاحة في نظم مخصوص ، علم ثالث غير العلم بالنظم ، والعلم بالفصاحة .

فلم يمتنع أن يتعذر ما ذكرنا ، لفقد ذلك العلم . وهذه العلوم هي التي يعبر عنها بالطبع ، فيقال: فلان مطبوع في كذا ، غير مطبوع في كذا . والمرجع به إلى العلوم التي ذكرناها .

يكشف ذلك أننا نعرف من حال الخليل والأصمعي ، ومن جرى مجراها ، أنهم كانوا يعرفون الفصاحة ولم تتعذر عليهم . وكانوا يعرفون وزن الشعر ولم يكن يتعذر . ومع هذا نعلم أن واحدا منهم لم يكن يمكنه أن يأتي بمثل أشعار امرئ القيس ، والنابعة ، والأعشى ، ومن دونهم من فحول الشعراء ، وليس السبب فيه إلا ما ذكرناه ، ولهذا تعد من يتفاحص (١) في كثير من أجناس النظم إذا طلب نظم القرءان ، سقط

(١) يعني: يدعى الفصاحة ويتناولها .

دون غرضه ، وهبط دون مرتقاه ، وليس ذلك إلا أنه يفقد العلم الذي معه يصح إيقاع الفصاحة في هذا النظم المخصوص .

فإن قيل: ما تنكرون على من قال لكم: إذا كان هذا النظم لم يكن عُرفَ قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فما أنكرتم أن يكون معجزا على الانفراد ، لأنه بالاثنيان به يكون ناقضا للعادة ؟

قيل له: ليس معنى قولنا في المعجز: إنه ناقض للعادة ، أنه أتى به من غير أن كان مثله قبل ذلك الوقت ، لأن السبق إلى الشيء لا يوجب كونه معجزا . ألا ترى أن كثيرا من الصناعات قد ابتدئت ، ووقع السبق إليها من أقوام ، ولا يصح ادعاء المعجز في شيء [منها] .

وإنما نريد بقولنا: إنه ناقض للعادة ، أن مثله يتعذر على جميع البشر . والعادة المنقوضة استمرار الحال في تعذره على ما قلنا .

فأما قول من يقول: إن الاعجاز في الصرف في جملة القراءان ، فهو عندي بعيد جدا ، لأن الصرف عن الشيء يمكن أن يُدَّعا ، إذا عُلِمَ أنه مقدور عليه ، غير متعذر وجود مثله ، ممن ادعا أنه مصروف عنه .

وليس هاهنا ما يبين أن الاثنيان يمثل القراءان كان ممكنا للعرب غير متعذر عليهم ، بل قد ذهبنا على خلاف ذلك ، فبان سقوط من ادعاه

وأبضا القول بذلك يؤدي إلى أن يُعرف الفرق بين ما يتعذر على الناس ، وبين ما لا يتعذر ، لأنه لو جاز لهم أن يقولوا: إن العرب صُرفوا عن الاثنيان يمثل القراءان ، وإن لم يثبت نأيتهم منهم ، لجاز أن

يقال: إن الناس صُرفوا عن فعل الأجسام والألوان والحياة والقدرة ، وإن لم يثبت أن شيئاً منه متأت منهم ، وهذا واضح السقوط . وكذلك القول في الصرف عن القرآن .

وأما سؤال مَنْ يسأل من أهل هذه المقالة ، فيقول: إذا كان الإنسان قادراً على أن يقول: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ [الغائبة: ٢] ويتأتى منه أن يقول: ﴿ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢) ﴾ [الغائبة] ، وغير متعذر عليه أن يأتي على جميع القراءان ، فما الذي يمنعه عن الاتيان بمثله؟! ومتى يحصل التعذر ، أعند أول كلمة ، أو عند الثانية ، أو الثالثة ، أو ما بعدها؟! وذلك مما لا يصح ، فثبت أن الاعجاز هو الصرف . فإنه من ركيك السؤال ، لأننا قد بينا فيما تقدم أن إنشاء الخطبة ، أو الشعر ، أو الرسالة ، أو نظم القراءان ، في أعلى طبقات الفصاحة ، يحتاج إلى علم زائد على العلم بالنظم والفصاحة ، وذلك العلم الزائد هو الذي يعبر عنه بالطبع ، فلا وجه لهذا السؤال .

على أنا نوضح سقوطه ، بأن نقول لهذا السائل: أليس قد علمت أن كل أحد ممن يعرف لغة العرب يمكنه أن يقول: « فإنك » ، ويمكنه أن يقول: « كالليل » ، ويمكنه أن يقول: « الذي » ، ولا يتعذر عليه أن يقول: « هو مدركي » ، ويتأتى منه أن يقول: « وإن خلت » ، ويتأتى منه أن يقول: « أن المتأى » ، ولا يتعذر عليه أن يقول: « عنك واسع »

أفترى أن كل من يعرف لغة العرب ، يمكنه أن يأتي بمثل قول

النابعة:

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المتأى عنك أوسع^(١)
 فيقال له: متى يعصل المتعذر عليه عند أول لفظة ، أو عند الثانية ،
 أو عند الثالثة ، أو بعدها ؟! ثم يلزم ذلك في جميع أشعار العرب
 وخطبهم ، وهذا فساد أظهر من أن يحتاج إلى الاطناب ، ولا بد لهذا
 السائل من الرجوع إلى ما تقدم من جوابنا .
 ولهذا قالوا: إن الشاعر المفلق: هو الذي ترمي^(٢) قريحته بالبيت بعد
 البيت .

والمتوسط: من يأتي بالمصراع بعد المصراع .

والمتكلف: من يأتي بالكلمة بعد الكلمة ، حتى يؤلفها شعرا .

وليس العاقل بين الشاعر الأول والثاني أو الثالث إلا العلوم التي
 أشرنا إليها ، المعبر عنها بالطبع ، وهكذا أحوال الخطباء والمرسلين ،
 منهم^(٣) من يستجيب طبعه إلى أن يأتي بالفصول بعد الفصول ،
 والأسجاع بعد الأسجاع ، يكاد يتسلسل عليه ماء العذوبة ، ويبعد عن
 التكلف والتعسف ، ومنهم من يؤلف الكلمة إلى الكلمة ، والسجع إلى

(١) البيت للنابعة الديباني ، انظر ديوانه .

(٢) في المخطوط: يرمي . ولعل الصواب ما أثبت .

(٣) في المخطوط: عنهم منهم . والصواب ما أثبت .

السجع ، متعمدا أن تنادي على نفسها بأنها متكلفة متعسفة ، وليس الفاصل بينهم إلا الطبع .

وعلى أن الإعجاز لو كان من جهة الصرف ، لكان الصرف هو المعجز ، ولم يكن القرآن معجزا . وهذا خلاف ما يُعلم من دين المسلمين ، لأن المسلمين يجمعون على أن الله عز وجل جعل القرآن معجزا لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم .

ويدل على ما قلناه أيضا ، من كون القرآن معجزا في نفسه ، ما حكى الله عز وجل حيث يقول: ﴿ ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ (٢٤) ﴾ [المدنر] .

وما ذكر من اجتماع أبي جهل ، وعتبة بن ربيعة ، في ملأ من فريش يتعجبون من القرآن حين قالوا: نحتاج إلى رجل يعرف الشعر ، ويعرف كلام الكهنة .

فقال عتبة: أنا لذلك ، ومضى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فتلا عليه قول الله عز وجل: ﴿ حم (١) تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) ﴾ [فصلت] ، حتى مر في السورة وانتهى إلى قوله: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) ﴾ [فصلت] ، فقام مرعوبا مدهوشا .

وقال: سمعت الشعر ، وسمعت كلام الكهنة ، وما هذا شيئا من ذلك " (١) ، وإلى سائر ما ذكر من غيرهم في أمر القرآن ، فلو كان

القرعان أمرا لا يتعذر مثله على العرب وإنما صرفوا ، كان لا يتعجب منه المتعجب ، ولا يخار فيه الخائر ، وإنما كان يكون التعجب والحيرة في صرفهم .

ألا ترى أن نبياً لو قال: معجزتي أن أكلمكم اليوم إلى المساء بما تكرهون ، فلا يمكن أحد " منكم أن يجيبني ، لأنكم تصرفون عنه ، كان الاعجاز في صرفهم هو الذي يكون أعجوبة .

وقد يخار من يخار دون مخاطبته المعهودة لهم ، كذلك يجب أن يكون حال القراعان والصرف على أوضاعهم لو كانت صحيحة ، وفي جري الأحوال على خلاف ذلك دلالة على فساد قولهم .

فأما السور القصار ، فليس يبعد عندي أن يقال: إنهم صرفوا عن الاتيان بمثلها ، إذ ليس يظهر لنا في نظمها وفصاحتها ما يمكن أن نقول: إن الاعجاز تعلق " فيه ، وهذا فيه نظر . والله أسأل حسن التوفيق .

ونحن نبين الآن فصاحة القراعان وشرف موقعه ، ومصادفة نظمه أعلى " طبقات الفصاحة ، إذ به يتم ما اعتمدناه وبنينا كلامنا عليه . والله الموفق والمعين .

هذا ولست أطمع في أن أذكر جميع مزاياه وعجائبه ، وما اختص به من دقائق المعاني ، وعلو رتبته في الفصاحة ، ومباينته عامة كلام

(١) في المخطوط: أحدا . والصواب ما أثبت .

(٢) في المخطوط: يعلق . ولعل الصواب ما أثبت .

(٣) في المخطوط: على . ولعل الصواب ما أثبت .

العرب ، مما يوجب شرفه ، ويدل على بلوغه ذروة البلاغة ، وغارب (١)
 الفصاحة ، التي أذكر [منها] يسرا من كثير ، وغيبضا من فيض ، على
 ما يحضرن في الحال ، منبها به على ما سواه ، مستعينا بالله عز وجل ،
 ومستمدا من فضله ، وراغبا إليه عز وجل أن يكتبه في صحفنا ، إذا
 الصحف نشرت ، وإذا السماء كشطت ، ويُبَيِّضُ وجوهنا يوم تبيض
 وجوه ، وتسود وجوه . حسبي الله وكفى .



(١) الغارب: من الدابة ما بين السنام إلى العنق ، مه: حبلك على غاربك .

الكلام في بيان أن القراءان في أعلى طبقات الفصاحة

اعلم أن هذا لا يتم إلا بأن نبين جُملاً من أقسام الفصاحة ، ثم نبين أن نظم القراءان مشتمل عليها ، ونبين مزايا القراءان فيها ، وتُلحق بذلك ما يكشف عن غرضنا في هذا الباب كشفاً بوضحه ، ولا يبقى معه لمتراد الحق شبهة ، بعون الله عز وجل ، وحسن توفيقه .

اعلم أن أصل الفصاحة هو الإبانة عن المعنى المقصود بحسن البيان . وهذا معنى ما حكى الله عز وجل عن موسى صلى الله عليه : ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ﴾ [القصر: ٣٤] ، أي: أحسن بيانا .

فمن أقسام الفصاحة أن يكون الكلام مركباً من اللغات الفاشية في العرب ، التي لم يسترد لها أحد منهم ، نحو « عننة عَمِيم » ، و « كشكشة ربيعة » ، وذلك أن قوماً من عَمِيم تجعل الهمزة المفتوحة عينا ، وأنشد الخليل فيه:

وجيها موشك عن يصدع الكبدا "

أراد: أن يصدع .

وقوم من ربيعة يقولون للمرأة: عليش ، وإليش ، وبش . يريدون: عليك ، وإليك ، وبكِ . فيحملون الكاف شيئا ، وينشدون:

فعيناش عيناها وجيدش جيدها سوى أن عظم الساق منش دقيق ")

(١) لم ألق عليه .

(٢) يريد:

قال الخليل: مَنْ ترك عننة نعيم ، وكشكشة ربيعة ، فهو من
الفصحاء ^(١) .

ومن ذلك ما حكى عن قوم من العرب أنهم يكسرون النون ، التي
تدخل على الفعل المستقبل فيقول: نذهب ^(٢) ، ونخرج .

ومن ذلك جر الاسم لمجاورة المجرور ، وإن لم يكن ذلك حقه ،
كقولهم: جحرُ ضبٍ حربٍ — ولذلك ذهب نُحاة البصرة إلى أنه لا
يجوز أن يتأول قول الله عز وجل: ﴿ وَاسْتَحُوا بُرُوءَ سِبْكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾
[المائدة: ٦] ، إذا قرئ بجر اللام ، فيقال: إن ذلك لمجاورة المجرور .

فأصل الفصاحة أن يسلم الكلام من ذلك وأشباهه ، وقد سَلِمَ
كل القراء من أوله إلى آخره . فهذا باب من الفصاحة .

ولهذا قرأ أبو عمر: ﴿ إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ ﴾ [مريم: ٦٣] ^(٣) ، ولم
يتأوله على لغة من يجعل المنصوب للألف ، فيقول: « خذ رجلاها ^(٤)
واخلع نعلها » .

ومثل ذلك:

إِنْ أَبَاهَا وَأَبَا أَبَاهَا قد بلغا في المجد غايتها ^(٥)

مبياك عيها وحيدك جيدها سوى أن عظم الساق ملك دفين
والبيت لم أقف عليه .

(١) في المخطوط: فهم الفصحاء . ولعل الصواب ما أثبت .

(٢) في المخطوط: ونذهب . والصواب ما أثبت .

(٣) لمط الآية هكذا: ﴿ قَالُوا إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ ﴾ .

(٤) في المخطوط: حذر حلاها . ولعلها مصحفة ، والصواب ما أثبت .

ومن " قرأ بالألف من حملة على أن " أن " بمعنى " نعم " ، وكره تأويله على الوجه الأول لما قلناه .

ومن أقسام الفصاحة: أن يكون الكلام مولفا من لغات ترتفع عن المتبدل السوقي ، وتنحط عن المستفل الحوشي " . ولهذا نجد أشعار الفصحاء المجيدين ، نحو امرئ القيس ، والنابعة ، وزهير ، والأعشى ، جارية على هذه الطريقة ، لا يكاد يوجد فيها الحوشي المستفل ، إلا أن تتفق ندرا ، وإنما يكثر ذلك في كلام الأجلال من العرب والمتكلمين ، نحو الشماخ ، ورؤية ، ومن نحو نحوهما .

فأما السوقي " المتبدل ، فقل ما يتفق في كلام أهل البادية ، وإنما يكثر ذلك في كلام المولدين " وأشعارهم ، والقراءان من أوله إلى آخره مؤلف من النمط المختار في هذا الباب .

فهذان القسمان من الفصاحة قد استمرا في جميع القراءان بحمد الله ومنه .

(١) البيت لامين الوردى . وقوله بيت واحد فقط .

روحة محمد الدين والديها في أحد عرص المهد أشبهما
انظر ديوانه .

(٢) في المخطوط: وفيمن . ولعل الصواب ما أثبت .

(٣) المستفل: الهابط ، والحوشي: العاصم من الكلام .

(٤) السوقي: نسبة إلى السوقة ، وهي الرعية ، سميت بذلك لأن الملوك تسوقها فتساق .

(٥) المولدون: المولودون بين العرب وليسوا بعرب .

ومن أقسام الفصاحة: جزالة اللفظ ، وهي موجودة في جلّ القراء وجمهوره ، وإن لم يوجد في جميعه - كما قلناه - في القسمين الأولين ، لأنه في قوة الطويل الذي يصرف على معاني مختلفة ، ومقاصد متباينة ، وأغراض متميزة ، كالأوامر والنواهي ، والزواجر والمواظ ، والوعد والوعيد ، والقصص والمثل ، أن يكون جميعه مؤلفا من ألفاظ جزلة ، لأن جزالته تكون لتأليفه من حروف مخصوصة ، والكلام مبني من الأسماء والأفعال والحروف ، وفي الكثير من الأسماء والأفعال والحروف ما لم يؤلف من الحروف التي تقتضي الجزالة ، والفصيح إذا صار إلى تلك الأسماء والأفعال والحروف ، فلا بد من إيرادها على ما هي عليه ، إذا كان متكلمها بكلام العرب .

ولهذا لا يمكن في شيء من أشعار فحول الشعراء ، وكلام البلغاء ، أن يكون من أوله إلى آخره مؤلفا من ألفاظ جزلة .

فأما العذوبة فهي أمكن ، لأنها تكون بالتلاؤم ، وأن لا تكون الكلمة مؤلفة من حروف متنافرة ، وذلك أمكن من الجزالة ، وقد يكون ذلك بتلاؤم الحركات والسكنات ، كما يكون بتلاؤم الحروف ، وأما مواضعها من القراءان فأكثر من أن يأتي عليها الإحصاء والعد ، ونحن نذكر منها مواضع ننبه بها على ما سواها .

من ذلك قوله عز وجل: ﴿ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (١٧) ﴿ البقرة ﴾ .

وقوله: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مِشْوَاهٌ فِيهِ
وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ [البقرة: ٢٠] ، وفي هذه الآية من وجوه
الفصاحة سوى الجزالة ما نبينه في موضعه .

وكقوله: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مُّغْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا
رَفْتَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧] .

وكقوله عز وجل: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩] ،
وقوله: ﴿وَالْحُرْمَاتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة: ١٩٤] .

وقوله عز وجل: ﴿فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١٩٣)
﴿[البقرة] ، وقول عز وجل: ﴿وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ
وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ (١٣٧) ﴿[الأعراف] ، وقوله: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي
إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى
اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَحْهَلُونَ﴾ (١٣٨) ﴿[الأعراف]

وكقوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٩٩)
﴿[الأعراف] .

وقوله عز وجل: ﴿فَانسَلَخْ مِنْهَا فَاتَّبِعُهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْمَقَابِلِ﴾ (١٧٥) ﴿[الأعراف] .

وكقوله عز وجل: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ
حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (١) ﴿[هود] ، وهذه السورة أكثر ألفاظها من ألفاظ
الجزالة مع العذوبة . وفيها: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ

أَقْلَمِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴿[مود: ٤٤] ، وفيها: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَرَى نَفْصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [مود] .

ومن ذلك عامة سورة القصص وهو من الفصاحة العجيبة ، لأن أول هذه السورة في اقتصاص أحوال موسى صلى الله عليه من مولده إلى بيعته إلى قصده فرعون ، مبلغاً ما أرسل به إليه ، وذلك مما يصعب جدا في اقتصاص أحوال بعينها ، لأنه لا بد من ضعف يعرض فيما جرى مجراه ، فإذا أردت أن تتحقق ذلك ، فتأمل كلام الفصحاء إذا قصدوا هذا القصد .

ومن ذلك عامة ﴿حم﴾ السجدة . تأملها تجدها على ما قلناه .
ومن ذلك: ﴿وَالْتَحْمُ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢)﴾ [الحم] ، وما بعدها من الآيات .

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١)﴾ [النمل] .

ومن ذلك في السور القصار قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥)﴾ [الفيل] .

وقوله عز وجل: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُعِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَأْتِرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوْسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (٥)﴾ [العاديات] .

وتتبع هذا مما يتعذر ، فإن أكثر القراء على هذا ، ونحن إذا ينسأ سائر أقسام الفصاحة ننبه ^(١) في أثنائها أيضا على ما فيها من الجزالة ، وإن هذا باب عام فيه . وإن كان بعض الألفاظ يزيد على بعض في ^(٢) هذا المعنى ، أعني: في الجزالة والعذوبة .

ومن أقسام الفصاحة: الاستعارات والتشبيهات ، وإحداها قريبة من الأخرى ، وإن كان بينهما فصل ، وذلك أن التشبيه هو أن يذكر الشيء باسمه ، ويشبهه بغيره ، كقولك: زيد مثل الأسد شجاعة ، وكالربيع جودا ، وكالبدر حسنا .

والاستعارة أن تنقل إليه اسم الشيء المشبه به ، وذلك كقولك: حمار ، إذا وصفته بالبلادة ، أو كلب ، إذا وصفته بالخساسة . والاستعارات والتشبيهات في القراءان كثيرة حسنة ، واقعة موقعها لحسنها ، وشرف موضعها .

ونحن نذكر منها جملا ننبه بها على ما سواها ، لأن استيفاءها مما يطول ويتعذر .

(١) في المخطوط: نبيه . ولعل الصواب ما أثبت .

(٢) في المخطوط: وي . والصواب ما أثبت .

فمن ذلك قوله عز وجل: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (١٧) [البقرة] ، فشبه المنافقين الذين ^(١) أظهروا الإيمان ، وانتفعوا به بين المسلمين ، بمن استوقد نارا ، حتى أضاءت ما حوله ، وشبه أحوالهم عند الموت وبعد الموت ، في أنهم لا ينتفعون بما أظهرود من الإيمان ، ثم ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ حتى بقوا في ﴿ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (١٧) ، ثم استعار لهم عز وجل اسم الأصم والأبكم ، وضم الأعمى فقال: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (١٨) [البقرة] ، فهم في إعراضهم عن استماع الحق بمثلة الصم الذين لا يسمعون ، وفي تركهم النطق بالحق - على ما أمرهم الله عز وجل ودعاهم إليه - بمثلة الخرس الذين لا ينطقون .

ثم قال عز وجل: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ . . .﴾ [البقرة: ١٩] إلى آخر الآية ، فشبههم في حرقهم وتبلدهم ، واضطراب أمورهم ، وخرج صدورهم ، بمن يكون في ظلمات ورعد وبرق ، ثم ذكر هذا المعنى بقوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَرِذْ أَنْ يُضْلَهُ يُجْعَلْ صَدْرُهُ ضَيْفًا حَرَجًا كَأَنَّما يصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] ، ثم زاد في وصف أحوالهم ، فقال: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مِشْوًا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ﴾ [البقرة: ٢٠] ، ثم رد عز وجل هذا المعنى - أعني تأثير البرق في الأبصار - في غير

(١) في المخطوط: الذي . والصواب ما أثبت .

هذه الألفاظ ، فقال: ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) ﴾ [النور] ، وهذا من الفصاحة العجيبة والبلاغة التامة ، أن يرد معنى واحد^(١) بألفاظ مختلفة تجمعها الفصاحة .

ثم عاد عز وجل إلى ذكر من بدأ بذكرهم ، فقال: ﴿ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) ﴾ [البقرة] ، وهذا قسم من الفصاحة ، وهو أن يجري ذكر شيء ثم يتجاوز إلى ذكر غيره ، ثم يعطفه عليه ويعاد ذكره - أعني المذكور أولاً - مثل قول جرير:

مَنْ كَانَ الْخِيَامُ بِذِي طُلُوحٍ سَقَيْتُ الْغَيْثَ أَيْتَهَا الْخِيَامُ^(٢)
فجمعت هذه الآية أنواع الفصاحة ، منها الجزالة في اللفظ ، مع التشبيهات والاستعارة الواقعة ، والعطف آخر الكلام على أوله .

ومن الأمثال الحسنة والتشبيهات الواقعة ، ما ذكره عز وجل من قوله عز وجل: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَبْتَتْ مِّنْ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّثْقَالُ حَبَّةٍ . . . إلى قوله: يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦) ﴾ [البقرة]^(٣) ، فشبه عز وجل من أنفقوا

(١) في المخطوط: واحداً . ولعل الصواب ما أثبت .

(٢) البيت مطلع قصيدة مكونة من ثمانية وأربعين بيتاً ، لجرير . انظر ديوانه .

(٣) كمال الآيات: ﴿ . . . الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتِمُّونَ مَسَارِعَهُمْ وَمَا أَدَّى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) قَوْلٌ مُّثَرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَى وَاللَّهُ عَزِيزٌ عَلِيمٌ (٢٦٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَطْلُوْا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُعْطِي مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَنَصَلَّتْهُ كَفْئَتُهُ كَفَتْ لَهُ صَفْوَاتُ عَلَيْهِ نَزَاتٍ فَاصَابَهُ وَابِلٌ فَزَكَاةٌ صُلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّثْلَ مَا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ انْتِعَاءً مَّرَضَاتٍ اللَّهُ وَتَنَبَّأْنَا مَنْ أَنفُسِهِمْ كَفَتْ حَتَّىٰ بَرَزُوا أَصَابَهَا

ابتغاء لوجه الله ، وطلباً لثوابه الرادع ^(١) ، بما يحصل لهم من الريح بحبة ،
ويعن له جنة بربوة ، آتت أكلها ضعفين .

وشبه من أحبط ثواب انفاقه بطلب الرياء والسمعة ، بصفوان عليه
تراب إذا أصابه الواهب ، ويعن له جنة وله ذرية ضعفاء ، فأصابها إعصار
فيه نار فاحترقت . وكلها تشبيهات وأمثال ، واقعة بالفاظ جزلة .

ومن الاستعارة الحسنة قوله عز وجل: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ
الدُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤] ، وقوله: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ
اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥] ، فجمعت الآية بين الاستعارة ^(٢)
الحسنة ، والجزالة البالغة ، والعذوبة اللطيفة . وأخذ هذا المعنى الكمية
فقال:

خفضت لهم مني جناحي مودة إلى كنف عطفاه أهل ومرحب ^(٣)
فأخذ اللفظ والمعنى ، ولكن لم يرزق تلك العذوبة الصافية ،
وذلك الماء المتسلسل ، على أن هذه اللفظة في غرة هذا البيت مع ما بها
، والباقي كما ترى ^(٤) .

وَابِلٌ قَاتَتْ أَكْلَهَا صِغْفِيرَيْنِ فَإِنْ لَمْ يَنْصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) أَيُّوْذُ أَخَذَكُمْ أَنْ
تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ تُحِيلٍ وَأَعْنَابٍ تُخْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَانُهُ الْكَبِيرُ وَكَهُ
ذُرِّيَّةٌ ضَعْفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ . . . ﴿

(١) كذا في المخطوط .

(٢) في المخطوط: فجمع بين الآية الاستعارة . ولعل الصواب ما أثبت .

(٣) البيت من قصيدة للكاتب الأسدي ، مطلعها:

طربت وما شوقا إلى السبب أطرب

ومن الاستعارة الحسنة العذبة مع الجزالة قوله عز وجل: ﴿وَاشْتَغَلَ
الرَّأْسُ شَيْتًا﴾ [اسم: ٤] ، فاستعار للبياض اسم الاشتغال ، مصبوبا في
قالبه ، مقصورا عليه ، وهذا من الفصاحة البالغة .

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . . .
﴿[النور: ٣٥] إلى آخر الآية ، فسمى نفسه باسم: النور ، لَمَّا كَانَ عز
وجل هو خالق النور ومنشؤه ، مع ما فيه من النفع العظيم لأهل
السموات والأرض ، وهذا من الاستعارة الحسنة ، ومن تسمية الفاعل
بفعله . ومنه قول الشاعر:

ترنح ما رتعت حتى إذا اذكرت فإغماهي إقبال وإدبار^(١)
وعلى هذا تأول مَنْ قرأ: إنه عَمَلٌ غير صالح - برفع اللام وفتح
الميم - ثم شبه نوره بالمصباح ، فقال: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا
مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ [النور: ٣٥] ، ثم شبه الزجاج
بالكوكب ، فقال: ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ ، وهو أضوأ
الكواكب ، ثم عاد إلى ذكر المصباح ، وهذا يسمى الالتفات ، فقال:
﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ . . . إلى قوله: يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ
يَشَاءُ﴾ ، فعاد إلى ذكر النور ، وهذا أيضا مما يسمى: الالتفات ، وهو

(١) في المخطوط: يرى . ولعل الصواب ما أنت .

(٢) البت للحساء من فريدة ترني لما أحياها صحرا . ورد في المخطوط هكذا: تراعى إذا غفلت .

أن يجري ذكر شيء ثم يتحاوزه إلى غيره ، ثم يذكر ثانياً ، كما قال
حرير:

مَنْ كَانَ الْخِيَامَ بِذِي طُلُوحٍ سَقِيتَ الْغَيْثَ أَيْتَهَا الْخِيَامُ (١)
فجمعت هذه الآيات وجوهاً من الفصاحة ، منها جزالة اللفظ ،
ومنها الاستعارة ، ومنها تشبيه بعد تشبيه ، ومنها الالتفات بعد
الالتفات .

ومن التشبيه الواقع قوله عز وجل بعد هذه الآية: ﴿ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ
يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوقَافَهُ حِسَابَهُ ﴾ [النور: ٣٩] . لما كانت
أعمالهم محبطة لا نفع فيها في الآخرة ، شبهها بالسراب الذي لا نفع فيه
، ولأنه مما يظن الناظر أنه ماء ، وكذلك الكافر لما يظن أن له نفعاً في
عمله ، شبهه أيضاً به ، فهذان وجهان من التشبيه . وفيه تشبيه ثالث
وهو انكشاف حال كل واحد منهما عن أنه لا نفع فيه لراجيه . وفيه
تشبيه آخر وهو تشبيه الكافر بالظمآن ، وتشبيه ظنه بظنه ، وتشبيه
خيبته بخيبته عند شدة حاجته إليه ، وقوة تعويله عليه ، فقد جمعت
الآية هذه الوجوه من التشبيهات مع جزالة اللفظ ، وحسن المعنى ، وقد
عُدَّ من محاسن امرئ القيس أنه جمع بين تشبيهين في بيت واحد ، حيث
يقول:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا لَدَى وَكْرَهَا الْعَنَابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي

ومن التشبيه الحسن في هذا المعنى قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ
أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨] .
ومن الاستعارة في هذا المعنى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ
فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّتُورًا﴾ (٢٣) [الفرقان] ، فعبر عن فعله عز وجل بالقوم
، وعن أعمالهم بالهباء المتثور .

ومن التشبيه الحسن قوله عز وجل: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ
مُحَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا﴾ (١٩) [الإنسان] .
ومن التشبيه قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ
الْبَلْبَلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس: ٢٧] .
ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿كَأَنَّهُمْ بُيُوتٌ مَّرْصُومَةٌ﴾ (٤) [الصفا] .

ومنه قوله عز وجل: ﴿فَكَأَنَّمَا غَرَّتْ مِنَ السَّمَاءِ فَتُخَطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ
تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (٣١) [الحج] .
ومن الاستعارة قوله عز وجل: ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَاتُوا
حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] ، فسماهن: حرثا ، لأن النسل يخرج
منهن ، كما يخرج الزرع من الأرض .

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿وَلَسْتُمْ بِأَعْيُنِهِ إِلَّا أَنْ تُعْضُوا فِيهِ﴾
[البقرة: ٢٦٧] أي تترخصوا ، فسمى الترخص: إغماضا ، لأن
الإنسان يصرف بصره عما لا يحب أن يراه ، ويقف على حقيقته .

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿كَلِمًا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَافًا
اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤] ، أراد: كلما أهاجوا شرا .

وأمثال هذا في القرآن أكثر من أن يعدّ ويحصى ^(١) ، وهي عادة العرب في مخاطباتها ومحاوراتها ، وأشعارها وخطبها ، ولم نطول الكتاب بذكر ما ورد عنهم في هذا الباب ، لشهرته واستفاضته .

ومن أقسام الفصاحة: الإيجاز .

وذلك ينقسم إلى قسمين ، قد يكون بتقليل الحروف مع استيفاء المعنى ، وقد يكون بالحذف ، والحذف على أنحاء شتى ، ونحن نبينه على جميع ذلك بذكر بعضه ، إذ استيفاء جميعه مما يطول .

فمن الإيجاز بتقليل الحروف ، قوله عز وجل: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٩١] ، ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالِ أَرْسَاهَا (٣٢)﴾ [التارعات] ، قلّل الحروف في هذا الموضع ، لما أراد الإيجاز ، وبسط حيث أراد البسط في هذا المعنى ، فقال: ﴿أَنَا صَبَّيْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَبْيَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَبَبْنَا وَقَصَبْنَا (٢٨) وَزَيَّيْنَاهَا وَتَخَلَّا (٢٩) وَحَدَّائِقُ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١)﴾ [عسر] ، وقال أيضا: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٤)﴾ [النحل] .

فانظر - رحمك الله - إلى شرف هذا الكلام ، فإنه أوجز هذا

الإيجاز ، وذكر للإنسان حالتين:

(١) في المحطوط: تعدّ وتحصى . ولعل الصواب ما أنت .

إحدهما: أضعف الحالات .

والأخرى: أقواها .

ثم نبه على ما بينهما . فجمع في الآية وجهين من الإيجاز:

أحدهما: تقليل الحروف .

والثاني: حذف الوسائط بين الحالتين ، مع جزالة اللفظ ، وحسن

المعنى ، ثم [لنا] أراد عز وجل بسط هذا المعنى قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا

الانسان من سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣)

ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا

فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ

(١٤) ﴿[المؤمن] .

وهذا باب كبير من الفصاحة ، لأن البليغ هو الذي يسط الكلام

إذا شاء بسطه من غير حطل ، ويورخي عنان الخطاب ، ويتمطى ظهر

الاطناب ، ويوجز إذا شاء الإيجاز من غير تحيف للمعنى .

وحكي عن بعض الفصحاء أنه وصف كاتباً بالبلاغة ، فقال: »

إن أخذ طوباراً ملاء (١) ، وإن أخذ شيراً كفاه ، يريد: أنه كان يسط

إذا شاء ، ويوجز إذا شاء .

ومن هذا الباب قوله عز وجل: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ

(٤١) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرِّمِيمِ (٤٢)﴾ [الذاريات] ،

(١) يعني: ملاء ، وإنما حذفت الهزرة تسهيلاً على لغة هل المحازر ، وليستفهم السمع.

والطوبار: الورق الطويل الذي بطوى .

فأراد عز وجل هذا الإيجاز ، ثم لما أراد أن يزيد هذه الصفة يسيرا مع البسط ، قال: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَثُؤُنِي ﴾ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) تَفْرِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَغْجَارُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ (٢٠) ﴿ [الفرار] .

ثم لما أراد أن يزيد على ذلك في البسط ، قال عز من قائل: ﴿ فَأَهْلِكُوا بَرِيحَ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَغْجَارُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨) ﴿ [الحاقة] .

ثم لما أراد عز وجل البسط التام ، بسط في السورة التي يذكر فيها هودا صلى الله عليه ، والسورة التي يذكر فيها الأعراف ، والسورة التي يذكر فيها الشعراء ، وعلى هذا أوجز ذكر ثمود ، فقال عز وجل: ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ (د) ﴿ [الحاقة] ، ثم بسط ذلك في سائر المواضع ، ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣] . فانظر - رحمك الله - إلى هذا الإيجاز مع استيفاء المعنى ، تعلم أنه أبلغ ما يمكن في بابه .

ثم زاد عز وجل بسطه يسيرا ، فقال: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَمِنَ الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الحانية: ١٣] . وقال أيضا: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [القصص: ٢٠] ، ثم بسط عز وجل ذكر الآية ونعمه في السورة التي يذكر فيها النحل من قوله: ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (٥) . . .

إلى قوله: وَيَبَالِغُهُمْ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) ﴿[النحل] ٣﴾ ، ثم من قوله: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا...﴾ إلى قوله: أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَيَنْفَعَتِ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢) ﴿[النحل] ٣﴾ ، ومن قوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا

(١) كمال الآيات: ﴿... وَلَكُمْ فِيهَا خَمَلٌ حِينَ تُرْزَقُونَ وَحِينَ تُسْرَخُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أُمَّهَاتُكُمْ بِنِي تِلْكَ لَمْ تَكُونُوا بِأَلَمِهِ إِلَّا بِسِقِ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ (٧) وَالْحَبَلُ وَالْحَمِيمُ لِرَبِّكُمَا وَرَبِّنَا وَتَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى اللَّهِ قَسَدَ السَّبِيلِ وَمِنْهَا حَافِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَذَاكُمْ أَخْمَعِينَ (٩) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِمَّا شَرَبْتُمْ فِيهِ تُصْبُونَ (١٠) بَشِّرْ لَكُمْ بِهِ الرَّزْقَ وَالرَّيْبُونَ وَالْحَبْلُ وَالْأَعْتَابُ وَمَنْ كُلُّ الشَّرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَشَرَّ لَكُمْ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالْخُومُ مُسْتَحَرَاتٌ بَأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا دَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلَفًا لِقَوْمٍ أَفَلَا يَرَوْنَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً ثَلَاثُونَهَا وَتَرَى الْقُلُوكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَنظُرُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِتُنْكِرُوا (١٤) وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَتَأْتَا وَتَسِيلَ لِقُلُوبِكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ...﴾

(٢) كمال الآيات: ﴿... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥) وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِيُفَكِّرَ بِكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ تَبَرٍّ قَرَتِ وَأَدَمٌ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِنْ نِعَمَاتِ السَّبْعِ وَالْأَعْتَابُ تَحْدِثُونَ مِنْ سَكْرًا وَرَرْقًا خَسًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧) وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ امْجُدِي مِنَ الْعِبَالِ تَبْوَاتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ النَّعْمَاتِ فَاسْلُكِي سَبِيلَ رَبِّكِ دَلِيلًا يُخْرِجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلَفٌ لِقَوْمٍ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٦٩) وَفِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٧٠) وَاللَّهُ فَضْلُكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُصْبِ لِمَنْ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠) وَاللَّهُ فَضْلُكُمْ عَلَى نَعْصِي فِي الرِّزْقِ فَمَا الْبَدِينُ فَضَلُّوا بِرَأْدِي رَزَقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِي سَوَاءٍ أَمِيقَةً اللَّهُ يَخْتَدُونَ (٧١) وَاللَّهُ خَفَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَخَفَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَخَفَقَةٍ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ...﴾

... إلى قوله: كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴿البقرة﴾

١١ ، وعامة هذه السورة في ذكر نعم الله عز وجل .

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ اذْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٣٤) ﴿ افصلت ﴾ ، وقوله ١٢: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (١٩٩) ﴿ الاعراف ﴾ ، فدلَّ عز وجل بهاتين الآيتين على حسن العشرة بأوجز اللفظ ، ثم ضبط ذلك في السورة التي يذكر فيها الحجرات أتم بسط .

ومن الاختصار الحسن قوله عز وجل: ﴿ يَحْسِبُونَ كُلَّ صَبِيحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ [النافقون: ٤] ، وقد طلب هذا المعنى بعض الشعراء فقال:

ولو ألما عصفورة لحسبتها مسومة تدعو عبيدا وأرغما ١٣
وقال آخر:

ما زلت تحسب كل شيء بعدهم خيلا تكرر عليكم ورجالا ١٤
وقال آخر:

(١) كمال الآيات: ﴿... وَخَلَقَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَلَمْ نَرْوِا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي حَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) وَاللَّهُ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَفُونَ إِلَيْهَا وَإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْآيَاتَ فَقُلْ يُحِبُّهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَنْ يُحِبَّ اللَّهَ فَقَدْ حَبَلَ خَلْقَ كُلِّ شَيْءٍ أَوْثَانًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٨٠) وَاللَّهُ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَفُونَ إِلَيْهَا وَإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْآيَاتَ فَقُلْ يُحِبُّهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَنْ يُحِبَّ اللَّهَ فَقَدْ حَبَلَ خَلْقَ كُلِّ شَيْءٍ أَوْثَانًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٨١)﴾

(٢) في المخطوط: قوله . والصواب ما أنبت .

(٣) لم أقف عليه .

(٤) البيت للجرير ، ورد في ديوانه هكذا: خيلا تشد ...

أراني الخوف عدّتهم ألوفاً وكان القوم حمسا في ثلاث^(١)
 فلم يتفق لهم هذا الاختصار ولا هذه العذوبة .
 وسمعت بعض أهل الأدب يحكي أن شاعرين كانا يتهاجيان فقال
 أحدهما في صاحبه:

يغيب كل صيحة عليه

فكاع^(٢) الآخر عنه ، وضعفت نفسه إعجابا بهذا البيت ، إحساسا
 من نفسه بالعجز عن مثله ، إلى أن عرف أنه أخذه من القراءن ، فتجراً
 عليه ، وعادت له قوته ، وأخذ في مهاجاته .
 ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ [البقرة:
 ١٧٩] ، وقد أخذ هذا بعضهم فقال: « وبعض القتل أحيا للجميع » .
 وقال غيره: « القتل أفل للقتل » . فلم يقع من ذلك موقع قوله: ﴿
 وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ ، وتنبّع هذا مما يطول .
 وأما القسم الثاني من الاختصار فهو الذي يكون بالحذف ، وذلك
 يتنوع أنواعا كثيرة .

فمن ذلك أن يحذف^(٣) المضاف ويقام المضاف إليه مقامه ، كقوله
 عز وجل: ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِمْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا
 لَصَادِقُونَ ﴾ (٨٢) [يس] ، أراد: أصحاب العمر ، وأهل القرية .

(١) لم أقف عليه .

(٢) كاع: هاب وجين .

(٣) في المخطوط: تحذف . ولعل الصواب ما أثبت .

وكقوله: ﴿إِذَا لَأَذْنُكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾
 [الإسراء: ٧٥] ، أي: ضعف عذاب الحياة ، وضعف عذاب الممات .
 وكقوله عز وجل: ﴿وَجُودَ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ
 (٢٣) ﴿[القيامة] ، ذُكِرَ عَنْ أَكْثَرِ الْمَفْسِّرِينَ أَنَّ الْمُرَادَ: إِلَى ثَوَابِ رَبِّهَا
 نَاطِرَةٌ ، فَحُذِفَ الثَّوَابُ .

وهذا مذهب للعرب مشهور ، وهو في القرآن كثير .
 وقد يكون بحذف اسم أو فعل أو جواب ، كقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾
 ﴿[الرعد: ٣١] ، وتقديره: لكان هذا القرآن ، فحذفه .
 وكقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا
 اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة] ، تقديره: لكان ذلك خيراً
 لهم ، فحذفه .

ومثله قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّا فَضَّلُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ
 ثَوَابٌ حَكِيمٌ﴾ (١٠) ﴿[النور] ، ومثل ذلك: ﴿أَمِنْ هُوَ قَانَتْ آتَاءَ اللَّيْلِ
 سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩] ، وتقديره:
 أيساويه من لا يكون كذلك؟! فحذفه .

ومثله في الشعر كثير ، فمن ذلك قول الشاعر:
 فأقسم لو شي أنانا رسوله سواك ولكن لم نجد لك مدفعا^(١)

(١) البيت من قصيدة لأمريئ القيس . ورد في ديوانه هكذا: وحذك لو شيء . . . انظر ديوانه

معناه: أردناه ولم نقبل منه .

ومثله قول الشاعر:

عصيت إليها القلب إنى لأمرها سميع فما أدري أرشد طلابها^(١)

معناه: فما أدري أرشد هو أم غي ؟ فحذف .

ومثله قول النابغة:

أزف الترحل غير أن ركبنا لما نزل برحالنا وكان قد^(٢)

يريد: كان قد زالت ، فحذف .

ومن ذلك أن يضمر أحد المذكورين ويظهر فعل الآخر لهما ،

وذلك كقوله عز وجل: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ [البقرة:

١٦] - إذا قرئ بكسر اللام - المراد: وأمسحوا الفسل بأرجلكم .

وكقوله عز وجل: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ (١٧)

بأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ (١٨) ﴿[الواقعة] ، ثم قال: ﴿وَفَاكِهَةٍ

مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمٍ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢١)﴾ [الواقعة] ، والمراد:

ويؤتون بفاكهة ولحم طير ، لأن الفاكهة واللحم لا يطاف بهما .

وكذلك تأويل من قرأ: ﴿وَحُورٌ عَيْنٌ (٢٢)﴾ [الواقعة] - بالجر

- تقديره: ويتزوجون بحور عين ، فحذف ذلك أجمع .

(١) البيت لأي دؤيب افدلي ، ورد في ديوانه هكذا:

عصاني إليها القلب إنى لأمره

(٢) البيت للنابغة الذبياني ، أنشده الأشموي في الشواهد رقم (٥) ، واس عقبل رقم (٢) .

ومنه قوله عز وجل: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ [سونس:
٧١] ، تقديره: وادعوا شركاءكم..

وورد مثله في الشعر:

علفتها تينا وماء بارداً حتى بدت همالة عيناها^(١)
أراد: سقيتها ماء بارداً ، فحذفه .

وقال الآخر:

إذا ما الغايات برزن يوماً وزحجن الحواجب والعيونا^(٢)
أراد: وكحلن العيونا ، لأن العيون لا تزحج .

وقال آخر:

ورأيت بعلك في السوغي متقلدا سيفاً ورمحاً^(٣)
والمراد: حاملاً رمحاً ، لأن الرمح لا يتقلد ، لكنه حذف المراد .
ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [الصافات] ،
والمراد: إلى حيث أمر ربي .

(١) البيت لذى الرمة ، ورد في ديوانه هكذا:

ما حططت الرجل عنها وارداً علفتها تينا وماء بارداً
انظر ديوانه . وهو بيت بنميم

(٢) انظر شرح التلخيص .

(٣) البيت لعبد الله بن الزبيري ، ورد في ديوانه هكذا:

بالببت زوجك قد عدا متقلداً سيفاً ورمحاً
انظر ديوانه . وهو بيت بنميم .

ومنه قوله: ﴿ نِلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالتَّهَارِ ﴾ [إس: ٣٣] والمراد: مكرهم بالليل والنهار .

ومنه قوله: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [آل عمران] ، فحذف .

ومن الحذف: إقامة الضمير مقام الذكر ، نحو قوله: ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ [ص: ٣٢] ، يعني: الشمس ، ولم يجر لها ذكر . وهذا رأي عامة المفسرين ، وإن كان بعضهم قال: إن المعنى: هو الصافنات الجياد (١) .

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ [النحل: ٦١] يعني: على الأرض ، ولم يجر لها قبل ذلك ذكر .

وكذلك قوله عز وجل: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرهَا ﴾ [فاطر: ٤٥] ، يعني: على ظهر الأرض .

ومنه قوله عز وجل: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) ﴾ [القدر] ، أراد به: القراءان ، من غير أن يكون جرى له ذكر .
ومثله قول الشاعر:

لعمرك ما يغني الشراء عن الفتي إذا حشرت يوما وضاق بها الصدر (٢)
يعني: النفس .

(١) ذكر ذلك أبو مسلم ، وعليه س عيسى . مجمع البيان للطبرسي ١١٣ : ٥ .

(٢) لم أقف عليه .

وكذلك قول لبيد:

حتى إذا ألفت بدا في كافر وأجن عورات النور ظلامها (١)
يعني: الشمس ، لقوله: ألفت بدا في كافر .

ومن الحذف قوله عز وجل: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) ﴾
[الصافات] ، يعني: ذكرنا حسنا ، وثناء جميلا .

ومن أقسام الفصاحة: التحنيس ، وهو أن يجمع بين كلمتين التقنا
من حروف متحانسة ، وذلك مثل قوله عز وجل ، حاكيا عن صاحبة
سليمان صلى الله عليه: ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤) ﴾
[النمل] .

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى ﴾ [يونس: ٢٦]

وكذلك قوله: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَاؤُوا السُّوْأَى ﴾ [الروم: ١] .
وقوله عز وجل حاكيا عن يعقوب صلى الله عليه: ﴿ يَا أَسْفَى
عَلَى يُوسُفَ ﴾ [يوسف: ٨٤] .

وكذلك قوله عز وجل: ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ
وَالْأَبْصَارُ (٣٧) ﴾ [البقرة] .

وكذلك قوله عز وجل: ﴿ فَسَيَرُّهُ لِيُرِيَّ (٧) ﴾ [الليل] .
وقوله: ﴿ أَنَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ ﴾ [التوبة: ٣٨] ، ولم يكسر
هذا الباب في القرآن لما نذكره ، وكذلك في أشعار المتقدمين ، ولا

المطبوعين من المتأخرين ، وإنما استكثر ذلك من المتأخرين من كان يتكلف الصنعة .

سمعت بعض أهل الأدب يقول: إن القليل من التحنيس يحسّن الكلام ، والاكتثار يسلب الكلام بمجته . قال: ومثله مثل الحال في الحسناء في أنه يزيد بها حسنا ، وإن كثرت الخيلان حتى تستوفي (١) على عامة جسدها أكسبتها الوحشة ، وسلبتها البهجة . وصدق فيما قال ، لأن الاستكثر والجمع بين الحروف المتجانسة يوجب للكلام ضربا من التنافر . ألا ترى إلى قول الأعشى:

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني . شاو مثل شلول شلشل شول (٢)
كيف يظهر عليه التنافر ؟

وكذلك قول الشاعر:

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر
فأما إذا وقع ذلك في الكلام لمعاً ، فإنه يزيد حسنا وبهجة ،
فلذلك - والله أعلم - وجد في القرعان قليلا ولم يكثر .

ومن أقسام الفصاحة ما يسميه أكثر أهل الصنعة: المطابق ، وهو إيراد لفظتين يفيد كل واحدة منهما ضد ما تفيد الأخرى ، نحو قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [مرد: ١١٤] ونحو قوله: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٦] ، وقوله

(١) في المخطوط: يستوفى . ولعل الصواب ما أثبت .

(٢) البيت من معلقة الأعشى .

عز وجل: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النحل: ٩٣] ، وقوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)﴾ [الإنفطار] ، وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٢٠) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر] ، وقوله: ﴿هَذَا عَذَابٌ قُرْآتٌ وَهَذَا مَلْعٌ أَجَاجٌ﴾ [الفرقان: ٥٣] ، وقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ [الحاقة: ١٩] ، وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ [الحاقة: ٢٥] ، وهذا النوع في القرآن كثير ، بحيث يكاد يتعذر إحصاؤه .

ولكننا قد نبهنا على الجميع بالجملة التي أوردناها ، وإنما كثر هذا في القرآن لأن كثرته لا توجب للكلام نبواً عن السمع ولا تنافرا ، كما يوجهه التحنيس .

ومن أقسام الفصاحة: الفواصل ، وهي الأسجاع . ومن الناس من كره تسميتها بالأسجاع إذا كانت في القرآن ، والكلام فيه خارج عن غرضنا ، لأن بيان المراد يفني عن الاشتغال بالتسمية ، وهذه العوامل تكثر في القرآن ، وتتجاوز حد الإحصاء والعد .

وأول ذلك في فائقة الكلام ، كقوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾ [الأنعام: ٥] ، ثم في سائر السور إلى آخر القرآن .

وهذه الفواصل تكون بحروف متفقة تسمى: أسجاعا ، وتكون بحروف مختلفة وتسمى: موازنة ، فما يسمى من ذلك موازنة ، نحو

قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣)﴾ [الفاتحة]

، لأن آخر الآية الأولى هو النون ، وآخر الآية الثانية هو الميم .

ومثل قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨) أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠)﴾ [الكهف] ، ألا ترى أن آخر الآية الأولى هو اللام ، وآخر الثانية هي الزاي ، وآخر الثالثة هو الباء ، وآخر الرابعة هو الدال ، ومثله: ﴿حَمَلَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥)﴾ [المسد] ، ونظائرها كثيرة .

وما يسمى من هذه الفواصل: أسجاعاً (١) . فمثل قوله عز وجل:

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢)﴾ [البقرة] ، إلى تمام

أربع آيات وآخرها كلها نون .

ومثله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢)﴾ [الإخلاص] ،

وقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢)﴾ [الفلق] ، ولا

وجه لتعداد أمثاله في القرآن لكثرة ، وتجاوز حد الإحصاء ، ولأن

شيئا من السور لا يخلو من ذلك .

وهذا باب كبير من أبواب الفصاحة ، إذ ورد مع الحلاوة ،

ورونق الطلاوة ، وجاء به متمسحا ، ولم يقهر عليه تكلفاً وتعسفاً ،

ولم يكن مما تنبؤ عنه الأسماع ، وممجه الأفهام ، وهو مشهور عند العرب لا يخلو منه كلام فصيح ، في أحوال الاسترسال والاحتفال .
وللفصاحة أقسام كثيرة سوى ما بيناه ، وليس منها قسم إلا وهو موجود في القرآن ، وقد نبهنا بما ذكرناه منها على ما لم نذكره .
ومن أقسام الفصاحة: التلاؤم ، وهو نقيض التنافر ، وهذا الباب هو من أكثر أبواب الفصاحة ، وكنا نبهنا عليه في أول هذا الباب عند ذكرنا حزالة الألفاظ ، لكن أعدنا ذكره في آخر الباب لتوضحه فضل إيضاح ، لأنه هو العمدة . وذلك أن عامة ما ذكرنا من أقسام الفصاحة بل كلها غير هذا القسم ، للتكلف والتعمل فيها مجال ومسرح . ويمكن التوصل إليها باحتذاء آثار من تقدم فيها ، بأن يُتعلّم طرائقها ، ويستفاد منهاجها ، وهذا القسم الذي هو التلاؤم يتعذر ، إلا أن يسمح به ضيق مخصوص ، يعرف ذلك كل من له أدق حظ من الأدب والمعرفة بنقد الكلام .

وذلك أن التلاؤم به تكون العذوبة والحلاوة ، وعنه تكون حسن دياجة الكلام ، ولهذا نجد الكلام المنظوم المنتور جيد السبك ، رصين النظم ، صحيح الوضع ، متسق المعنى . ومع ذلك تجده ناييا عن السمع ، نافرا عن الطبع ، إذا لم تحصل له العذوبة التي يكون سببها التلاؤم .
واعلم أن التلاؤم يكون بتلاؤم الحروف ، وتلاؤم الحركات والسكنات ، وتلاؤم المعنى ، فإذا اجتمعت هذه الوجوه ، خرج الكلام غاية في العذوبة ، وفي حصول بعضها أخطا ط درجة العذوبة عن الغاية

، وسائر أقسام الفصاحة مع عدم التلاؤم يُعد تكلفاً ، وكلما ظهرت
الصنعة أكثر ، كان الكلام أقرب إلى أن يكون تعسفاً ، وإذا حسن
التلاؤم ، وحسن معه يسم الصنعة أشرق تأليف الكلام ووضعه .
ألا ترى إلى قول الشاعر:

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار
ألا يا حبذا نفحات نجد ورثاً روضه بعد القطار
شهور ينقضين وما شعرنا بأنصاف لمن ولا سرار (١)
لما حصل التلاؤم حصل في النفس القبول التام مع قلة الصنعة فيه

ومن ذلك قول القائل:

ولما قضينا من مني كل حاجة ومسح ركن البيت من هو ماسح
نزعنا بأطراف الأحاديث بيننا ومالت بأعناق المطي الأباطح (٢)
ألا ترى إلى ديباجته كيف حسنت ؟ وإلى عذوبته كيف ظهرت ؟
وإلى سلامته كيف استمرت ؟ مع حلوله من الصنعة ، ووقوعه بالبعد
عن العمل .

وهذا باب تأملته في الأشعار والخطب ، والرسائل والمحاورات ، في
الجد والاهزل . وصح لك بيانه ، وقام عندك برهانه . وهذا القسم من

(١) الأبيات من قصيدة لعمرو بن لحي ، ورد البيت الثاني في الديوان هكذا: ورثاً روضه عرار .
القطار .

(٢) البيتان لكعب بن زهير ، ورد البيت الأول في المخطوط هكذا: ومسح بالأركان . .
والثاني هكذا: أخذنا بأطراف الأحاديث بيضا

الفصاحة موجود في القرآن من أوله إلى آخره ، وأهل هذا الشأن يختلفون في أجناس ذلك والتبين له .

ومن كان منهم أعرف بنقد الكلام ، كان إلى تبيين ما ذكرناه أقرب ، فإن ساعده على ذلك الطبعُ الجيد ، كان في طريق تصوّره أذهب ، وقد يكون في أهل كل صناعة من الشعر والخطب والرسائل مَنْ إذا سمع كلام غيره عرف صاحبه ، وميّز بين طبعه وطبع غيره ، كما حكى أن جريرا رأى ذا الرمة ، وهو ينشد قصيدة أولها:

نبت عيناك عن طلل
فقال له: ألا أمرك بأبيات تلحقها بشعرك ؟ فقال: بلى .

فقال:

يعد الناسبون إلى تميم	يوت المجد أربعة كبارا
يعدون الرباب لهم وعمرا	وسعدا ثم حظلة الحيارا
ويهلك بينها المرئي لغوا	كما ألفت في الدية الحوارا ^(١)

(١) البيت لذي الرمة ، وعمره:

عمته الريح وامتنح القطارا

انظر ديوانه .

(٢) الأبيات في قصيدة حرير ، وردت في المخطوط هكذا:

بعد الناسون بني تميم	يوت المجد أربعة كبارا
بعدون الرباب وآل تميم	وسعدا ثم حظلة الحيارا
ويذهب بينها المرعى لغوا	كما ألفت في الدية الحوارا

ثم أنشد ذو الرمة هذه القصيدة الفرزدق مع هذه الأبيات ، فلما انتهى إليها قال له : مه ، فإن هذه الأبيات لأكلها أشد لحين منك .

فمَيَّزَ بطبعه بين شعره وشعر جرير ، وهذا ظاهر بين أهله ، وإنما أردت أن أبين بهذا أن غباوة من يفضي عن هذه الحالة [التي] وصفناها في القرآن لا يؤثر فيها ، لشهرتها وظهورها عند أهله .

والذي أحوجنا إلى هذا التنبيه على هذا القسم ، أنه لا يظهر لكل من يفهم العربية ، ولا يمكن كما أمكن سائر أقسام الفصاحة ، لأن استدراكه يفتقر إلى العلوم الضرورية المعبر عنها بالطبع ، كما أن الاتيان به مفتقر إليه ، ولأن القرآن كله من هذا النمط .

والأوجه ذكر آيات منه ، لأننا نريد تنبيه المبتدئ والشادي (١) عليه

فمن ذلك قول الله عز وجل: ﴿ وَالنَّحْمُ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) ﴾ [النجم] وما بعدها

وقوله عز وجل: ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَدِّينَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدِّينَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ

يُصْدِرُ الرَّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ [الفصل: ٢٢] . . . إلى آخر القصة

فتأمل هذه الألفاظ ووقوعها مواقعها ، لتعلم شرف هذا الكلام ، وهل تجد لفظة لسوء أبدل مكانها غيرها ، فنابت منابها حسا وعدوية ورونقا ؟ ألا ترى أنه عز وجل لو قال: « والكوكب إذا سقط » ، أو « إذا غرب » ، أو قال: « إذا افل » ، لم يثبت في الحسن مناب قوله تعالى: ﴿ وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ (١) ﴾ .

ورأيت في كلام الجاهل أنه لو قال: « والنجم إذا علا » ، كان أولى . ولن يكون ذلك ، فمن له حاسة في هذا الباب . فبين اللفظتين في هذا الموضوع في باب الحلاوة والعذوبة ما لا يخفى على بصير .

ولو قال: « ما زاع نبيكم عن الهدى » ، أو « ما أخطأ رسولكم » ، أو قال: « ما حاد عن الرشد والهدى » ، وما أشبه ذلك ، لم يغن غناء قوله عز وجل: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) ﴾ .

ولو قال: « فهرب منها مذعورا » ، أو قال: « مرعوبا » ، أو غير ذلك من الألفاظ التي تؤدي معناها ، لم يسد مسد قوله عز وجل: ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ [الفصل: ٢١] ، حلاوة وعدوبة .

ولو قيل: « ولما أخذ على سميت مدين » ، أو « مضى حذاء مدين » ، أو « جهة مدين » ، لم يقع موقع قوله عز وجل: ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ ﴾ [الفصل: ٢٢] . وكذلك عامة ألفاظ هذه الآيات ، فتأملها بتجدها على ما أقول .

واعلم أن كثيراً من الألفاظ تكون له حلاوة وعذوبة ، إذا وقع في بعض المواقع دون بعض ، وإنما حصلت لهذه الآيات العذوبة التامة ، لما حصل لحروفها من التلاؤم ، والحركاتها وسكناتها من الاعتدال ، ولعانيها من حسن الاطراد والمقاصد ، لأن الحروف لو لم تتلاءم لكان يحصل للكلام بعض التنافر .

والحركات والسكنات لو لم تعتدل لم يتم حسن النظم ، لأن كثرة الحركات توجب للكلام بعض الثقل .

ألا ترى إلى ما روى أهل العروض في جنس البسيط ، وزعموا: أنهم لقيهم رجل فأخذوا ماله وضربوا عنقه ، كيف حصل الثقل لما كثرت حركاته ؟!

وكثرة السكنات توجب لنسج الكلام بعض الضعف والسخافة . ولهذا صار الكلام موزوناً باعتدال الحركات والسكنات ، ويتكسر البيت بخروج الحركات أو السكنات عن الاعتدال .

وأما حسن أطوار المعاني والمقاصد فلا بد منه ، لأن موضوع العبارة إنما هو للمعنى ، فإذا لم يحسن المعنى ، كان بمنزلة تعليق الحلبي على المرأة الشوهاة .

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَنَجْعَلُ خَلْقَهَا أَنتَهَارًا وَنَجْعَلُ لَهَا رَاسِيًا وَنَجْعَلُ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١)﴾ [الزلزال] ، وقوله عز وجل في أول السورة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ

(٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسِرُونَ (٥) وَإِلَئِكَ نَتَلَفَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦) إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَشِيرٍ قَبْسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) ﴿النمل﴾ . . . إلى آخر القصة .

وعلى نحو من هذا عامة هذه السورة ، وكذلك عامة السورة التي يذكر فيها القصص بعد هذا .

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿حم (١) تَقْرِئُ الْكِتَابَ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) . . . إلى قوله: الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبِعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْحَجِيمِ (٧) . . . إلى قوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ ثَمَنِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠)﴾ [اعلم] (١) .

وقوله عز وجل بعد هذه الآيات: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ

(١) كمال الآيات: ﴿ . . . مَا يُحَادِثُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا هَذَا يَعْرِضُونَ أَنَّ لَهُمْ مَقِيلًا (٤) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَمَّا أَخَذُوا بِالْبَاطِلِ لِيُظْهِرُوا بِهِ الْغَيْبَ فَأَخَذْنَاهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابُ (٥) وَكَذَلِكَ خَفَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٦) . . . رَبَّنَا وَأَذِلْهُمْ حَتَّى غَدَى إِلَيْنَا وَعَذَابُهُمْ وَمَنْ صُلِحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَرْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَبِيَ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) . . .﴾ .

الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُحْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) ﴿٤٠﴾ [عافرا] . . . إلى آخر القصة .

ولو تتبعنا الآيات الجارية هذا المجرى في العذوبة ، وحسن الديباجة ، لاحتجنا أن نذكر عامة آيات القرآن ، ولكن نبهنا بما ذكرنا على ما سواه ، فتأمل - رحمك الله - مواقع هذه الألفاظ ، وحسن نظامها ، وخففتها على السمع ، وقبول النفس لها ، واهتزازك لسماعها ، لتعلم حقيقة ما ذكرناه . وأنت إذا راعيت هذا الباب في عامة القرآن إذا تلوته ، تبينت صحة ما قلناه ، وظهر لك شواهد ، ووضحت دلائله . ومن كبير أقسام الفصاحة: حسن التصرف . وهذا الباب أيضا لا يمكن بالعمل ، ولا يستجيب للمتكلف ، بل لا بد له من العلوم الضرورية المعبر عنها بالطبع . وهذا " تفاضل الخطباء والشعراء وأصحاب الرسائل .

وإذا تأملت تصرف القرآن في المعاني المقصودة ، عرفت أنه زائد في الحسن على تصرف جميع أقسام الكلام وأنواعه ، وشهد لك قلبك أنه ليس من كلام البشر ، مجاوزته في الحسن جميع كلامهم ، لأنك تجد عامة كلام الناس إذا أخذوا في الاختصاص والتصرف في المعاني المختلفة

، والأغراض المتباينة ، والمقاصد المتغايرة ، يضعف بناؤه ، وبهي^(١) نسجه ، ويظهر عليه الاختلال ، وحال القرءان بخلاف ذلك .

ألا ترى إلى قوله عز وجل: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَحِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤) ﴾ [الرعد] .

تأمل - رحمك الله - حسن هذا التصرف ، فإنه ذكر الدليل على فساد قول من يضعف^(٢) هذه الحوادث إلى الطبع ، وحرره على وجه أسقط عنه كثيرا من الأسئلة ، بأن يبين أن في الأرض قطعاً متجاورة ، يقرب بعضها من بعض ، ليسقط سؤال من يقول: إن الأرضين إذا تباعدت أطرافها ، اختلفت التربة ، فكان منها الطيب والخبيث ، لأن ذلك يبعد في المتقارب منها .

وكذلك الهواء لا يمكن أن ندعي أن تغيره هو المؤثر ، لأن الأرضين ما لم تتباعد بعضها من بعض ، لا يظهر في أهويتها التغير ، وكذلك الماء إذا كان واحداً لا يمكن أن يُدَّعى أن اختلاف الأكل راجع إلى اختلاف الماء ، فدل بذلك على أنه من فعل القادر الحكيم ، تبارك وتعالى .

(١) بهي: بضعف ، يقال: وهى الرجل ، إذا ضعف .

(٢) كذا في المخطوط .

ومعنى هذه الآية: معنى كلمي " ، فإذا أردت أن تعرف حال هذا التصرف ، وشريف موقعه ، فتأمل كلام المتكلمين . هل تجد لشيء منها هذا الجنس الرابع ؟ لأنه جمع فيها بين حسن المعنى وشرف الوضوح ، وجزالة اللفظ وعدوبته ، مع جمع المقاصد الكثيرة في ألفاظ يسيرة ، بحيث ربط بعضها ببعض ، وحسم عنها مطاعن المعارضين . من ذلك قوله عز وجل بعد هذه الآية: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّنَا لَذُوْ غَفْرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّنَا لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٦) [الرعد] ، فتأمل ما جمعت هذه الآية من المعاني ، بأن ذكر جهل القوم باستعجالهم السيئة قبل الحسنة ، ثم بيّن عز وجل أنه أنزل العذاب بمن كان قبلهم من المنحرفين عن طاعته ، المسرعين إلى معصيته ، زاجراً لهم عما هم فيه ، ومخبراً لهم عواقب من قبلهم .

ثم بيّن لهم أنه عز وجل يغفر لعباده وإن كانوا ظالمين ، إذا تابوا وأنابوا ، وأنه عز وجل شديد العقاب ، لمن أصرّ وأقام على ما هي عنه . فجمع هذه المعاني وكساها حسن اللفظ ، إذ فيه ما يسميه أهل الصنعة: المطابق . لأنه ذكر الحسنة والسيئة ، والمغفرة والعقاب ، مع الجزالة والعذوبة . فهل يكون في التصرف أحسن من هذا ؟!!

ثم تأمل من هذه السورة قوله عز وجل: ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا يَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ (٨) . . .

إلى قوله: وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (١٤) ﴿[الرعد: ١٤]﴾ ، وتأمل
 عامة هذه السورة وما في آياتها من حسن التصرف ، وضرب الأمثال .
 وتأمل قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي
 خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا
 وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١] ، ثم تأمل آية الموارث ، فإن معناها معنى فقهي^(١)

فانظر هل تجد ما يقارب ذلك في شيء من ألفاظ الفقهاء ؟ وإذا
 أردت ذلك فتأمل أقاصيص القرآن وأحكامه ، لترى من ذلك ما يهر
 عقلك ، ويكشف لك أنه كلام مرتفع عن كلام البشر أجمع ، وعلى
 هذا تجد ما يتضمن الوعد والوعيد ، وأدلة العدل والتوحيد .

وإذا تأملت ذلك ، فتأمل أشعار العرب من جاهلي ، أو مخضرمي
 ، أو إسلامي ، وتأمل أشعار المحدثين ، وتأمل الخطب المحفوظة عن النبي
 صلى الله عليه وآله وسلم ، وعن أمير المؤمنين عليه السلام ، وسائر
 الصحابة ، ومن بعدهم أو قبلهم من الفصحاء ، تجد القرآن مبيناً لها ،

(١) كمال الآيات: ﴿... غَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ
 الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٌ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) لَهُ مُعَقَاتٌ مِمَّنْ يَنْذِرُ يَنْذِرُهُ وَمِنْ
 خَلْقِهِ يَخَفُطُونَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا
 فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ (١١) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ
 الثِّقَالَ (١٢) وَيَنْسُجُ الرُّعْدَ يَخْمَدُهُ الْمَلَائِكَةُ مِنْ حَيْثُ وَرَّسِلَ الصَّوَارِعُ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ
 وَهُمْ يُخَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣) لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا
 يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٌ كَيْفِيهِ إِلَى الْمَاءِ لِيُثْلِقَهَا وَمَا هُوَ بِجَالِيهِ ...﴾

(٢) في المخطوط: فقها . والصواب ما أثبت .

مميزاً " بمزايا أقسام الفصاحة عليها ، فيتضح عندك أنه على ما ادعيناها في أعلى طبقات الفصاحة ، وأن من ذهب من العلماء إلى أن الاعجاز راجع إلى مجرد الفصاحة لم يبعد عن الصواب كل البعد ، وإن كان الأصح عندي على ما قدمت أنه راجع إلى النظم والفصاحة معاً .

ومما يبين بلوغ القراءان غاية الفصاحة ، أن الشاعر ربما ضمَّن لفظة من القراءان بيتاً من الشعر ، أو حشا الخطيب بها فصلاً من الخطب ، أو وشَّح الكاتب بها موضعاً من الرسالة ، فيتميز بحسنها عن غيرها ، ويتبين ببهجتها على ما سواها ، ويصير الموضع الذي تضمنها " غرة من سائره ، وبحسنه الذي اكتسبه من تلك اللفظة ، وزبرجه الذي استعاره منها .

ومما يبين ذلك: أن كثيراً من الفصحاء ، وُجِدَ في كلامهم كلمات فصيحة رائعة ، صارت لبلاغتها أمثالاً سائرة ، ووُجِدَ معناها في القراءان ، إلا أنك إذا تأملتَها وجدت التفاهم " بينها كثيراً ، وظهر لك فضل ألفاظ القراءان على تلك الألفاظ ظهوراً تاماً . فمنها ثلاث كلمات تذكر عن أمير المؤمنين عليه السلام:

(١) في المخطوط: مرأ . ولعل الصواب ما أثبت .

(٢) في المخطوط: بضمها . والصواب ما أثبت .

(٣) كذا في المخطوط .

إحداها ^(١): « مَنْ جَهِلَ شَيْئًا عَادَاهُ » ^(٢) ، ومثله قول الله عز وجل:
﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ [الأحقاف] ،
وقوله: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ﴾ [نور: ٣٩] .

والثانية: « أَبْغَضَ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِييبَكَ يَوْمًا مَا
« ^(٣) ، وفي قريب من معناه قوله عز وجل: ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَخَفَلَ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةٌ ﴾ [المتحنة] .

والثالثة: « المرء مخبوء تحت لسانه » ^(٤) ، وفي قريب من معناه قوله
عز وجل: ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ [عمد: ٣٠] . فتأمل التفاوت
الذي بين تلك الكلمات الثلاث ، وبين ألفاظ الآيات التي ذكرناها ،
يَبِينَ ^(٥) لك صحة ما ادعيناها .

ومن ذلك قول الله عز وجل: ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً
وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ [النمل: ٨٨] ، فانظر كم بينه وبين قول
الشاعر:

بأرعن مثل الطود تحسب أنهم وقوف لحاج والركاب قملج ^(٦)

(١) في المخطوط: أحدها . ولعل الصواب ما أثبت .

(٢) عرر الحكم للآمدي ١٦١ / ٢ ، بلفظ: « من جهل علما عاداه » .

(٣) معج البلاغة ، قصار الحكم / ٢٦٨ ، وأخرجه الترمذي في السنن ٣٦٠ / ٤ (١٩٩٧) ،
والشهاب في مسنده ٤٣١ / ١ (٧٣٩) ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

(٤) معج البلاغة ، قصار الحكم / ١٤٨ .

(٥) في المخطوط: بين . والصواب ما أثبت .

(٦) البيت للناطقة الديهاني ، ورد في المخطوط هكذا: فارعا مثل الطود ...

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٧٩] ، وفي معناه قيل ما قدمنا ذكره: « بعض القتل أحياء للجميع » ، وقيل: « القتل أقل للقتل » ، فلم تلحق واحدة من الكلمتين بشأؤ قوله عز وجل: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ .
ومما افتخر به النابغة قوله (١):

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المتأى عنك واسع (٢)
فانظر أين يقع ذلك من قوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (١٩) [البقرة] ، ومن قوله: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ١٣] .

وقد ذكرنا فيما مضى ما قيل في معنى قول الله تعالى: ﴿يَخْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [النافنون: ٤] .

وقد عُدَّ من فصيح الكلام ما حكى عن بعض المتقدمين من قوله: « سل الأرض من شق أمّارك ، وغرس أشجارك ، فأخرج ثمارك ، فإن لم تجبك حوارا ، أجابتك (٣) اعتبارا » . فانظر أين يقع ذلك من قول الله عز وجل: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدائقَ ذَاتِ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٠)﴾ [الملأ] ؟! بل أين يقع ذلك من قوله: ﴿

(١) في المخطوط: بقوله . ولعل الصواب ما أثبت .

(٢) البيت للساعة الديبائي ، انظر ديوانه .

(٣) في المخطوط: حوار أجابتك . ولعل الصواب ما أثبت .

وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧)
تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا
بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا
لِلْعِبَادِ ﴿ق| ١٩﴾

ومن الكلام الفصيح قول الشاعر:

بكت عيني وحق لها بكاهما وما يغني البكاء ولا العويل^(١)
لكن أين يقع ذلك من قول الله عز وجل ، حاكيا عن أهل النار:
﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَّرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِصٍ﴾ (٢١) ﴿إبراهيم| ١٩!﴾
وتتبع هذا مما يطول لكثرتة . وفيما ذكرناه كفاية ، وفيه تنبيه على ما لم
نذكره .



(١) البت الحسن من ثات قاله من فصيده في رثاء حمزة بن عبد المطلب.

الكلام في ذكر ما في القرآن من الإخبار عن الغيوب

من ذلك قول الله عز وجل: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة] ، وقوله: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)﴾ [الإسراء] ، وهذا من الغيب لا يعلمه إلا الله عز وجل ، لأن البشر لا سبيل لهم أن يعلموا كلاما يوجد مشتملا على التحدي والتفريع على العجز عن الاتيان بمثله ، فلا تقع له معارضة أبدا ، سيما والقوم الذين تُحَدِّثُوا به غاية في العداوة للمتحيدي ، مع أنهم أهل البلاغة والمعرفة بذلك الشأن ، بل المعلوم أن المعارضة تقع لا محالة منهم إذا تمكنوا منها .

فإن قيل: فما يؤمنكم أن تقع المعارضة بعد هذا الوقت ، وإن لم تكن وقعت إلى هذه الغاية ؟!

قيل له: يؤمننا ذلك أن الخير صدق ، ويُعلم أنه صدق أنه لو لم يكن صدقا ، لكان لا يجوز أن يجري الأمر في محبته على ما أخبر نحوا من أربعمائة سنة ، مع الأحوال التي ذكرناها . لأن ما يقال على سبيل التخمين والرحم ، لا يجوز أن يستمر الأمر في محبته على هذا الحد ، فعلم أنه خيرٌ صدرَ عن علام الغيوب .

وأيضاً قد علمنا أن الدواعي إلى إيراد المعارضة لم تكن حبست عن المطامع ، وكانت الصنعة أيضاً في نفسها أقوالاً في أمثلة العرب ، ولم يكن يمكن فيها من الفساد ما يمكن الآن . وعلى استمرار الأزمان ، ومضي الأعصار ، تزداد الصنعة ضعفاً ، والدواعي قلة - لما تعذر وقوعه - فلما تعذر وقوعها " فيما سلف من الزمان ، كان وقوعها فيما بعد أبسر تعذراً .

وأيضاً ظاهر الخطاب هو لأهل ذلك العصر ، وإن كنا قد عرفنا بدليل سوى الظاهر أن المراد به إلى آخر الدهر ، وإذا لم تقع المعارضة من أهل ذلك العصر ، وجب كون الخير صدقاً .

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٩٤) وَلَٰكِنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ ﴿ [البقرة] ، وقال أيضاً في السورة التي يذكر فيها الجمعة: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٦) وَلَا يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ ﴿ [الجمعة] ، فأخبر أنهم لا يتمنون الموت أبداً .

فوجد مخبر الخير على ما أخبر به ، ولم يقل أحد منهم: إني أتمنى الموت . هذا مع ما كان عليه اليهود من شدة الحرص على تكذيبه ، وإبطال دعواه ، وتوهين أمره ، حتى أنهم استهانوا بالموت ، وما يجري من القتل الذريع عليهم ، في جنب استمرارهم على معاداته ، وتحقيقهم

بمناواته ، فلو لا أن الخير صدر من عند علام الغيوب ، لم يكن يجوز أن يورده النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، خشية أن يظهر منهم ما يوجب تكذيبه .

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة] ، يعصمه الله عز وجل من الناس كما وعده ، وجرى الأمر فيه إلى قبضه صلى الله عليه وآله وسلم ، على ما دل عليه الخبر .

وهذا أمر الغيب الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه ، لأن الإنسان لا يدري ما يجري عليه إلى أن يموت ، سيما من كان على مثل حاله صلى الله عليه وآله وسلم في كثرة الأعداء .

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ وَإِذْ يَعِذُّكُمْ اللَّهُ بِطَائِفَتَيْنِ أُنْثَاهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونَ لَكُمْ ﴾ [الأنفال: ٧] ، وهذه الآية قد تضمنت خبرين من أخبار الغيوب .

أحدهما: ما وعدهم الله عز وجل به من كون إحدى الطائفتين لهم ، وأنه يظفر بها ، والطائفتان:

أحدهما: العير التي كانت مع أبي سفيان .

والثانية: الذين خرجوا للمحاربة عنهم من أحزاب قريش ، فأظفرهم الله تعالى بأحزاب قريش يوم بدر ، وأنجز لهم الموعد .

فإن قيل: الآية نزلت بعد الكائنة ، وإذا كان هذا هكذا ، فليس

فيه خبر عن الغيب ، لأنه خبر عن الواقع المعلوم !؟

قيل له: الآية تضمنت تقدم الوعد على الكائنة ، لأن الوعد لا بد من أن يتقدم الموعود ، ولولا أنه كان معلوما عند أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن ذلك الوعد كان قد حصل لهم ، لم يكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليتلو عليهم ما تلاه ، لأنه جرى (١) مجرى أن يقول لهم: قلت لكم أمراً شيئاً ، وهم يعلمون أنه لم يقله لهم ، وأنه بفضح القائل ، ويظهر كذبه ، وتقول له (٢) بين أصحابه . فبان أن الوعد في الأمل (٣) والوعيد كان قد تقدم . وأن الموعود جرى على ما وعدوا به . ومثل هذا لا يجوز أن يصدر إلا عن علام الغيوب سبحانه وتعالى .

ويبين ما قلناه من أن الوعد كان قد تقدم ، قوله عز وجل بعد هذه الآيات: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأنفال: ١٠] ، والبشرى لا تكون إلا قبل حصول الشيء . فدل ذلك أيضاً على أنهم كانوا مبشرين قبل وقوعه .

الوجه الثاني الذي تضمنته الآية من الإخبار عن العيوب ، قوله عز وجل: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّكُوكِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧] ، وهي العبر التي كانت مع أبي سفيان ، فأخبر عما في نفوسهم ، ولم يقل أحد منهم: إن الذي كان في نفسي خلاف ذلك .

(١) في المخطوط: جرى . ولعل الصواب ما أثبت .

(٢) في المخطوط: ويقول . ولعل الصواب ما أثبت .

(٣) كذا في المخطوط .

على أن ذلك لو لم يكن معلوما أنه صدق ، وأنه من عند علام الغيوب ، كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يتلوه عليهم ، خشية أن يكون المخبر بخلافه فيظهر كذبه .

فإن قيل: هذا معلوم لكل عاقل أنكر فيه ، فإن المعلوم من أحوال الناس أن الظفر بالأموال التي لا مدافع عنها ، أحب إليه من الظفر بالمقاتلة للذين " لا يظفر بهم إلا بعد شدة ، وبعد أن يقتل منهم من يقتل ، ويخرج من يخرج .

قبل له: هذا الذي ادعيتم غير مستمر ، وإن كان الأكثر ما ذكرتم . وذلك أن من الناس من يكون قتل الأعداء وأسرهم وجرحهم والظفر بهم ، أحب إليه من كثير من الأموال التي تأتيه عفوا ، ولهذا ترى الرجل ينفق ماله من طارف وتليد ليتوصل به إلى النكاية في العدو .

وإذا ثبت ذلك ، ثبت أن إخباره عن جميعهم - مع كونهم معروفين بشدة الحمية والعصبية - أنهم يودون أن غير ذات الشوكة تكون لهم ، خير عن الغيب .

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُخْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) ﴾ [آل عمران] ، والخبر عن أن الكفار الذين كانوا يعادون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يغلبون ، خير عن الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى ، ولأنه لا سبيل لأحد إلى أن يعلم أن أولئك الكفار ، مع كثرة عددهم ، ووفور عددهم ، هم

يُغلبون لا محالة . وقد جرى الأمر على ما ورد الخبر به ، فإن جميعهم غلبوا وقهروا واستذلُّوا .

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (٣٢) [التوبة] ، ذكره عز وجل في السورة التي يذكر فيها التوبة ، والسورة التي يذكر فيها الصف ، والسورة التي يذكر فيها الفتح ، وفي هذه السورة آخر الآية: ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (٧٩) [النساء: ٧٩ ، ١٦٦ ، الفصح ٢٨] ، فأكد الخبر هذا التأكيد ، وكرر ذكره في هذه السورة ، ثم أنجز الله عز وجل وعده لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم بإظهار دين الاسلام ، ونشر دعوته في الآفاق ، فطبقت الشرق والغرب ، وعمت العرب والعجم ، وخلصت إلى الروم والهند والترك ، وصار كثير من البلدان المنسوبة إلى هؤلاء - أعني الروم والهند والترك - من بلاد الاسلام ، والفتوح إلى الآن متصلة ترد بها الأخبار ، من النواحي والأقطار .

فأما بلاد العرب والعجم - بحمد الله ومنه - فقد صارت كلها بلاد الاسلام ، ولم يبق أهل ملة من الملل ، ولا أمة من الأمم ، إلا نفذ فيهم الاسلام ، حتى صار هذا الدين أعلى الأديان كلمة ، وأرفعها حكمة ، ولو كره المشركون ، كما قال الله عز وجل .

وليس يخفى على عاقل أنصف نفسه أن الخير بهذا ، خير عن الغيب الذي لا يطلع عليه أحد إلا الله عز وجل ، الذي يعلم ما كان

وما يكون وما لا يكون أن لو كان كيف كان يكون ، فسبحانه لا
نشرك به شيئا ، ولا نتخذ من دونه إلها ولا ولدا !!

وفي هذا المعنى قال صلى الله عليه وآله وسلم وصدق ، ونحن على
ذلك من الشاهدين: « زويت لي الأرض ، فأريت مشارقها ومغارها ،
وسيلغ ملك أمتي ما زوي لي منها » (١) .

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ اَلَمْ (١) غَلَبَتِ الرُّؤْمُ (٢) فِيْ اٰذْنٰى
اَلْاَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُوْنَ (٣) فِيْ بَضْعِ سِنِيْنَ لِلّٰهِ اَلْاَمْرُ مِّنْ
قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُوْنَ (٤) يَنْصُرُ اللّٰهُ ﴾ [الروم] ، وهذه
الآية قد تضمنت ثلاثة من الأخبار عن الغيوب .

أحدها: قوله عز وجل: ﴿ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُوْنَ (٣) ﴾ ،
هذا من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله عز وجل .

والثاني: قوله: ﴿ فِيْ بَضْعِ سِنِيْنَ ﴾ ، والبضع: فوق الثلاثة ودون
العشرة ، وهذا التحديد أيضا من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله .

والثالث: قوله عز وجل: ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُوْنَ (٤) يَنْصُرُ اللّٰهُ
يَنْصُرُ مَن يَّشَاءُ ﴾ ، فأخير أتم يفرحون في ذلك الوقت ينصر الله .

وهذا أيضا من الغيب ، لأنه خبر عن بقاء المؤمنين إلى ذلك الوقت
مع قتلهم ، وطمع الأعداء في ابتسافهم (٢) . وعن أتم يفرحون ، ولا
تعرض هناك أحوال تمنعهم الفرح ، لأن هذه الآية نزلت بمكة قبل

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٢٢١٥/٤ (٢٨٨٩) ، والترمذي في سننه ٤٧٣/٤ (٢١٧٦) .

(٢) كذا في المخطوط .

المجرة ، في حال ضعف المسلمين وقتهم ، واستيلاء المشركين عليهم ،
والقصة في ذلك مشهورة ، وهي « أن الفرس كانوا غلبوا الروم ، وفرح
لذلك المشركون واغتم المسلمون ، لأن الروم كانوا أهل الكتاب ،
فكان المسلمون بهم آنس ، والفرس كانوا مجوسا ، وكان المشركون بهم
أشبه . فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي
بَضْعِ سِنِينَ ﴾ ، وفرح المسلمون ، وأنكره المشركون واستبعدوه ،
فخاطر (١) أبو بكر أمية بن خلف الجمحي ، على أن تعود الغلبة للروم
على الفرس إلى ثلاث سنين ، وظن أن بضع معناه: ثلاث ، فقال له
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « زد في الأجل وفي الخطر » ،
وكان ذلك قبل نزول التحليل والتحريم ، وحين كانت المخاطرة مباحة
، ففعل أبو بكر ذلك ، وظهرت الروم على فارس لتمام سبع سنين ،
وفرح المسلمون يومئذ « (٢) .

والنصر الذي ذكر الله عز وجل أن المؤمنين به يفرحون .
فقد قيل: إنه نصر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، بما
أظهر له من الاعجاز الظاهر ، بإطلاعه على هذا الغيب الذي لا يعلمه
إلا الله عز وجل ، لأن فيه آية بيّنة ، ودلالة واضحة على نبوته .

(١) المخاطرة: الرهان .

(٢) أخرجه ابن جرير ، انظر الدر المنثور ٦/٤٨٣ .

ويحتمل أيضا أن يكون المراد به ^(١) أن ذل الفرس كان فيه قوة للمسلمين ، ونصرة لهم على المشركين ، لِمَا كان من ميل المشركين إليهم ، وطمعهم في الإعتضاد بهم ، لأن الله عز وجل لا يجوز أن ينصر الكفار بعضهم على بعض ، وإن كان جائزاً أن يزيد في خذلان بعضهم ، إذا كان في ذلك ضرب من المصلحة .

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٣٢) ، وقال في السورة التي يذكر فيها الصف: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٨) ، [الصف] ، فوعد عز وجل أن يتم أمر الدين الذي ابتعث به نبيه صلى الله عليه وآله وسلم على كره من أعدائه الكفرة ، ومع كونهم مريدين اطفاء نور الحق وطمسه ، فحرق الأمر فيه على ما وعد . وهذا من الغيب الذي لا يطلع عليه إلا الله عز وجل .

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ (٣) ، [الفتح] بعد قوله: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ (١) . . . [الفتح] . . . إلى آخر الآية .

ومن المعلوم أن نصر الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم إلى أن اختار الله له دار كرامته ، كان نصرا عزيزا ، وهذا مما لا يجوز أن يكون اطلع عليه إلا الله عز وجل .

(١) في المخطوط: له . ولعل الصواب ما أثبت .

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (الأحزاب: ١٢) ، يعني: يوم الأحزاب ، ثم يقول بعد ذلك: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ (الأحزاب: ٢٢) ، فدل بهاتين الآيتين " على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان وعد أصحابه وعداً ظاهراً ، أن الأحزاب يأتون ، وأن الله ينصرهم عليهم ، حتى عرفه المؤمنون والمنافقون وانتشر فيهم ، حتى قال المنافقون: ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (١٢) ، وقال المؤمنون حين رأوا الأحزاب: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ ، وهذا مما لا يعلمه ولا يطلع عليه إلا الله عز وجل ، لأنه لا سبيل إلى العلم بأن الأحزاب يأتونه ، وأنهم مع قوتهم وكثرتهم يهزمون لا محالة .

فإن قيل: هذه الآية نزلت بعد يوم الأحزاب .

قيل له: هذا وإن كان كذلك ، ففيها دلالة على أن الوعد به كان قد تقدم .

ألا ترى إلى ما حكى الله تعالى عن المؤمنين والمنافقين في ذلك . والنبي صلى الله عليه وآله وسلم تلا ذلك عليهم ، ولو لم يكن الأمر كذلك ، لم يكن ليتلو صلى الله عليه وآله ذلك عليهم وبدعيه ، لئلا

يكون منبهاً لهم على كذبه ، حاشاه صلى الله عليه وآله وسلم من ذلك !!

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ (١٣) ﴿[الأحزاب] ، فأخبر عما في ضمائرهم من إرادة الفرار ، تعللاً بأن بيوتهم عورة ، وهذا لو لم يكن كذلك ، لظهر منهم إنكاره .

ومن ذلك قوله في السورة التي يذكر فيها ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ (١) ﴿[ص] ، ﴿جُنْدٌ مَّا هُنَّالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ (١١) ﴿[ص] ، وهي سورة مكية . أولها: ذكر قريش ، وما كان من قولهم: ﴿هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ (٤) ﴿[ص] ، فأخبر عز وجل في حال ضعف النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقلة أنصاره ، وقوة مشركي قريش ، أنهم جند مهزوم . فكان الأمر على ما أخبر به - عز وجل - هزموا يوم بدر .

وكذلك قوله في السورة التي يذكر فيها القمر ، وهي أيضاً سورة مكية ، مخاطباً لقريش: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ (٤٣) ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ﴾ (٤٤) ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ (٤٥) ﴿[القمر] ، فأخبر أنهم يهزمون ويولون الدبر ، وهذا أمر الغيب الذي لا يعلمه إلا الله عز وجل .

ومن ذلك قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾

[الأنفال: ٣٦] ، فكان الأمر على ما أخبر به عز وجل ، لأن الكفار أنفقوا ما أنفقوا من الأموال للخروج إلى أحد ، وصار في آخر الأمر عليهم حسرة .

وكذلك ما أنفقوا لجمع الأحزاب ، وما أنفقه مالك بن عوف حين جمع هوازن يوم حنين ، صار جميع ذلك حسرة عليهم ، وغلبوا ، على ما أخبر الله عز وجل ، وهذا أيضا من الغيب الذي لا يطلع عليه أحد إلا الله عز وجل ، وليس لأحد أن يدعي أن هذه الآية نزلت بعد الاتفاق ، لقوله عز وجل: ﴿ فَسَيَنْفِقُونَهَا ﴾ ، والسين إذا دخلت على الفعل المضارع حققت أنه للاستقبال . فدل ذلك على أن الآية نزلت قبل الاتفاق .

ومن ذلك قول الله عز وجل: ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴿ [التوبة] ، فحري الأمر على ما أخبر الله عز وجل به ، فإنه تبارك وتعالى عذب الكفار بأيدي المؤمنين ، إذ أمكنهم من قتلهم وأسرهم وسبي ذراريهم ، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم وأحزاهم ، كما وعد سبحانه . ونصر المؤمنين عليهم وشفى صدورهم ، وأذهب غيظ قلوبهم كما أخبر . وهذا مما لا يجوز أن يعلمه قبل كونه إلا الله عز وجل .

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ

وَلَا تُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرْكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أَخْرَجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ ﴿الحشر﴾ ، وهذه قصة مشهورة ، وهي قصة بني النضير ، وذلك أنهم كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فغدروا ونقضوا العهد ، وهموا باغتيال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فأوحى الله بذلك إلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وبما تأمروا بينهم . وهذا إحدى المعجزات .

ثم تقدم إليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمفارقة موضعهم ، والجلاء عنه ، وأعلمهم أنهم نقضوا العهد وبما تأمروه بينهم

فأذعنوا وعزموا على الجلاء ، فراسلهم عبد الله بن أبي بن سلول ، وكان من كبار المنافقين ، ووعدهم بالنصرة . وأنه مع أصحابه معهم ، وأهم إن خرجوا إلى الجلاء أجلاؤا معهم ، وإن قاتلوا نصرهم ، وأهم لا يطيعون فيهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فشهد الله عز وجل أنهم لكاذبون ، وأهم لا يفون لليهود بما وعدوهم ، فجرى الأمر في ذلك على ما أخبر الله به عز وجل وشهد به عليهم ، وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخرج بني نضير عن حصونهم ، فلم يخرج المنافقون معهم ، ولا نصرهم في قتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبني قريظة صبرا ، وسي ذراريهم ونسائهم بعد ما حاصروهم ، وحارب أهل

خير حتى ظفر بهم وبديارهم وأموالهم ، فلم ينصروهم ، كما أخبر الله عز وجل في ذلك عنهم ، فكان في القصة ثلاث من المعجزات:

إحداها: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان مضى إلى بني النضير ، ومعه أمير المؤمنين عليه السلام وأبو بكر وعمر وغيرهم ، في أمر كان عرض ، وجلس مستندا " إلى جدار حصنهم صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فتأمروا فيما بينهم ، واتفقوا على أن يرسلوا عليه من فوقه صخرة تقتله ، فأتاه الوحي في الحال ، وعرف ما كانوا تأمروا ، فقام في الوقت من موضعه ذلك وعاد إلى المدينة ، ولم يعرف أحد من أصحابه السبب في ذلك ، إلى أن عرفهم صلى الله عليه وآله وسلم ذلك .

فكان ذلك أمرا واضحا في وقوفه على سرهم ، من غير خبر أتاه من جهة أحد من الناس ، ولا يجوز أن يكون إلا من جهة الوحي .

والثانية: ما أخبر من سر المنافقين ومراسلتهم ، فلأنهم كانوا مجتهدين في إخفاء ذلك .

والثالثة: خبره عز وجل عنهم أنهم كاذبون ، وأنهم لا يفون لهم بما وعدوهم ، فحرى الأمر على ذلك .

ومن ذلك قوله عز وجل بعد هذه القصة: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ حَمِيقًا إِلَّا فِي قَرْيٍ مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ [الحشر: ١٤] ، فحرى الأمر على ما أخبر عز وجل . فإن من قاتل منهم لم يقاتل إلا من ﴿وَرَاءِ

جُدْر ﴿ ١ ٢ ٣ ﴾ ، ولم يبرزوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم كما برز
المشركون يوم بدر ، ويوم أحد وحنين . وهذا مما لا يجوز أن يطلع
على حقيقته إلا الله عز وجل ، العالم بالمغيبات .

ومن ذلك قوله عز وجل في اليهود: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ
عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ [الأعراف: ١٦٧] ،
وقد علمنا [ذلك] من أحوالهم ، لأنهم في جميع المواضع مقهورون
مستذلون ، لا يمكنهم الثبات إلا مع الجزية والصغار ، وأحوالهم خلاف
أحوال النصارى . فإن للنصارى داراً "" ومملكة مثل الروم وما حوله ،
على ما أخبر الله تعالى في القلة والذلة .

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ تَبَّتْ يُدَا أَيْمِي لَهُبٍ وَتَبَّ (١) . . . ﴾
[المسد] إلى آخر السورة . وذلك إخبار عن موته على الكفر ،
وجرى مخبره على ما أخبر به عز وجل ، وهو مما لا يعلمه إلا علام
الغيوب .

ولهذه الآيات في القرآن نظائر ، وفيما ذكرنا كفاية وبلاغ لمن
نصح نفسه ، وأنصف عقله ، واتبع رشده .

فإن قيل: ولم ادعيتم أن الإخبار عن الغيوب يتضمن الاعجاز الذي
إذا أتى به إنسان وادعا النبوة ثبت نبوته ؟ وما أنكرتم أن يصح ذلك
من المنجم الذي يخبر عن الشيء ، فيتفق أن يكون مخبره على ما أخبر به

!؟

قيل له: لأن الخير عن الغيب على وجه يكون صدقا على جهة الاستمرار ، لا يصح إلا من العالم به ، لأن ذلك لو صح من غير العالم ، لم يمكن^(١) الاستدلال بالفعل المحكم المتقن ، على أن فاعله عالم ، لأن من جَوَّز ذلك ، يلزمه أن تكون الأفعال الكثيرة المنتظمة المتسقة تقع من المَبْحَث الذي ليس بعالم به ، لأن الخير الصدق في حكم الفعل المتقن ، في احتياجه إلى أن يكون الفاعل له عالما ، وهذه الجمل هي من علوم البدايه^(٢) التي لا تعزب عن كامل العقل ، بل عن المراهق ، وإن لم يبلغ كمال العقل .

فإن قيل: كيف ادعيتم أن ذلك من البدايه ، وأنتم تجدون كثيرا من العقلاء ، يعتقدون في الكهان والمنجمين ، أنهم يجوز أن يخبروا عن الغيوب ؟

قيل لهم: أنهم لا يجوزون ذلك ، إلا إذا اعتقدوا أنهم عالمون بذلك ، وليس ذلك خلاف ما ادعيناه ، من أن العلم بأن الاخبار عن الغيب لا يصح إلا من العالم .

ومن جملة البدايه أن أولئك أخطأوا ، حين اعتقدوا أن هؤلاء يعلمون الغيب ، ولم يعتقدوا أنهم أخبروا من غير أن يعلموا^(٣) .

(١) في المخطوط: يكن . والصواب ما أثبت .

(٢) في المخطوط: البدايه . والصواب ما أثبت .

(٣) في المخطوط: علموا . ولعل الصواب ما أثبت .

فإن قيل: فإننا نجد من يعتقد في كثير من المجانين أنهم يخبرون عن الغيب .

قيل له: هؤلاء يعتقدون أن الجن هم الذين ينطقون على ألسنتهم ، وأن الجن يعلمون ذلك ، فليس في العقلاء من يضيف الإخبار عن الغيب إلا إلى العالم به ، على بعض الوجوه .

وقد رأيت من سخفاء الفلاسفة من يذهب إلى أن الانسان إذا احتمل ربما أخبر عن الغيب . ومن يقول ذلك ، يذهب إلى أن النفس عالمة ، فإذا احتمل خلصت النفس ، وجرى مجرى النائم الذي يرى ما يكون مما لم يكن بعد في نومه . وهذا وإن كان هذيانا لا يؤبه له ، وكان ما يراه النائم على خلاف ما ذهبوا إليه ، فإننا ذكرناه لنبين أنه لا أحد من العقلاء يعتقد أن المخبر عن الغيب إذا كثر [ت] أخباره ، واستمرت على وجه يكون صدقا ، يجوز أن يكون غير عالم ، فإذا ثبتت هذه الجملة ، نقول: إن الانسان قد ثبت أنه عالم بعلم يتحدد له ، والعلم لا يخلو من أن يكون ضروريا أو مكتسبا .

وقد علمنا أنه لا طريق يمكن للإنسان أن يكتسب به العلم بالغيوب ، لأن العلوم تكتسب بالنظر في الأدلة ، ولا أدلة على الغيوب ، فلم يبق إلا أن من علم الغيوب يعلمه بعلم يضطره الله إليه ، أو يخبر يأتيه من قبله عز وجل ، وأيهما كان معجزا . لأنه متعذر على جميع الخلق الاتيان به ، إلا من خصه الله عز وجل به ، كخلق البحر ، وقلب العصا حية ، وإحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص .

فإن قيل: ما أنكرتم على من قال لكم: إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم علم تلك الغيوب من طريق التنجيم ، كما يعرفها حذاق المنجمين ، وإذا صار ذلك لم يجب كونه معجزاً على ما ادعيتموه ؟!

قيل له: هذا يسقط من وجهين:

أحدهما: أن المنجم لا يمكنه أن يخبر عن تفاصيل الأمور ، ولا يحصل له العلم بذلك ، وإنما يحصل له غالب الظن . لذلك يصيب في شيء ، ويخطيء في غيره . وذلك من أحوال المنجمين معلوم .

يبين ذلك أنهم يدعون أن في جملة الكواكب الثابتة وهي التي تسمى: بيايات كواكب كثيرة ، لا يعرفها أحد من الناس ، وفيها السعود والنحوس ، وإن حصول ما يحصل منها في الطالع ، يغير الأحكام من غير أن يشعر بما المنجم ، فيعتذرون للخطأ الذي يتفق لهم بذلك ، وربما نسبوه إلى خطأ أصحاب الرصد ، وربما ينسبون بعض الزيجات إلى أن فيها خطأ كثيراً ، وكل ذلك لأن الصواب لا يستمر لهم ، لأنهم لا يمكنهم أن يحكموا تفاصيل الأمور ، وليس كذلك إخبار الله عز وجل في القرآن عن الغيوب . فوجب أن يكون صدر عن علام الغيوب ، الذي لا تخفى عليه خافية تبارك وتعالى .

والوجه الثاني: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لو كان بلغ في علوم النجوم المبلغ الذي كانت له هذه الأمارات من أجلها - مع استحالة ذلك - لوجب أن يظهر اشتغاله بها ، وصرف العناية إليها ،

وأخذها عن أهلها . ولم يكن للعرب اختصاص بهذا الجنس من العلم ، ولم يُعرف أحد منهم به ، ولم يكن يجوز أن يخفى عليهم .

ومن المعلوم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان مولده ومنشؤه في أقوام لم يتعاطوا هذا العلم ، ومسافرتهم إلى الشام قبل البعثة كانت مع قومه ، وكانت أياما قليلة . فبان بما بيناه أنه لم يكن من أهل هذه الصنعة .

على [أن] المتعاطي لهذه الصنعة إذا بلغ مبلغ المتوسطين منها ، فلا بد له من مدارس أهلها ، والنظر في كتبهم ، بل لا بد له من آلات يعرف بها الطوالع التي يبنى عليها الأحكام . فكيف من بلغ الغاية؟! وإذ قد علمنا أنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يتعاط شيئا من ذلك ، ولم يشتغل به ، ولم يعرف شيئا منه ، فقد بطل قول من قال: إن ما أتاه عليه السلام أتاه من طريق النجوم .

وأیضا يمثل ما عرفنا أن الفرزدق وحريراً لم يكونا فقيهي ولا متكلمين ، وأن أبا حنيفة وأبا يوسف ومحمداً لم يكونوا شعراء ، وأن سيبويه لم يكن متكلماً ، وأن أبا الهذيل لم يكن متطبياً ، وأن الشافعي لم يكن متفلسفاً . نعلم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن منكما .

فإن قيل: ما أنكرتم أن يكون النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يرى ذلك في المنام ، وكان قد عرف من نفسه أنه صحيح الرؤيا ، فكان يخبر بما يرى ، تعويلا على ما عرف من نفسه؟!

قيل له: إن المعتاد من أمر الرؤيا وصحتها ، معلوم أنه إلى أي حد يكون ، وإن كان صحيح الرؤيا قد تعرض له أضغاث الأحلام . والتعبير أيضا قد يقع فيه الخطأ كما يقع الصواب ، ولا يستمر الأمر فيه هذا الاستمرار ، وهو يوجب غالب الظن دون العلم المقطوع به ، فإذا كان الله عز وجل خص نبينا صلى الله عليه وآله وسلم من الرؤيا بما أبانه من سائر الخلق ، وبما هو ناقض للعادة ، فهو أيضا معجز دال على صحة نبوته .

فإن سألوا عن الفرق بينه صلى الله عليه وآله وسلم وبين الكاهن ، والذي ينظر في الكف ؟!

فالجواب عنه: أن الكهان لا يمكنهم الخير عن تفاصيل الأمور على الاستمرار على وجه يكون صدقا ، وهذا معروف من أحوالهم ، لأنهم يقولون بأمور تعرض لهم ، وبأمارات تظهر لهم ، وإن أصاب الواحد منهم ، ففي شيء على سبيل الاتفاق ، ويخطئون في أشياء يظهر فيها كذبهم .

وكذلك من ينظر في الكف . إنما يخبر عن جمل الأحوال ، ولهم كلام في ذكر الأمارات الدالة على الأمور ، والأوراق المصنفة لهم في ذلك ، يذكرون حال العظم ، وما يظهر فيه من النقط والتخطيط ، ومواضع ذلك من العظم الذي هو الكف ، وليس يمكنهم الخير عن تفاصيل الأمور ، وأكثر ما يحكى من ذلك حكايات يغلب على الظن أنها كذب ، وإن صح شيء من ذلك فعلى سبيل الاتفاق ، على أنه

يجوز أن تكون الأمارات مما يظهرها الله عز وجل على مجرى العادة لكل ناظر . هذا إن صح ما يُدَّعى من ذلك . وليس الاخبار عن الغيوب التي يتضمنها القراءان مشاهماً لشيء من ذلك ، فبان وصح أنه وارد من عند علام الغيوب .

فإن قيل: ما أنكرتم على من قال لكم: يجوز أن يكون النبي صلى الله عليه وآله وسلم ظفر ببعض أحوال الأنبياء المتقدمين صلى الله عليه وآله عليهم عن تلك الغيوب ، فادعاه لنفسه ؟!

قيل له: لا يخلو وقوع ما سألتكم عنه إليه صلى الله عليه وآله [وآله وسلم] إن كان على ما ذكرتم - ومعاذ الله من ذلك - أن يكون على طريق التواتر أو على طريق الآحاد ، ولا يجوز أن يكون على سبيل التواتر ، لأن ذلك يوجب كون تلك الأخبار ظاهرة في زمانين بين أهل الكتاب . والمعلوم خلاف ذلك .

ولا يجوز أن يكون وقوعه على طريق الآحاد ، لأن ذلك مما لا تسكن النفس إليه ، ولا يجوز أن يعتمد العاقل في بناء الأمر عليه ، على ما بيناه في نظائره فيما تقدم من كلامنا في هذا الكتاب .

فإن قيل: ما أنكرتم أن يكون النبي صلى الله عليه وآله وسلم سمع تلك الأخبار ممن شاهده ورآه ، واتفق صدقه بما شاهده من معجزاته فأظهرها ، وادعا أنه عرفها بالوحي ؟

قيل له: لو كان ذلك كذلك ، لوجب على الله عز وجل المنع منه ، بأن يحول بينه وبين سماعها ، وبينه وبين إظهارها ، أو بأن يُظهر تلك

الأخبار لغيره ، على وجه لا يمكن التمثوله ، لأن ذلك لو كان على ما قلتم ، لكان شبهة لا يمكن حلها ، وكل شبهة لا يمكن حلها يجب على الله عز وجل المنع منها .

على أن هذا السؤال لا بد من أن يتضمن الاقرار بالنبوات والمعجزات .

ويمكن أن يسأل في كل معجز وما " يجري هذا المجرى ، بأن يقال: يجوز أن يكون عيسى صلى الله عليه ظفر ببعض الخواص التي يحيي بها الموتى ، ويرى الأكمه والأبرص ، وأن يكون موسى صلى الله عليه ظفر ببعض منها ، يقلب بها العصا حية ، ويفلق البحر ، وليس الجواب عن ذلك إلا ما قلناه ، من أن ذلك - لو كان - شبهة لا يمكن حلها ، ويجب على القدم تعالى المنع منها . فكذاك جواب هذا السؤال ، إذا سألنا عنه . وهذا الكلام أيضا مما تقدم بياه في كتابنا هذا .



ذكر جملة من المعجزات التي وردت بها الأحاديث

من المشهور الظاهر ما روي عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال لعمار: « تقتلك الفئة الباغية »^(١) ، وهذا جرى مجبّره بعد نحو من ثلاثين سنة على ما أخبر به صلى الله عليه وآله وسلم ، وهذا الحديث معلوم صحته ، لا إشكال فيه ولا لبس عند أهل النقل . وذلك لما اشتهر من تفاوض أصحاب معاوية لعنه الله فيه ، واضطراب معاوية في تأويله ، فمرة يقول: أنحن قتلناه؟! إنما قتله من جاء به - يعني عليا عليه السلام - حتى قال علي عليه السلام حين بلغه ذلك: « فعلى هذا يجب بأن يكون النبي صلى الله عليه وآله وسلم قتل حمزة بن عبد المطلب حين حمله إلى أحد »^(٢) .

ومرة يقول: نحن البغاة ، لأننا نبغي دم عثمان .

فلولا أن الحديث كان مشهوراً فيما بينهم ، قد عرفوه ضرورة بالشهرة والاستعاضة ، وبكثرة من سمعه من النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأنكره معاوية ، ولم يشتغل بتلك التأويلات البعيدة .

وقد روى أهل النقل أن ذا الكلاع كان يفاوض معاوية لعنه الله في هذا الحديث ويضطرب في قتل عمار ، فكان معاوية يلبس عليه ، ويقول له: ما يقتل عماراً غير أهل العراق ، فإننا نقتله عن رأيه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ١٧٢/١ (٤٣٦) ، ومسلم في صحيحه ٢٢٣٥/٤ (٢٩١٥) .

(٢) وقعة صعين ٣٤٣ .

ونستدعيه إلينا ، وسيقتل في جملة عسكرنا ، إلى أن قتل ذو الكلاع في جملة أصحاب معاوية ، وعمار رضي الله عنه في جملة أصحاب علي صلوات الله عليه في يوم واحد ، فكان معاوية لعنه الله يقول: « أنا بقتل ذي الكلاع أسر مني بقتل عمار ، فإنه لو بقي بعد عمار أفسد عليّ عسكري » (١) ، فكل ذلك يدل على أن الحديث كان معلوما عندهم .

وأيضاً « إن الزبير اضطرب يوم الجمل حين بلغه أن عماراً رضي الله عنه في عسكر علي عليه السلام ، وجعل يروّح عن نفسه بمنعه ما بلغه التصديق ، إلى أن أخرج عياضاً له ، فرجع وعرفه أنه في جملتهم ، فقال الزبير: واقطع ظهراه ، واجدع أنفاه . ووقع عليه الأفكل ، حتى قعقع ما عليه من السلاح » (٢) ، وذلك لما عرف من قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « تقتله الفئة الباغية » .

ومن الخير المشهور الذي لا يرتاب فيه أهل النقل ، وهو معلوم بينهم ، ما كان من « النبي صلى الله عليه وآله وسلم من إنذار عائشة ، وتعريفه إياها: أن كلاب الحوآب تنبحها في مسراها ، وأنها لما بلغت الحوآب ونبحتها كلاهما ، سألت الجمال عن ذلك الموضع ؟ فعرفها أنه الحوآب ، فأمرت أن يناخ بعيرها ، وفزعت واضطربت ، حتى جاء بها أصحابها ، وحلف - علي ما في الخير - نحو (٣) من ثلاثين رجلاً أن

(١) وقعة صفين / ٣٤١ . وشرح مع البلاغة / ٢٤/٨ .

(٢) أي: حاسوساً .

(٣) رواه الشيخ المعيد في الإرشاد / ٩٨/٢ . والمجلسي في بحار الأنوار / ١٥/٢١٤ .

(٤) في المخطوط: نحوا . والصواب ما أنتت .

ذلك الموضع ليس بحوآب « " ، واشتهرت القصة فيه ، حتى ذكر كلاب الحوآب أهل اللغة في كتبهم .

وقال الخليل في كتاب « العين »: « الحوآب موضع حيث نبحت الكلاب عائشة » ، وقال ثعلب في كتاب « الفصح »: « وهي كلاب الحوآب مهموز - يعني الحوآب » ، وقد ذكر [هـ] أيضا القتيبي في « أدب الكتاب » ، ولشهرة هذه القصة لا يكاد يذكر الحوآب إلا ويذكر الكلاب التي نبحت عائشة .

ومن الخبر المشهور قوله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي: « إنك تقاتل بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين » " ، يعني بالناكثين: أصحاب الجمل ، والقاسطين: أهل الشام ، والمارقين: أهل النهروان ، فكان كل ذلك على ما أخبر صلى الله عليه وآله وسلم .
ومن المشهور قوله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي: « أشقى الأولين عاقر الناقة ، وأشقى الآخرين قاتلك ، يخضب هذه من هذه

(١) رواه ابن قتيبة في الإمامة والسياسة / ٥٥ . وهو في كثر العمال برقم (٣١٦٦٨) ، نلفظ: عن عائشة « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأرواحه: أبتكن التي تسبحها كلاب الحوآب ؟ فلما مرت عائشة بعص مياه بني عامر لبلا نحت الكلاب عليها ، فسألت عنه ؟ فقيل لها: هذا ماء الحوآب ، فوفقت وقالت: ما أطفي إلا راحة ، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ذات يوم: كيف بإحدائكن تسبح عليها كلاب الحوآب ؟! قيل لها: يا أم المؤمنين إنما تصلحين بين الناس » .

ورواه أيضا في كثر العمال برقم (٣١٦٧١) ، نلفظ: عن طاوس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لنسائه: « أبتكن التي تسبحها كلاب كذا وكذا ، إياك يا حمراء » .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک ٣ / ١٤٨ (٤٦٦٨) ، و ٣ (١٥٠) .

وأشار صلى الله عليه وآله وسلم إلى لحيته ورأسه « (١) . فكان ذلك على ما أخبر به صلى الله عليه وآله وسلم .

ومن المشهور المستفيض حديث ذى الثدية ، وهو « أن عليا عليه السلام لما قتل أهل النهروان قال: اطلبوا ذا الثدية ، فطلب ، فلم يوجد ، فقال علي عليه السلام: والله ما كذبتُ ولا كُذِّبتُ ، فاطلبوا . وما زالوا يطلبونه حتى وجدوه ، فإذا هو رجل مخدج اليد ، إذا مددها امتدت ، وإذا أرسلتها انقبضت ، في رأسها حلمة كحلمة ندي المرأة . فسرَّ أمير المؤمنين عليه السلام وسرَّ الناس « (٢) ، ولا يجوز أن يكون علي عليه السلام عرفه إلا بخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

على أن في أكثر الأخبار أن عليا عليه السلام قال: « إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخبرني أن فيهم رجلا يده كهينة الثدي « (٣) . ومن المشهور المستفيض الذي لا يرتاب فيه أهل النقل ، وأصحاب السير والتواريخ ، ولاشتمارها يعرفها كثير من العامة قصة كسرى ، وهو « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كتب إليه كتابا يدعوه إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، فلما ورد عليه

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه ١٢٢/٣ (٤٥٩٠) ، والطبراني في معجمه الكبير ١٠٦/١ (١٧٣) ، وابن عمرو الشيباني في الأحاد والمثاني ١٤٧/١ (١٧٤) ، والبيهقي في سننه الكبرى ٥٩/٨ (١٥٨٤٨) ، وأبو يعلى في مسنده ٤٣١/١ (٥٦٩) ، وعبد بن حميد في مسنده ٦٠/١ (٩٢) .

(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى ١٦٣/٥ (٨٥٦٩) .

(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٣/٣٥٨ (٥٩٦٢) ، وأبو داود في سننه ٢٤٥/٤ (٤٧٦٩) .

الكتاب مزقه ، فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الخير ، قال: مزق ملكه ، فكان كما قال صلى الله عليه وآله وسلم .

ثم غضب كسرى ، وكتب إلى صاحبه باذان ، وكان على اليمن ، يأمره بإشخاص رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فبعث باذان رسولين إليه صلى الله عليه وآله وسلم يُعرفانه بالصورة ، ويقولان له: أجب شاهنشاه الملوك: كسرى . فإنك إن فعلت ذلك كتب لك الملك باذان إليه ، ليحسن إليك ، وإن أبيت فهو من تعلم - يعنيان كسرى - يهلكك ويهلك قومك ، ويغرب ديارك .

فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: انصرفا وعودا إلي غدا . فأتاه صلى الله عليه وآله وسلم الوحي بأن كسرى وثب عليه ابنه شيرويه وقتله ، في ساعة كذا ، من ليلة كذا ، من شهر كذا ، فلما دخلا عليه صلى الله عليه وآله وسلم عَرَفَهُمَا ما نزل الوحي به من وثوب شيرويه على أبيه كسرى وقتله له ، فاستعظما ذلك وعادا إلى باذان ، فقصا عليه القصص ، فقال باذان: ما هذا كلام ملك ، بل هو كلام نبي مرسل ، لكننا ننتظر ، فإن ورد الخبر بما قال ، فهو نبي مرسل لا شك فيه ، وإن يكن غير ذلك ، نرى فيه رأينا . فورد عليه كتاب شيرويه بذلك ، فأسلم باذان ومن معه من الفرس ^(١) .

ولست أقول: إن هذا التفصيل مشهور عند كثير من العامة والخاصة ، وإنما أقول: إن قدر المعجز منه مشهور ، وهو ورود الرسل

على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالتهديد ، وتعريفه صلى الله عليه وآله وسلم إياهم أن كسرى قد قتل .

فأما أهل النقل فهم يعرفون القصة بشرحها وطولها . وقد حذفنا ما لم نحتاج إليه منها .

ومن ذلك قصة العباس بن عبد المطلب « حين أُسِرَ يوم بدر ، فلما جاء إلى المدينة قال له صلى الله عليه وآله وسلم: أَفَدِ نَفْسَكَ وَابْنِي أَخَوَيْكَ ، عَقِيلَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ، وَنَوْفَلَ بْنَ الْحَارِثِ . قال: ليس لي مال .

قال: فأين المال الذي وضعته بمكة ، حين خرجت عند أم الفضل ليس معكما أحد ؟! ثم قلت لها: إن أُصِبتُ في سفري هذا ، فللفضل كذا ، ولعبد الله كذا ، ولقثم كذا ، ولعبيد الله كذا .

فقال العباس: والذي بعثك بالحق ما عَلِمَ هذا غيري وغيرها ، وإني لأعلم أنك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليك ، ففدى العباس نفسه وابني أخويه « (١) . وهذه قصة مشهورة ظاهرة عند أهل النقل .

ومن ذلك قصة عمير بن وهب الجمحي في سبب إسلامه ، وهي « أنه وصفوان بن أمية الجمحي قعدا في الحجر يتذاكران قتلى بدر ، ويتوجعان لهم ، ويقول صفوان: لا خير في العيش بعدهم . فقال عمير: لولا دين عليّ ، وما أخشى من ضيعة عيالي بعدي . ركبت إلى محمد بعلة أسير لي في أيديهم ، وقتلته .

فقال له صفوان: فعليّ دينك . وعيالك أسوة بعيالي ، فتكاثما ذلك ، وخرج عمير حتى قدم المدينة ، ودخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متوشحاً بسيفه ، فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فلبيه ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: أرسله يا عمر ، ادن يا عمير . ما حاجتك ؟

قال: جئت للأسير الذي في أيديكم .

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: أصدقني ما الذي جئت له ؟

قال: ما جئت إلا لذلك .

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: بل قعدت أنت وصفوان في الحجر ، وقص عليه ما كان جرى منهما . وقال له: جئت لتقتلني والله حائل بيني وبينك .

فقال عمير: أشهد أنك رسول الله . هذا أمر ما حضره غيري وغير صفوان ، وما أخبرك به إلا الله عز وجل ، فأسلم وشهد شهادة الحق ، وحسن إسلامه « (١) » .

ومن المشهور « أن ناقة ضلت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بعض غزواته ، فطلبوها ، فلم يجدوها ، فتكلم أهل النفاق وقالوا: إنه يخبرنا أخبار السماء ، ولا يدري أين ناقته ؟ فأنابه صلى الله عليه وآله وسلم الوحي بموضعها وحالها ، فقال للناس: إني لا أعلم إلا ما علمني الله ، وإن الناقة في موضع بعينه - ذكره - قد تعلق زمامها

بشجرة بعينها ، فمضوا وطلبوا فوجدوها كما أخبر به صلى الله عليه وآله وسلم «^(١)» .

ومنها « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخذ حفنة من الحصى ، فاستقبل بها قريشا ، ثم قال: شأنت الوجوه ، ثم نفحهم بها ، فكانت المزيمة ، فأنزل الله عز وجل في ذلك: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ [الأنفال: ١٧] »^(٢) .

ولا يجوز أن يخاطب الله عز وجل في كتابه [رسوله] صلى الله عليه وآله وسلم] إلا وذلك الرمي مشهور حاله عندهم ، لأن أحواله صلى الله عليه وآله وسلم في تلك الجملة^(٣) كانت معلومة لأصحابه ، ظاهرة فيهم لا خفاء بها^(٤) عندهم .

ومن ذلك « نعيه النحاشي وهو صلى الله عليه وآله وسلم بالمدينة ، وصلاته عليه ، ثم ورد الخبر بموته في اليوم الذي كان نعاه »^(٥) .
ولشهرته جعل كثير من الفقهاء تكبيره صلى الله عليه وآله وسلم أصلا في الصلاة على الجنائز .

(١) أمالي أبي طالب/ ٦٧ (١٧) .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ١٤٠٢/٣ (١٧٧٧) ، وابن حبان في صحيحه

٤٥٢/١٤ (٦٥٢٠) .

(٣) في المخطوط: الجملة . ولعل الصواب ما أثبت .

(٤) في المخطوط: به . والصواب ما أثبت .

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ٤٢٠/١ (١١٨٨) ، ومسلم في صحيحه ٦٥٧/٢ (٩٥١) .

ومن ذلك حديث المسري فإن « رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما أسري به إلى بيت المقدس ، وعاد إلى مكة في ليلة واحدة ، حدث أصحابه بما شاهد في طريقه ، فسئل عن غير كانت لقريش في الطريق ، فقال: لقيتها بمكان كذا ، ومررت عليها ، ففزع فلان . ف قيل له: يا فلان ما رأيت ؟

فقال: ما رأيت شيئا ، إلا أن الإبل نفرت .

وقالوا له: أخبرنا متى تأتينا ؟

قال: تأتيكم يوم كذا وكذا ، يقدمهم جمل أورك ، عليه غرارتان ، أحدهما: سوداء . والأخرى: بيضاء .

قالوا: أي ساعة ؟

قال: ما أدري أطلع الشمس من هاهنا أسرع ، أو طلوع العير من هاهنا ؟!

قال: فلما كان ذلك اليوم بقثوا رجلا من هاهنا ، ورجلا من هاهنا . فقال رجل: هذه الشمس قد طلعت ، وقال الآخر: هذه عيركم قد طلعت « (١) .

وقال أيضا صلى الله عليه وآله وسلم: « مررت بالعبير فوجدت أربابها نياما ، ولهم إناء فيه ماء ، وقد غطوا عليه ، فكشفت غطاءه وشربت ما فيه ، ثم رددت الغطاء كما كان . وإن القوم لما وردوا

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٨٢/٧ (٧١٤٢) ، والصدوق في أماليه ٤٤٨/ ، وانظر سيرة

سئلوا عن الإناء وحاله ، فكان الأمر على ما قال صلى الله عليه وآله وسلم .^(١)

وفي الحديث: « أن المشركين لما سمعوا ذلك أنكروه ، وحكوا ذلك لأبي بكر فقال: إن كان قال ذلك ، فقد صدق ، فسمي: صديقا^(٢) .
وقال له المشركون: صف لنا بيت المقدس . فوصفه صلى الله عليه وآله وسلم لهم ، وقال: جعل المسجد بحذائي ، حتى وصفته^(٣) ،
وهذه قصة مشهورة ، ولشهرتها ذكرها الله عز وجل في كتابه .

ومن ذلك حديث « الشاة المسمومة ، التي قدمتها امرأة يهودية إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو بخير ، فلما أكل منها لقمة أو لقمتين ، وأكل منها من هناك من أصحابه ، قال: إنما تخبرني أنما مسمومة ، وقال لها: لم فعلت ذلك ؟ قالت: أردت إن كنت كاذبا أن يستريح الناس منك ، وإن كنت نبيا لم يضرك^(٤) . وهذه قصة مشهورة حتى تكلم المتكلمون في كيفية خير الشاة ، وأن ذلك يكون كلامها ، أو كلاما يخلقه الله تعالى فيها ، ومن يكون متكلما به .

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٣-٤٤ .

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٠ .

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٥٨/ ١٧ (١٨٨) .

(٤) أخرجه الحارثي في صحيحه ٢/ ٩٢٣ (٢٤٧٤) ، ومسلم في صحيحه ٤/

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال عند وفاته: « ما زالت أكلة خيبر تعاودني ، فالآن قطع أميري » ، وكل ذلك يبين اشتهارته واستفاضته .

ومن ذلك حديث الاستسقاء ، وهو « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شُكِيَ إليه الجذب وهلاك المواشي ، لانقطاع الأمطار ، فرفع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يده إلى السماء ، وجعل يدعو الله عز وجل وما في السماء سحابة ، فلم يرد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يده إلى غمره وصدره ، حتى ابتدأت السحاب ترتفع وتجتمع وأرخت عزاليها ، ثم جاعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقولون: الفرق . الفرق . قُدمت البيوت .

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: حوالينا ، ولا علينا . اللهم على الظهران والجبال ، وبطن الأودية . فانجأ السحاب عن المدينة ، وصار حولها كالإكليل ، ومطروا بعد ذلك مدة طويلة ، وقد اختلفوا في مقدار تلك المدة .

(١) أخرجه أبو داود في سننه ٤/ ١٧٥ (٤٥١٣) ، وابن ماجه في سننه ٢/ ١١٧٤ (٣٥٤٦) ، و ابن حنبل في مسنده ٦/ ١٨ (٢٣٩٧٨) .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٤/ ١٥٢٦ (٣٩٢١) ، والنسائي في سننه ١/ ٦٠ (٧٦) ، وأبو طالب في أماليه/ ٦٩ (٢٠) .

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: لله درُّ أبي طالب ، لو كان حياً
لقرت عيناه . من ينشدنا قوله . فقام علي عليه السلام فقال: يا رسول
الله . كأنك أردت:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
... إلى آخر الأبيات (١) .

وهذه قصة مشهورة ، حتى صار قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «
حوالينا ولا علينا » (٢) . مثلاً يضرب لاشتهاره .

ومن المشهور « أنه صلى الله عليه وآله وسلم لما احتاج أصحابه إلى
الماء ، وضع يده في الإناء فانفجر الماء من بين أصابعه ، حتى توضأوا
وشربوا » (٣) .

وقد ذكر في مواضع عدة ، وفي أوقات مختلفة .

ومن المشهور حنين الجذع وذلك « أن رسول الله صلى الله عليه
وآله وسلم كان إذا خطب في المسجد خطب إلى جذع فيه ، فلما عُمل

(١) شرح البحاري للفتاوى ٢ / ٢٢٧ ، والسيرة الحلبية ١ / ١٢٥ ، والخصائص الكبرى
للسيوطي ١٤٦ / ١ .

(٢) أخرجه البحاري في صحيحه ٣ / ١٣١٣ (٣٣٨٩) ، ومسلم في صحيحه ٢ / ٦١٤ (٨٩٧) .

(٣) أخرجه البحاري في صحيحه ٤ / ١٥٢٦ (٣٩٢١) ، والنسائي في سننه ١ / ٦٠ (٧٦) ،

وأبو طالب في أماليه ٦٩ (٢٠) .

له المنبر ، وقام عليه حنُ الجذع حين الناقة ، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاحتضنه ومسحه بيده ، حتى سكن " (١) .

ومن ذلك ما كان من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين نزل بالحديبية ، فقبل له : « ليس بالوادي ماء يزل عليه الناس . فأخرج سهما من كنانته ، فأعطاه رجلا من أصحابه ، فزل في قلب هناك ، فغرز فيه ، فجاش الماء حتى أخذ الناس حاجتهم ، وصدروا عنه " (٢) . وروي « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بصق فيها » ، ولشهرة ذلك بصق مسيلمة الكذاب في بئر فيه وشل . فغار ماؤها ، وحفت قرارها " (٣) .

ومن المشهور « تعريفه صلى الله عليه وآله وسلم أويس القرني ، وأنه به برص ، دعا له الله فبرئ منه ، إلا قدر الدرهم " (٤) ، إلى غير ذلك من أحواله ، حتى ذكره عمر ، وسأل عنه وطلبه حتى ظفر به .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/ ١٣١٤ (٣٣٩٢) ، والنسائي في سننه ٣/ ١٠٢ (١٣٩٦) ، وأبو ظالم في أماليه ٦١ (٩) .

(٢) أخرجه ابن حبان في مسنده ٤/ ٣٢٣ (١٨٩٣) ، وأبو حنيفة في صحيحه ٤/ ٢٩٠ (٢٩٠٦) .

(٣) بخار الأنوار ٢١/ ٢٩٥ - ٢٩٦ .

(٤) عن أسير بن حار قال : « لما أقبل أهل اليمن حمل عمر رضي الله عنه يستغفر الرماح ، فيقول : هل فيكم أحد من قرى ؟ حتى أتى عليه قرن ، فقال : من أنتم ؟ قالوا : قرن ، فرجع عمر بزماء أو رماح أويس فساوله عمر ، فعرفه بالعت ، فقال له عمر : ما اسمك ؟ قال : أنا أويس . قال : هل كان لك والدة ؟ قال : نعم . قال : هل بك من البياض ؟ قال : نعم ، دعوت الله تعالى فأذهب عني إلا موضع الدرهم من سرفي لأذكر به ري . فقال له عمر : استغفر لي . قال : أنت أحق أن تستغفر لي ، أنت

ومن ذلك « أن الطعام أعوز أصحابه صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة تبوك ، وضاق عليهم فشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: من كان عنده فضل طعام فليأتنا به . فأتي بنيف

صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . فقال عمر: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: إن خير التابعين رجل يقال له: أويس القرني ، وله والدة ، وكان به بياض ، فدعا ربه فأدبه عنه إلا موضع الدرهم في سرتة . قال: فاستعمر له ، قال: ثم دخل في أعمار الناس منهم يدر أي وقع ، قال: ثم قدم الكوفة فكانا يجتمع في حلقة يذكرون الله ، وكان يجلس معنا ، فكان إذا ذكرهم وقع حديثه من قلوبنا موقعا لا يقع حديث غيره ، ففقدته يوما ، فقلت للجلس لنا: ما فعل الرجل الذي كان يقعد إلينا ، لعله اشتكى . فقال رجل: من هو ؟ فقلت: من هو ؟ قال: ذاك أويس القرني ، فدللت على منزله فأتيته ، فقلت: يرحمك الله أين كنت ، ولم تركنا ؟ فقال: لم يكن لي رداء فهو الذي منعي من إتيانكم . قال: فألقيت إليه رداي ففدته إلي ، قال: فتعاليت ساعة ، ثم قال: لسو أي أحدث رداك هذا فلبسته مرآه عني فومي ، قالوا: انظروا إلى هذا المرآي ، لم يزل في الرجل حتى خدعه وأخذ رداه ، فلم أزل به حتى أخذه . فقلت: انطلق حتى أسمع ما يقولون ، فلبسه فخرجنا معر محلس قومه ، فقالوا: انظروا إلى هذا المرآي لم يزل بالرجل حتى خدعه وأخذ رداه ، فأقبلت عليهم فقلت: ألا تسنجبون ؟! لم تؤدونه ؟ والله لقد عرصته عليه فأى أن يقبله . قال: فوفدت وفود من قائل العرب إلى عمر ، فوجد فيهم سيد قومه ، فقال لهم عمر من الخطاب: أفيكم أحد من قرن ؟ فقال له سيدهم: نعم أنا . فقال له: هل تعرف رجلا من أهل قرن يقال له: أويس ، من أمره كذا ومن أمره كذا . فقال: يا أمير المؤمنين ما تذكر من شأن ذاك ومن ذاك ؟ فقال له عمر: نكلتك أمك أدركه مرتين أو ثلاثا . ثم قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لنا: إن رجلا يقال له: أويس مس قرن ، من أمره كذا ومن أمره كذا . فلما قدم الرجل لم يبدأ بأحد قبله ، فدخل عليه فقال: استغفر لي فقال: فقال: ما بدا لك ؟ قال: إن عمر قال لي كذا وكذا ، قال: ما أنا بمستغفر لك حتى تجعل لي ثلاثا . قال: وما هي ؟ قال: لا تؤذي فيما بقي ، ولا تغير بما قال لك عمر أحدا من الناس ، ونسي الثالثة »

وعشرين صاعا ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودعا بالبركة ، ثم دعا الناس . فقال: خذوا فأخذوا حتى اكتفوا وصدروا ، وفضلت فضلة « (١) » .

وهذه الآية - أعني تكثير القليل من الطعام ، وإشباع الكثير منه - قد تكررت في مواضع واشتهر منها « بمكة في أول البعثة ، لما نزل قوله عز وجل: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (٢١٤) » [النساء] ، دعا صلى الله عليه وآله وسلم رهطا من عشيرته ، فقدم إليهم يسيرا من الطعام ، فأكلوا منه وشبعوا « (٢) » .

ومنها خبر « دعائه صلى الله عليه وآله وسلم جابرا إلى الطعام - وكان أعد له يسيرا - فدعا صلى الله عليه وآله وسلم عددا كثيرا من أصحابه ، حتى أكلوا وشبعوا « (٣) » .

ومنها حديث عبد الرحمن بن أبي بكر قال: « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثين ومائة ، فقال صلى الله عليه وآله وعلى أهله: هل مع أحد منكم طعام ؟ فإذا مع رجل صاع واحد ، فأطعم الجميع منه إلى أن شبعوا وفضل « (٤) » .

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٤١٨/٣ (١٥٤٨٧) ، وابن حبان ٤٥٦/١ (٢٢١) ، والحاكم في المستدرک ٦٧٥/٣ (٤٢٣٤) .

(٢) مابف الكوفي ٩٥/١ (٤٧) .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ٥٦/١ (٢٧) ، وأحمد بن حنبل في مسنده ١١/٣ (١١٠٩٥) .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ١٦٢٦/٣ (٢٠٥٦) .

ومن ذلك حديث جابر « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعطى رجلاً وسق شعير ، فما زال الرجل يأكل منه وامرأته ، حتى كالوده ، فقال لهم صلى الله عليه وآله وسلم: لو لم تكيلوه لأكلتم منه ، وأقام لكم » (١) .

وغير ذلك فيما يكثر عدده .

ومن المستفيض « أن جابر بن عبد الله الأنصاري أتى محمداً بن علي بن الحسين عليهم السلام ، وهو في الكتاب فقَّبه ، وقال له: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمرني أن أقرأك السلام » (٢) .
ومن ذلك « أنه صلى الله عليه وآله وسلم نعى جعفر بن أبي طالب وهو على بعد منه » (٣) .

ومن ذلك « بجيء الشجرة فإنه تكرر في مواضع منها: مكة والمدينة ، حتى أقبلت إليه تشق الأرض شقا » .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/ ١٧٨٤ (٢٢٨١) ، وأحمد بن حنبل في مسنده ٣/ ٣٢٧ (١٤٦٦١) .

(٢) بتابع النسخة ٤١٣/ ، ومنابع الكوفي ٢/ ٢٧٥ (٧٤٣) ، وفي ترجمة الباقر من تاريخ دمشق لاسر عساكر الحديث (٢٣) ، روى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: « إنك ستعيش حتى تدرك رجلاً من أولاد بني اسمي بقر العلم بقرا ، فإذا رأيته فأقره مني السلام . فلما دخل محمد بن علي على حار وسأله عن نسيه ، فأخبره ، قام إليه فاعتقه وقال له: جدك بقرأ عليك السلام » . أخرجه الكليني في أصول الكافي ١/ ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، والكشي في رحاله ٢٧-٢٨ ، والمجلسي في نوار الأنوار ٤٦٦/ ٢٢٧ باب ٣ ، وكشف الغمة ٢/ ١١٩ ، والمهيمن في الجمع ١/ ٢٢ ، وابن عساكر في تاريخه ٥١/ ٤١ ، وهو في الوافي بالوفيات ٤/ ١٠٢ ، والذهبي في سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٤١ ، وقال: وأقرأه حده الحسين السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله .

(٣) أخرجه البحاري في صحيحه ٣/ ١٣٧٢ (٣٥٤٧) ، والسائي في سنه ٤/ ٢٦ (١٨٧٨) .

و« مرتين في الصحراء ، حين أراد قضاء الحاجة اجتمعت له صلى الله عليه وآله وسلم شجرتان فاستتر بهما ، وقضى الحاجة ، ثم افترقا وعادا إلى مكانهما » (١) .

و« دعا صلى الله عليه وآله وسلم غصنا من شجر فأناه ، حتى رأى ذلك من كان طلب الآية ، ثم عاد إلى مكانه » (٢) .

ومن ذلك « انشقاق القمر » ، وقد رواه عدة من أصحابه . وإن كان الأشهر رواية عبد الله بن مسعود ، فقد قال : « إني رأيته فلقنتين » (٣) .

وروى أنس : « أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آية ؟ فأراهم انشقاق القمر » (٤) ، وكان يحدث به في تفسير قوله عز وجل : ﴿ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ (١) ﴾ [القمر] .

وعن عبد الله بن مسعود ، قال : « انشق القمر بمكة .

فقال قريش : هذا سحر سحركم به .

(١) أخرجه ابن حبل في مسنده ١/ ٢٦٨ (٢٤١٨) ، وابن عمرو الشيباني في الأحاد والمثاني ٣/ ٢٥٢ (١٦١٢) ، وابن حبان في صحيحه ١٤/ ٤٣٥ (٦٥٠٥) ، والدارمي في سننه ١/ ٢٢ (١٦) .

(٢) مساف الكوفي ١/ ٥٧ (٢٢) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/ ١٣٣١ (٣٤٣٧) ، ومسلم في صحيحه ٤/ ٢١٥٨ (٢٨٠٠) ، والترمذي في سننه ٤/ ٤٧٧ (٢١٨٢) .

(٤) أخرجه الطيالسي في مسنده ١/ ٢٦٥ (١٩٦٠) .

فقال بعضهم: انظروا إلى السفار ، فسألوهم ؟ فقالوا: قد رأينا القمر انشق " (١) .

وروى ذلك عن حذيفة ، وابن عباس ، وجبير بن مطعم ، ويدل على صحته: " أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تلا عليهم قوله عز وجل: ﴿ افْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِنْ يَسِرُّوا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (٢) ﴾ [القمر] " (٢) .

ولو لم يكن ذلك ظاهرا بينهم لأنكروا ذلك ، وكذبوا قوله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقالوا: لم ينشق القمر ، ولم يُخَوَّجُوا إلى أن يقولوا: إنه سحر مستمر ، فوضح بذلك أنهم كانوا شاهدوا ذلك وعرفوه ، ولا وجه لتأويل من يتأوله على أنه بمعنى: ينشق يوم القيامة ، لوجه:

منها: أنهم لا يقولون في الآيات يوم القيامة: إنها سحر ، لأنهم يعرفون تلك الأحوال ضرورة .

فإن قيل: لا نسلم لكم يوم القيامة ولا كون الآيات فيها ، فكيف نسلم أنها تعلم ضرورة ؟!

(١) أخرجه الطيالسي في مسنده ١/ ٣٨ (٢٩٥) ، وأحمد بن حنبل في مسنده ١/ ٣٧٧ (٣٥٨٣) ، والحاكم في مستدركه ٢/ ٥١٣ (٣٧٥٨) .

(٢) أخرجه الترمذي في مسنده ٥/ ٣٩٨ (٣٢٨٩) ، والطبراني في المعجم الكبير ١٠/ ٣٠٣ .

قيل له: لسنا نحتاج إلى تسليمكم صحة ذلك ، لأن ذلك معلوم من دين النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وأديان سائر الأنبياء صلوات الله عليهم ، ولا يجوز أن يخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بخبر يعلم خلافه من دينه ضرورة .

ومنها: أنه ليس في القرآن ولا في شيء من الأخبار الصحيحة ، أن القمر ينشق يوم القيامة ، وإنما في القرآن: ﴿ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴾ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) ﴿ القيامة ﴾ .

ومنها: أن ظاهر الآية خبر عن الماضي ، فلو لم يكن ذلك معلوما عند الكفار لراجعوه فيه ، حتى يعرفهم صلى الله عليه وآله وسلم مراده ، ولما لم يجز ذلك ، ثبت صحة ما قلناه .

ولا وجه أيضا لتأويل من يتأول فيه فيقول: إن المراد به ضرب المثل لوضوح الأمر . كما يقال: هذا أمر قد طلع فجره ، وأشرقت شمسُه ، لأن ضرب المثل بطلوع الفجر وإشراق الشمس يصح ، لأن طلوع الفجر وإشراق الشمس يزيدان في الضوء ، ولو انشق القمر لم يجب أن يتزايد الضوء ، بل يكون ذلك إلى تناقصه أقرب . فكيف يصح ضرب المثل به لوضوح الأمر ؟

ولا معنى لقول من يقول: إن ذلك لو كان لم يخف على أهل الشرق والغرب ، لأنه لا يمتنع أن يعلم ثقة أن الأصلح إظهاره لقوم بعينهم دون سائر الخلق ، فيخفيه على سائر الخلق بالغمام ، في بعض المواضع ، وبالشغل أو النوم لآخرين .

ومن المشهور قوله صلى الله عليه وآله وسلم لسراقة بن جعشم ،
وقد نظر إلى ذراعيه: « كَأَنِّي بَكَ وَقَدْ لَبِست سَوَارِي كَسْرَى . وَكَانَ
سَرَاقَةُ أَشْعَرَ الذَّرَاعَيْنِ دَقِيقَهُمَا ، وَلَمَّا كَانَ مَا كَانَ فِي زَمَانِ عَمْرِ بْنِ
الْخَطَّابِ ، وَفَتَحَتْ خَزَائِنَ كَسْرَى ، حَمَلَ الْمَالُ فَوَضَعَ فِي الْمَسْحَدِ ،
فَرَأَى عَمْرٌ مَنْظَرًا لَمْ يَرِ مِثْلَهُ ، وَالذَّهَبَ وَالْيَاقُوتَ وَالزَّبْرَجَدَ وَاللُّوْلُؤَ
يَتَلَأُلُؤًا .

فقال: أَيْنَ سَرَاقَةُ بَنِ جَعْشَمٍ ؟ فَأَنَّى بِهِ .

فقال: الْبِسْهُمَا .

فَفَعَلَ .

فقال: اللَّهُ أَكْبَرُ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَلَبَهُمَا كَسْرَى ، وَأَلْبَسَهُمَا
سَرَاقَةُ بَنِ جَعْشَمٍ « (١) . فَكَانَ ذَلِكَ آيَةً ظَاهِرَةً لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .

ومن المشهور ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: « لَمَّا
غَسَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَا أُرَدْتُ عَضْوًا أَغْسَلَهُ إِلَّا
قُلْبِي لِي حَتَّى أَغْسَلَهُ . وَلَقَدْ أُرَدْتُ يَدَ غَيْرِي عَلَيْهِ ، وَسَمِعْتُ مَنَادِيًا
يَنَادِي فِي جَانِبِ الْبَيْتِ: لَا تَخْلَعُوا الْقَمِيصَ . وَلَقَدْ رَأَيْتُ أَنَّ أَكْبَهَ
فَنُودِيتُ: أَلَا تَكْبَهُ « (٢) .

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى ٣٥٧/٦ (١٢٨١٢) .

(٢) الأحكام ١٥١/١ .

وروي » أنه لما توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جاءهم
 أت ، يسمعون حسه ، ولا يرون شخصه ، فقال : السلام عليكم أهل
 البيت ورحمة الله وبركاته ، ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّنُونَ
 أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] ، إن في الله عزاء من كل
 مصيبة ، وخلفاً من كل هالك « (١) .

فهذه أخبار مشهورة ظاهرة ، ولم نتبع من معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم التي رواها الواحد والاثنان . فإن ذلك يكثر ويبلغ نحو ألف معجز .

فإن قيل : فما تقولون في هذه الأخبار التي رويتها ، هل تقولون :
 إنها توجب العلم على التفاصيل ؟

قيل له : في جملة هذه الأخبار أخبار توجب العلم لمن عني بسماعها
 والبحث عنها ، وفيها ما يوجب اجتماعها العلم على الجملة بأنه صلى
 الله عليه وآله وسلم كان يظهر عليه آيات ناقضة للعادة ، ولا يمتنع أن
 تكون أخبار الآحاد إذا وردت تتضمن أمراً من الأمور ، أن يقع العلم
 بذلك الأمر على الجملة .

ألا ترى أن عامة ما يروى عن علي عليه السلام من مسائل الفقه
 طريقها الآحاد ، ثم يحصل العلم الضروري بأنه كان فقيها .

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک ٦٠/٣ (٤٣٩١) ، والشافعي في المسند ١/٣٦١ ، والطبراني
 في المعجم ١١٠/٨ (٨١٢٠) .

وكذلك حال عبد الله بن مسعود ، وابن عباس ، وغيرهما من
فقهاء الصحابة ، وكذلك كل موقف لعل عليه السلام في الحروب ،
لا يكاد يثبت إلا من طريق الآحاد ، ثم يجعل الضروري أنه كان شجاعا

وكذلك حال الزبير ، وأبي دجانة ، وغيرهما من الشجعان من
الصحابة ، وغيرهم .

وهذه الطريقة هي التي اعتمدها أصحابنا ، في إثبات إجماع
الصحابة على القول بالقياس وخير الواحد .

وبمثل هذه الطريقة يعلم جود الأخواد ، وبخل البخلاء ، وسير
الملوك في العدل والظلم ، فيجب على ما بيناه أن تكون هذه الأخبار
الواردة في معجزات نبينا صلى الله عليه وآله وسلم ، وإن لم يكن كل
واحد منها واردا موردا يوجب العلم بمحملتها ، موجبة للعلم بأنه صلى
الله عليه وآله وسلم كانت تظهر عليه آيات ناقضة للعادة .

فإن قيل: إن هذه الأخبار لم ينقلها إلا من كان مصدقا به صلى
الله عليه وآله وسلم ، وهذا يمنع الاعتماد عليها !!

قيل له: الاعتبار في إيجاب الأخبار للعلم لا يرجع إلى أحوالهم في
باب الديانات ، وإنما يرجع إلى أحوالهم في الكثرة ، وكوثرهم عالمين
صرفة بما يخبروا به ، أو استحالة التواطؤ منهم على وضع ما يخبرون به ،
فوجب بذلك سقوط هذا السؤال .

على أن هذا السائل لا يخلو:

من أن يكون من غشاء الملحدة .

أو من أهل الكتاب .

فإن كان من أهل الكتاب ، فقد علم الكل منهم أنه لم ينقل معجزات أحد من الأنبياء صلوات الله عليهم إلا من كان مصداقاً بهم ، ولم يوجب ذلك طعناً في معجزاتهم ، أو في نقلهم ، فوجب أن يكون ذلك حال نقل معجزات نبينا صلى الله عليه وآله وسلم .

وليس يؤثر فيه قول اليهود إن معجزات موسى صلى الله عليه قد نقلها النصارى والمسلمون .

وقول النصارى: إن معجزات عيسى صلى الله عليه قد نقلها المسلمون ، لأن ذلك لا يخرجها من أن يكون نقلها من جهة المصدقين بها (" صلى الله عليهما .

ألا ترى أن ملحدة الفلاسفة والمجوس لا ينقلون شيئاً من ذلك ولا يصدقون به .

فإن قيل: فإن المخالفين لليهود في اليهود ، قد نقلوا معجزات موسى صلى الله عليه ، وكذلك المخالفون للنصارى في التنصر ، قد نقلوا معجزات المسيح ، وليس للمسلمين من يخالفهم في الاسلام ، وينقل مع ذلك معجزات محمد صلى الله عليه وآله وسلم ؟!

قيل له: فليخبرنا اليهود ، هل نقل معجزات موسى عليه السلام قبل مبعث المسيح عليه السلام غير اليهود ؟!

ولتُجبرنا النصارى هل نقل معجزات المسيح قبل مبعث النبي صلى
الله عليه وآله وسلم غير النصارى ؟!

فلا بد لهم من أن يقولوا: لم ينقل ذلك غير من ذكرتم !!
قيل له: فهل قدح ذلك في نقل معجزات موسى صلى الله عليه ،
أو معجزات المسيح عليه السلام في تلك الأزمنة ؟!
فلا بد لهم من أن يقولوا: لم يقدح ذلك في نقل تلك المعجزات !!
قيل لهم: فكذلك حال نقل المسلمين معجزات النبي صلى الله عليه
وآله وسلم في أنه لا يقدح فيها أن غيرهم لا ينقلها .

على أنا نقول لليهود والنصارى: نحن لا ننقل شيئا من معجزات
موسى وعيسى عليهما السلام إلا من جهة القرآن ، وإخبار النبي صلى
الله عليه وآله وسلم بها . فلو لم تثبت نبوة نبينا صلى الله عليه وآله
وسلم لم يثبت عندنا شيء من معجزات موسى وعيسى عليهما السلام
، يكشف ذلك أن علمنا بنار إبراهيم صلى الله عليه كعلمنا بفلق البحر
، وإن كان اليهود والنصارى ينكرون نار إبراهيم !!

وعلمنا بكلام المسيح في المهد ، كعلمنا بإبرائه الأكمه والأبرص ،
وإحيائه الموتى ، وإن كان النصارى ينكرون كلامه في المهد !!
وإنما أردنا بذلك أنا لم نعلم شيئا من ذلك إلا من جهة القرآن ،
وخبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

وإن كان السائل من ملحدة الفلاسفة والمجوس ، قيل لهم: فأنتم
أيضا قد علمتم كثيراً من أحوال أرسطا طاليس وأفلاطون ومن جرى

بجراحهما ، وأخبارهم بنقل أصحابهم لها ، ولم يكن ذلك عندكم موجباً للقدح في ذلك النقل .

وكذلك يقال للمحوس: وأنتم أيضاً قد عرفتم كثيراً من أخبار زرادشت ، وأخبار ملوكهم بنقل أصحابهم لها ، ولم يقدح ذلك عندكم ^(١) في نقلهم ، فكذلك حال نقل المسلمين لمعجزات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لا يوجب فيه قدحاً !!

والأصل في هذا الباب: أن الأحوال التي يكون العهد بها متقادماً ، لا ينقلها ولا يهتم بحفظ أخبارها إلا من كانت له دواعٍ قوية إلى ذلك ، فلمراع ما ذكرناه في أخبار الأمم كلها ، ونقلها . وليس يجب أن يكون ذلك قادحاً في شيء من النقل ، فكذلك حال المسلمين .

فإن قيل: ما تنكرون على من قال لكم: إن هذه الأخبار كانت في الأصل ضعافاً ، وإنما قويت فرووعها بالديانات والعصبيات ، وتلقى الأتباع لها بالتصديق ، وإلا فأصولها انتشرت بنفسين أو ثلاثة من أصحاب المغازي كابن إسحاق ونحوه .

قيل له: أما من ذهب من العلماء إلى أن الاعتبار في باب الأخبار الموجبة للعلم ، هو تحصيل العلم الضروري دون أوصاف الأخبار والمخبرين . فإن هذا السؤال ساقط عنهم .

(١) في المخطوط: عنهم . ولعل الصواب ما أنت .

فأما من راعى صفات المخيرين . فجوابه أن نقول " : من أين لهذا السائل أن هذه الأخبار في الأصل كانت ضعيفة ؟ بل المعلوم من حالها أنها كانت في الأصل أقوى وأظهر .

ولئن جاز لقائل أن يقول في الأخبار هذا القول ، ويدعي هذه الدعوى ، من غير أن يقيم عليها برهانا ويكون لها أدلة ، لجاز أن يقال مثله في أخبار البلدان أجمع ، وسير الملوك وأحوالهم كلها .

وهذا يؤدي إلى أن لا يثبت شيء من الأخبار ، ولا يصح أن يعلم بها شيء من الأمور المتباعدة . وهذا واضح السقوط ، لأنه من المعلوم من أحوال الأمم أجمع ، أنهم قد علموا من أحوال سلفهم من الملوك وغيرهم ، أمورا كثيرة من جهة الأخبار .

وهذا السؤال إن صح ، أدى إلى أن لا يصح العلم بشيء من ذلك ، وفي علمنا أن الأمر بخلاف ذلك ، مما يكشف فسادَه .

ثم يقال له : مما يفسد دعواك هذه ، ويوضح سقوط سؤالك هذا ، أنا قد علمنا أن هذه المعجزات لم تنزل تنقل من أيام الصحابة إلى يومنا هذا ، عصرا بعد عصر ، وزمانا بعد زمان . ومن المعلوم أن هذا النقل كان ظاهرا مستفيضا قبل مولد أصحاب المغازي ، نحو ابن إسحاق وغيره . فكيف يصح أن ينسب ذلك إليهم ؟

فإن قيل : عامة هذه الأخبار ينقلها الواحد والاثنان والثلاثة ، وما يزيد على ذلك ، ولا يمكن أن يذكر من نقلها إلا نحو هذا العدد .

قيل له: لا يمتنع أن يكون الخير مستفيضاً شائعاً يجب العلم به ، وإن كان ما نذكر من أسماء الناقلين هذا القدر .

ألا ترى أنا نعلم ضرورة أنه كان يوم بدر ، و جرى فيه ما جرى ، وظفر المسلمون على المشركين . ونعلم أيضاً يوم أحد وما جرى فيه ، وكذلك سائر المغازي ، ونعلم ضرورة من دين النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن الظهر أربع ، والمغرب ثلاث . ولو تتبعنا أسماء من ينقل ذلك ممن لهم ذكر في الكتب ، لم يزد على ما ذكرتم ، وهذا لا يوجب الشك في هذه الأخبار ، فكذلك حال المعجزات .

فإن قيل: ما الفرق بين هذا النقل ، وبين نقل الإمامية نصوص أئمتهم ومعجزاتهم ؟

قيل له: الفرق بينهما ظاهر ، لا يخفى على من تأمل حال الناقلين ، وذلك أن ما نقلته الإمامية من ذلك ، لم يثبت أن أئمتهم ادعوا شيئاً من ذلك ، بل الثابت عنهم أنهم كانوا ينكرون ذلك ويستبرأون منه ، ولظهور إنكارهم ذلك قالت " الإمامية: إن ذلك الإنكار منهم كان على سبيل التقية ، ولم يقولوا: إنه لا أصل له ، إلا أن يتوافق " اليوم بعض من يدعي الكلام منهم فيجحد ، ثم هم لم يدعوا أن شيئاً من ذلك كان ظاهراً على الولي والعدو .

(١) في المخطوط: ذلك ما قالت . والصواب ما أثبت .

(٢) من الرفاعة .

وإنما يدعون أموراً يلبسوها إلى أنها كانت في السر ، وبحيث لم تظهر إلا للواحد والاثنين ، وأحوال معجزات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بخلاف ذلك ، لأنه لا يُرتاب في أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يدعي ذلك . وأن ما نقل منها وادعي ، كان على رؤوس الأشهاد ، وحضور الملائكة المسلمين والمشركون ، كما نقل ذلك في حديث الاستسقاء ، وتكثير الطعام ، وخبر الميضة ، وما كان منه صلى الله عليه وآله وسلم من غرز السهم في بئر بالحديبية ، وخو ذلك . فأبي فرق بين النقلين أوضح وأبين مما ذكرناه ؟!!

فإن قيل: فما الفرق بين نقلكم هذا ونقل اليهود والنصارى أنهم قتلوا المسيح وصلبوه ؟!

قيل لهم: إننا لا ننكر أنهم رأوا شخصا مقتولا مصلوبا ، وأنهم في هذا القدر صادقون . وإنما شبه لهم ، فظنوا أن المقتول هو المسيح . واختلف أهل العلم في كيفية التشبيه ؟ فذهب الأكثر إلى أنه تعالى ألقى شبه عيسى صلى الله عليه وآله وسلم على رجل من أصحابه ، فظنوا أنه عيسى (١) . وهذا التأويل عندي سائغ .

(١) عن ابن عباس قال: « لما أراد الله أن يرفع عيسى عليه السلام إلى السماء ، حصر إلى أصحابه وهم اثنا عشر رجلا من عمر البيت ، ورأسه بقطر ماء ، فقال لهم: أما إن منكم من سبكم في اثني عشرة مرة ، بعد أن آمن بي ، ثم قال: أياكم سيلقى عليه شبهي فيقتل مكابا ، ويكون معي في درجتي ، فقام شاب من أحدثهم سنا ، فقال: أنا ، فقال عيسى: اجلس ، ثم أعاد عليهم ، فقام الشاب فقال: أنا . فقال: نعم أنت ذاك ، قال: فألقى عليه شبه عيسى ، قال: ورمع عيسى عليه السلام من روضة كانت في البيت إلى السماء ، قال: وجاء لطلب من اليهود فأحدوا الشبه فقتلوه ثم

وذهب بعض العلماء إلى أن اليهود لما لم يجدوا عيسى ، لأن الله عز وجل قد رفعه إليه ، أخذوا رجلا من أصحابه فألبسوه مثل ثيابه ، وستروا وجهه ، ثم قتلوه وصلبوه ، وأومئوا الباقين أنهم قد قتلوا المسيح صلى الله عليه ، والذين فعلوا ذلك من اليهود ، كانوا عددا يسيرا من رؤسائهم . وهذا أيضا محتمل جائز . فأبي الأمرين كان ، فالأمر فيه مخالف لنقل المسلمين معجزات النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، لما بينا من كون عمومها لم يغف على المسلمين والمشركين وأهل الكتاب ، لظهورها ووقوعها على وجه من شاهدها وعاینوها على ما ذكرناه .

فإن قيل: فما الفرق بين نقلكم هذا ونقل الصوفية معجزات بشار

الراعي ، وبشر الخافي ، وإبراهيم بن أدهم ، ومن غنا نحوهم ؟!

قيل له: الفرق بينهما هو بعينه ما ذكرناه في الفرق بين نقلنا ونقل

الإمامية ، لأنه لم يثبت أن هؤلاء الصالحين ادعوا شيئا من ذلك ، بل

صسوه ، وكفر به بعضهم اثني عشرة مرة بعد أن آمن به ، فتعرفوا ثلاث فرق ، قال: فقالت فرقة: كان فيما الله ما شاء ثم صعد إلى السماء ، وهؤلاء البعقوبة . وقالت فرقة: كان فيما ابن الله ما شاء ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء السطورية . وقالت فرقة: كان فيما عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه إليه ، وهؤلاء المسلمون . فتظاهرت الكافران على المسلمة فقاتلوا وقتلوا ، فلم يزل الاسلام طامسا حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وآله وسلم ، فأمر الله عليه: ﴿ فآمنت طائفة من بني إسرائيل ﴾ ، يعني: الطائفة التي آمنت في زمن عيسى ، ﴿ وكفرت طائفة ﴾ ، يعني: الطائفة التي كفرت في زمن عيسى ، ﴿ فأبدا الدين آمنوا ﴾ في زمان عيسى ﴿ على عدوهم ﴾ ، بإظهار محمد صلى الله عليه وآله وسلم دينهم عن دين الكفار ، ﴿ فأصبحوا ظاهرين ﴾ . . أخرج ابن أبي شيبة في المصنف . (٣٣٩/٦ ٣١٨٧٦) .

الأظهر أنهم كانوا ينكرون ذلك خشية الفتنة ، وما جرى مجراه ، ولم يمكنهم رحمهم الله أن ينكروا (١) ذلك ، ثم من ينقله لا ينقل أن شيئا من ذلك كان بين الجمع العظيم ، وإنما يدعي أنه ظهر على سبيل الاخفاء ، أو لآخر معه . فأني اشتباه يقع بين نقل المسلمين معجزات النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وبين نقل الصوفية الذي سألتهم عنه !!؟

وقد أشار إلى هذا صاحب (٢) الكتاب الملقب بـ « الزمرد » ، بأن قال: « القوم الذين شاهدوا هذه الآيات ، لم يخلوا من أن يكونوا وقفوا حوله صلى الله عليه وآله وسلم على مقدار دائرة ضيقة تسع لنحو من خمسين رجلا ، أو على مقدار دائرة عظيمة تسع الخلق العظيم . فلإن كانوا في مقدار دائرة واسعة ، اقتضى ذلك بُعدهم عما يشاهدونه ، وذلك يُحوِّز التلبس ، وأن يكون للشك فيه مسوغ » .
وعن هذا بحمد الله أجوبة:

أحدها: أن يقال لهذا الجاهل المزري بعقله: أما علمت أن هذا السؤال يؤدي إلى أن لا يصح أن يعلم شيء من الأحداث والكوائن التي جرت في الدنيا من طريق الأخبار والنقل !!؟

لأنه يصح أن يقال في كل حادثة أو كائنة: إن المحققين إما لمشاهدتها إما إن كانوا في مقدار دائرة ضيقة أو واسعة ، فإن كانوا في مقدار دائرة ضيقة صح عليهم التواطؤ ، وإن كانوا في مقدار دائرة

(١) في المخطوط: أنهم رحمهم الله بكروا . ولعل الصواب ما أثبت .

(٢) هو ابن الروندي .

واسعة ، لم يمتنع أن يحل^(١) إليهم الحادث على قدر ما هو عليه ، فيلزمنا جميع ما ذكرنا ، أو يُشك حتى لا يصح أن أحداً أُقيل ، ولا أن أحداً وُلّي ، ولا أن أحداً استُخلف على أمر ، ولا أن أحداً تكلم في مسألة ، ولا أن أحداً ناظر أحداً في شيء من أمور الدين والدنيا . فإن التزم ذلك ، وضع خزيه ، وبان ظلاله ، وإن أجاب عنه بشيء ، فهو جوابنا فيما سأل عنه .

ومنها أن يقال له: إن المحدثين لا يجرون مجرى السُّورِ المسيحي ، أو الحائط المشيد ، بل لا يمتنع أن يكون مَنْ خلفهم يطلع ، فيرى ما يراه الأولون ، ويعاين ما يعاينونه .

ومنها أن يقال: لا يمتنع في كثير من هذه الآيات أن يشاهده قوم ثم يتأخرون ، ويتقدم آخرون فيشاهدوا ما شاهده الأولون .

ومنها أن يقال له: لا يمتنع أن يقع العلم ببحر الخمسين ، أو دون الخمسين ، إذا أحرروا على وجه يُعلم أنهم لم يتواطؤا . وكل ذلك يوضح سقوط ما ذكره هذا الجاهل .



ذكر ما وجد في الكتب المتقدمة من البشارات بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم

هذه فصول يعرفها أهل الكتاب في كتبهم وليسوا ينكرونها ، وقد جاريت فيها منهم من كان يرجع إلى حفظ كثير وضبطها ، غير أنهم يتأولونها تأويلات فاسدة .

فمن ذلك ما وجد في التوراة ، وقبل هو في السفر الأخير (١) في الفصل الثالث والثلاثين: « جاء الله من سيناء ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبل فاران » (٢) .

فقوله: « جاء الله من سيناء » ، أراد: ابتعائه موسى صلى الله عليه من قبل طور سيناء .

وقوله: « وأشرق من ساعير » ، أراد: ابتعائه المسيح صلى الله عليه ، و « ساعير » الناحية التي كان فيها عيسى صلى الله عليه .

(١) السفر الأخير هو: سفر انتية .

(٢) النص تنامه من الكتاب المقدس طبعة بيروت سنة (١٩٧٦م) هكذا: ((وهذه هي الحركة ، التي باركها موسى رحل الله بني إسرائيل قبل موته . فقال: جاء الرب من سيناء ، وأشرق لهم من ساعير ، ونالاً من جبل فاران . وأتى من ربوات القدس . وعن يمينه نار شريعة لهم ، فأحب الشعب جميع قديسيه في بدك ، وهم حاليون عند قدمك ، يتفللون من أقوالك)) . سفر النبية ٣٣: ١-٣ . واضر في تفسير هذا النص كتاب ((إظهار الحق)) للنشيخ رحمت الله الهددي

وقوله: « واستعلن من جبل فاران » ، أراد به: ابتعائه عمداً صلى الله عليه وآله وسلم من جبال مكة . لأن جبال مكة تسمى في التوراة: « جبل فاران » ، لا ينكر ذلك أحد ممن عرف التوراة .
وفي التوراة: « أن إبراهيم صلى الله عليه وسلم أسكن هاجر وإسماعيل صلى الله عليه وسلم عليه فاران ، يعني: مكة » (١) .

ولم يبعث أحد من الأنبياء ابتعانا ظاهرا ، فشا أمره في مشارق الأرض ومغاربها ، كما اقتضى قوله: « استعلن » ، لأن « استعلن » هو بمعنى: علن ، إذا ظهر وانكشف ، « ولم يستعلن » غير محمد صلى الله عليه وسلم ، فلم يبق ريب في أنه هو المراد بهذه اللفظة (٢) .

وفي التوراة: « أن هاجر ترأى لها ملاك ، وقال: يا هاجر إني سأكثر ذريتك وزرعك ، حتى لا يحصوا كثرة ، وهأنت تحبلين وتلدن

(١) نص التوراة: « وكان الله مع العلام - أي: إسماعيل من هاجر - فكم ، وسكن في البرية ، وكان يسمو رامي قوس ، وسكن في برية فاران ، وأحد له أمه امرأة من أرض مصر » . سفر التكوين ٢١: ٢٠ - ٢١ .

(٢) وأيضاً لأن النص يذكر بركات ثلاث: واحدة لموسى ، وواحدة لعنماء وأسياء بني إسرائيل ، وواحدة لمحمد صلى الله عليه وسلم والآي من درية إسماعيل . وإسماعيل هذا له بركة ، ففي التوراة: عن بركة إسماعيل أن الله قال لإبراهيم: « وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه ، ها أنا أباركه وأثمره ، وأكثره كثيراً جداً ، اثني عشر رئيساً يند ، وأجعل له أمة كبيرة » . سفر التكوين ١٧: ٢٠ .

أبنا ، وتسمينه إسماعيل ، لأن الله عز وجل قد سمع خشوعك ، وتكون
 يده فوق يد الجميع ، ويد الجميع مبسوطة إليه بالخضوع " (١) .
 وقد علمنا أن المراد بهذا " ولد إسماعيل ، وهو رسول الله صلى
 الله عليه وآله وسلم ، لأن إسماعيل نفسه لم تكن يده فوق يد إسحاق ،
 ولا يد ولديه يعقوب صلى الله عليه وعيسى ، « مبسوطة إليه بالخضوع
 » ، ولم يكن في ولد إسماعيل من كانت أيدي أولاد إسرائيل وعيسى
 وسائر الناس مبسوطة إليه ، غير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .
 إنه هو الذي دانت له الملوك من آل إبراهيم صلى الله عليه وغيرهم
 ، وخشعت له رقابهم ، وخضعت له الأمم ، وصارت الإمامة والملك
 في أهله ، وصارت أيديهم فوق أيدي الجميع . وأيدي الجميع مبسوطة
 إليهم ، كما وُعِدَتْ هاجر . فوضح أنه بشارة برسول الله صلى الله
 عليه وآله وسلم .

(١) النص: « وقال لها ملاك الرب: تكثيرا أكثر سلك ، فلا يعد من الكثرة ، وقال لها ملاك
 الرب: ها أنت حلى ، فتلدين ابنا ، وتدعين اسمه إسماعيل ، لأن الرب قد سمع ندلتك ، وأنه بكون
 إنسانا وحشيا ، يده على كل واحد ، ويد كل واحد عليه » . سفر التكوين ١٦ : ١٠ - ١٢ .
 (٢) في المخطوط: هذه . ولعل الصواب ما أثبت .

وفي فصل من كتاب أشعيا النبي صلى الله عليه: « لتفرح أرض
البادية العطشى ، ولتبهج البراري والفلوات ، ولتزه ، لأنها ستعطى
بأحمد محاسن لبنان ، وكمال حسن الدساكر والرياض » (١) .

ومن المعلوم أن البادية لم يحصل لها ولفلواتها المحاسن إلا بالاسلام
والمسلمين ، فبان أنه بشارة بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وإن كان
في أهل الكتاب من ينكر الاسم على عادتهم في التحريف .

وعن جقوق النبي صلى الله عليه: « جاء الله من التيمن ،
والقدوس من جبال فاران ، وامتلاّت الأرض من تمجيد أحمد وتقديسه
، وملك الأرض ورقاب الأمم » (٢) . وقد بيّنا أن جبال مكة تسمى في
التوراة: جبال فاران .

وقال داود صلى الله عليه في مزموره ، في صفة النبي صلى الله عليه
وآله وسلم: « إنه يجوز من البحر إلى البحر ، ومن لادن الأنهار إلى
منقطع الأنهار ، وأنه تجتو أهل الجزائر بين يديه على ركبهم ، ويلحس
أعداؤه التراب . تأتيه الملوك بالقرايين ، تسجد له وتُدين له الأمم

(١) النص من الترجمة الحديثة: « تفرح البرية والأرض اليابسة ، وبتنهج الفقر ، ويهر
كالرحس ، يهر أزهارا ، وبتنهج انتهاحا ، ويرم ، بدفع إليه مجد لبنان ، هاء كرميل وشارون ،
هم يرون مجد الرب ، هاء هما » . سفر أشعيا ٣٥ : ١ - ٢ .

(٢) النص من الترجمة الحديثة: « الله جاء من تيمان ، والقدوس من جبال فاران . سلاه .
حلاله عطى السماوات ، والأرض امتلاّت من نسيجه ، وكان لمعان كالنور . له من يده شعاع ،
وهناك استار قدرته ، قدماه ذهب الواء ، وعد رجليه حرحت الحمى ، وقف وقاس الأرض ،
نظر مرحف الأمم ، ودكت الحبال الدهرية . وحسفت أكام القدم ، مسالك الأزل له ... » إلخ .

بالطاعة والانقياد ، لأنه يُخَلِّصُ المضطهد البائس ممن هو أقوى منه ،
وينقذ الضعيف الذي لا ناصر له ، ويرؤف بالضعفاء والمساكين ، وأنه
يُعْطِي من ذهب بلاد سبأ ، وَيُصَلِّي عليه في كل وقت ، وَيُبَارِك عليه في
كل يوم ، ويدوم ذكره إلى الأبد ، وإن اسمه لموجود قبل الشمس ،
والأُمم كلها يتركون به ، وكلهم يحمدونه . (١) .

وقد قيل: معناه يسمونه: محمدا .

ومن مزمور آخر لداود صلى الله عليه: « تَقَلَّدِ السيف ، فإن
ناموسك وشريعتك مقرونة بحياة ، وسهامك مسنونة ، والأُمم يخشون
تَحْتِكَ » (٢) .

(١) النص من الترجمة الحديثة للمزمور كله هكذا: « اللهم أعط أحكامك للملك ، وبرك لابن
الملك . يدين شعبك بالعدل ، ومساكينك بالحق ، تحمل الجبال سلاما للشعب ، والأكام سالما ،
نفسي لمساكين الشعب ، يخلص بني البائسين ، ويسحق الظالمين . يعيشونك ما دامت الشمس ،
وقدام القمر إلى دور فدور . ينزل مثل المطر على الحراز ، ومثل الفيض الدارسة على الأرض .
يسرق في أيامه الصديق وكثرة السلام ، إلى أن يضمحل القمر . ويملك من الحر ومن النهر إلى
أقاصي الأرض . أمامه نخو أهل البرية ، وأعداؤه يلحسون التراب . ملوك ترشيش والحزائر يرسلون
تقدمة . ملوك شبا وسباء يقدمون هدية . ويسجد له كل الملوك . كل الأمم تنعبد له . لأنه ينجي
الفقر المستغيث والمساكين ، إذ لا معين له . يشفق على المسكين والبائس ، ويخلص أنفس الفقراء
من الظلم والخطف ، يقضي أنفسهم ، ويكرم دمهم في عينه . ويعيش ويعطيه من ذهب شبا .
ويصلي لأجله دائما . اليوم كله يباركه . تكون حفنة تر في الأرض في رؤوس أخبال تنمايل مثل
لنان ممرها ، ويزهرون من المدينة مثل عشب الأرض ، يكون اسمه إلى الدهر . قدام الشمس يمتد
اسمه ، ويتنازعون به . كل أُمم الأرض يطوبونه . مبارك الرب الله إله إسرائيل ، الصانع المعائب
وحده ، ومبارك اسم مجده إلى الدهر ، ولتتمتلي الأرض كلها من مجده . » المزمور: ٧٢ .

(٢) نص المزمور كله من الترجمة الحديثة: « فاص قلبي بكلام صالح . متكلمة أنا بإشائي للملك
. لساني فلم كاتب ماهر . أنت أرفع حمالا من بني البشر ، انسكت النعمة على شعبك : لذلك

وليس في الأنبياء بعد داوود صلى الله عليه من تقلد السيف ،
وحارب الأمم تحته ، ومن قرئت شريعته بالهبة ، غير نبينا صلى الله
عليه وآله وسلم .

وأيا في الزبور: « إن الله اصطفى أمته ، وأعطاه النصر ، وسدد
الصالحين منهم بالكرامة ، ويسبحونه على مضاجعهم ، ويكبرون الله
بأصوات مرتفعة ، بأيديهم سيوف ذوات شفتين ، ليتنقم الله عز وجل
من الأمم الذين لا يعبدونه ، يوثقون ملوكهم بالقيود ، وأشرفهم
بالأغلال » .

باركك الله إلى الأبد . تقلد سيفك على فخذك أبها الخبار حلالك وهماك ، وخلالك انحم .
اركب من أجل الحق والدعة والر ، فترك يمينك مخاوف . نللك المسومة في قلب أعداء الله ،
شعوب تحن بسقطون .

كرسبك يا الله إلى دهر الدهور . قضب استقامة قضب ملكك ، أحببت الر وأبغضت الإثم ،
من أجل ذلك مسحك الله إلهك بدهن الانتهاج أكثر من رفائك . كل ثيابك مر وعود وسليخة .
من قصور العاج سرتك الأوتار . نبات منوك بين حظياتك ، جعلت الملكة عن يمينك بذهب أوفير

اسمعي يا بنت وانطري وأميلي أدنك ، وانسي شعبك وبيت أبيك ، فيشتهي الملك حبك ،
لأنه هو سيدك فاسحدي له . وبت صور أغنى الشعوب ، ترضي وجهك مهدية .
كلها عذبة الملك في حدرها . مسوحة بذهب ملاسها . خلاص مطررة خضر إلى الملك .
في إثرها عدارى صاحبا . مقدمات إليك ، يحصرن بمرح وانتهاج . بدخلن إلى قصر الملك .
عوصا عن أمالك يكون نوك تفهيم رؤساء في كل الأرض . أذكر اسمك في كل دور قدور . من
أحل ذلك نحمدك الشعوب إلى الدهر والأبد » . المزمور: ٤٥ .

(١) نص المزمور من الترجمة الحديثة: « هلولوا . عوا للرب تربية جديدة ، تسبحته في جماعة
الأنبياء . ليرج إسرائيل خالقه . لينهج بنو صهيون ملكهم ، ليسبحوا اسمه برقص . بدف وعود
ليرفعوا له . لأن الرب راض عن شعبه ، يحمل الودعاء بالخلاص . لينهج الأنبياء بمجد ، ليرغوا على
مضاجعهم ، تذوبها الله في أفواههم ، وسيف ذو حدين في يدهم . ليصنعوا نعمة في الأمم ،

وهذا يجب أن يكون المراد به نبينا صلى الله عليه وآله وسلم ، لأن
 إخوة بني إسرائيل يجب أن تكون غيرهم ، ويجب أن يكونوا أولاد
 إسماعيل صلى الله عليه ، وأولاد عيسى ، أو أولاد إسحاق ، ولم يكن
 في أولاد عيسى بن إسحاق نبي غير أيوب صلى الله عليه ، وكان هو
 قبل موسى صلى الله عليه ، فلا يصح أن يكون هو المراد (١) ، فيجب أن
 يكون المراد نبينا صلى الله عليه وآله وسلم من ولد إسماعيل .

قائلا: لا أعوذ أصح صوت الرب إلهي ، ولا أرى هذه النار العظيمة أيضا لثلاث أموت . قال لي
 الرب: قد أحسوا في ما تكلموا . أقيم لهم نبيا من وسط إخوانهم مثلك ، وأجعل كلامي في فمه
 فيكلمهم بكل ما أوصيه به ، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا
 أطلبه . وأما النبي الذي يطع فيتكلم باسمي كلاما لم أوصه أن يتكلم به ، أو الذي يتكلم باسم
 آفة أخرى فيموت ذلك النبي . وإن قلت في قلبك كيف نعرف الكلام الذي لم يتكلم به الرب .
 فما تكلم به النبي باسم الرب ولم يحدث ولم يُعبرْ فهو الكلام الذي لم يتكلم به الرب بل بطعان
 تكلم به النبي فلا تخف منه . سفر التثنية ١٨ : ١٥ - ٢٢ .

وهذا النبي الذي تحدث عنه هذه النبوة هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم . واليهود
 يقولون: إن النبي الذي تحدث عنه هذه النبوة لم يظهر بعد .

والنصارى يقولون: هو عيسى عليه السلام . والصحيح هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم ،
 لأن في التوراة أنه لم يظهر نبي من بني إسرائيل مثل موسى . وهذا النبي الذي تحدث عنه النبوة
 هذه ، من أوصافه أن يكون ممثلا لموسى في المحروب والمحرز والانتصار على الأعداء . انظر
 سفر التثنية ٣٤ : ١٠ .

(١) ذكرت التوراة: أن عيسى باع نُكُورته ليعقوب ، فأصبحت بركة إسحاق مقصورة على
 يعقوب عليه السلام ، وقد نصت التوراة على انتقال الملك والنبوة منه إلى آل إسماعيل ، فقد قال
 يعقوب في الإصحاح التاسع والأربعين من سفر التكوين: « لا يزول قضيب من يهودا ، ومشترع
 من بين رحليه ، حتى يأتي شيلون وله يكون خضوع شعوب » ، وشيلون من بني إسماعيل ، لأن
 لإسماعيل بركة .

يبين ذلك أن بني إسرائيل لم يُبعث فيهم نبي مثل موسى ، له
 شريعة ظاهرة قبل المسيح ، ولا يصح أن يقال: إن المراد به هو المسيح
 صلى الله عليه ، لأن القائل به إما أن يكون يهودياً منكراً لنبوته ، أو
 نصرانياً لا يقول: إنه كان مثل موسى صلى الله عليه ، لأن النصارى
 يقولون: إن المسيح ابن الله ، فلا يصح أن يكون مثل موسى صلى الله
 عليه ، فلم يبق إلا أن يكون المراد به نبينا صلى الله عليه وآله وسلم .
 على أن عيسى صلى الله عليه ، لم يكن مثل موسى صلى الله عليه ، لأن
 شريعته مبنية على شريعة موسى ، وشريعة نبينا مثل شريعة موسى صلى
 الله عليه ، فإنها لم تُننِ على شريعة غيره .

وعن أشعيا صلى الله عليه: « قيل لي قم نظارا . فانظر ما ترى
 تُحبر به . قلت: أرى راكبين مقبلين ، أحدهما على حمار ، والآخر على
 جمل ، يقول أحدهما: هَوَتْ أَلْهَةُ بَابِلَ ، وتكسرت عليه أصنامها
 المنحورة » (١) ، فكان راكب الحمار: عيسى (صلى الله عليه ،
 وراكب الجمل نبينا صلى الله عليه وآله وسلم ، وآلهة بابل لم تنزل تُعبد

(١) النص من الترجمة الحديثة: « لأنه هكذا قال لي السيد: اذهب أقم الخارس لبحر بما يرى .
 فرأى رُكباناً أرواحاً مرسان ، ركب حمير . ركب حمار . فأصعق إصعاعاً شديداً ثم صرح كأنه:
 أيها السيد أنا قائم على المرصد دائماً في النهار ، وأنا واقف على المحرس كل الليالي . وهو ذا
 ركب من الرُحال ، أرواح من المرسان . فأجاب وقال: سقطت سقطت نابل وجميع تماثيل ألهتها
 المنحوتة » . سفر أشعيا ٢١ : ٦ - ٩ .

(٢) قال الإمام بذلك ، لأنه مكتوب في الأناجيل: أن عيسى عليه السلام دخل مدينة القدس
 على حمار .

من لدن إبراهيم صلى الله عليه ، إلى أن بعث الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، فعندها هوت وتكسرت ، واشتتار ركوب النبي صلى الله عليه وآله وسلم الجمل ، كاشتتار ركوب عيسى صلى الله عليه وآله وسلم الحمار

وفي التوراة: « إذا جاءت الأمة الآخرة ، أتباع راكب البعير ، يسبحون الله تسيحا جديدا في الكنائس الجدد ، فليفرح بنو إسرائيل ، ويسمرون إلى صهيون ، ولتطمئن قلوبهم ، لأنه اصطفي منهم في الأيام الآخرة أمة جديدة ، يسبحون الله بأصوات عالية ، بأيديهم سيوف ذات شفرتين ، فينتقمون له من الأمم الكافرة في جميع الأقطار » (١) .

وعن أشعيا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عليه: « هكذا يقول الرب إنك ستأتي من جهة التيمن ، من بلد بعيد ، ومن أرض البادية مسرعا ، قدامك الروائع والرعارغ والرياح » (٢) ، والتيمن: هو ناحية الجنوب .

وعنه من فصل ذكر هاجر ، وقال مخاطبا لها ولبلادها ولولدها: « مكة قومي ، وأنيري مصباحك ، فقد دنا وقتك ، وكرامة الله طالعة

(١) سبق أن ذكرنا نص المزمور التاسع والأربعين بعد المائة ، وفيه هذا النص .

(٢) النص بنمائه من الترجمة الحديثة: « فيرفع راية للأمم من بعيد ، وبصر لهم من أقصى الأرض ، فإذا هم بالمحنة يأتون سريعا . ليس فيهم راح ولا عاثر ، لا يعسون ولا ينامون ، ولا تحل حزم أحفانهم ، ولا تقطع سيور أحدثهم . الذين سهامهم مسنونة ، وجمع قسيهم ممدودة ، حوافر خيولهم تحسب كالصوان ، وبكراتهم كالزروبة . لهم زحمة كاللبوة ، ويربحون كالشبل ، وبهرون وبمسكون الغرسة وبسحنصوها ولا مقد . بهرون عليه في ذلك اليوم كهدير الحر فإن نظر إلى الأرض فهو ذا ظلام ، الصبح والنور قد أظلم بسحبها » . سفر أشعيا ٥: ٢٦ - ٣٠ .

عليك ، فقد تخلل الأرض الظلام ، وغطى على الأمم الضباب ، فالرب
 يشرق عليك إشراقا ، ويظهر كرامته عليك ، وتسير الأمم إلى نورك ،
 والملوك إلى ضوء طلوعك ، ارفعي بصرك إلى ما حولك وتأملِي . فإنهم
 سيجمعون كلهم إليك ويحسونك ، ويأتيك ولدك من بلد بعيد ،
 وسترين ذلك فتبتهجين ، وتفرحين ، ويستروح قلبك ، من أجل أنه
 يميل إليك ذخائر البحر ، وتحج إليك عساكر الإبل ، حتى تعمرك الإبل
 المأبلة ، وتضيئ أرضك عن القطرات التي تجتمع إليك ، ويساق إليك
 كباش مدين ، وتسير إليك أغنام قيذار ، وتخدمك رجال نابوت " ،

(١) النص بنسبته من الترجمة الحديثة: « ترمي أيتها العاقر التي لم تلد ، أشيدي بالترحم بأنها التي
 لم تمحص ، لأن بي المستوحشة أكثر من بني دات العمل ، قال الرب: أوسع مكان حينئذ .
 ولنسط شفق مساكنك ، لا تمسكي ، أطلبي أطناك وشددي أوتادك ، لأنت تئندس إلى اليمين
 وإلى اليسار ، ويوت نسلك أمتا ويعمر مدنا حرة . لا تخافي لأنت لا تخزين ، ولا تخجلي لأنت لا
 تستحيين . فإنك تسين حزبي صاك ، وعار ترملك ، لا تذكره بعد . لأن بعلك هو صانعك .
 رب الخنود اسمه ، ووليك فدوس إسرائيل ، إله كل الأرض يدعى . لأنه كامرأة مهجورة ومحرونة
 الروح دعاك الرب ، وكروحة الصبا إذا ردت قال إلهك . لحيفة تركتك ، وبمراحم عظيمة
 ساجعتك . بفيضان الفصص حجت وحمي عنك لحظة ، وبإحسان أبدي أرحمك ، قال وليك
 الرب . لأنه كعباه نوح هذه لي ، كما حلفت أن لا تعم بعد مياه نوح على الأرض هكذا حلفت
 أن لا أغضب عليك ولا أزعرك . فإن الجبال تزلزل ، والأكام تنزعزع ، أما إحساني فلا يزول عنك
 ، وعهد سلامي لا ينزعزع ، قال راحمك الرب .

أينها الدليلة المضطربة غير المتعزية ، هأنذا دا أنبي بالأمم حجارنك ، وباليافوت الأزرق أؤسك
 . وأحمل شرمك باقوتاً ، وأنوالك حجارة هرمانية ، وكل ثغومك حجارة كريمة ، وكل سبك
 تلاميذ الرب ، وسلام نيك كثيرا . بالتر تشين بعيدة عن الظلم فلا تخافين ، وعن الارتعاب فلا
 يدو منك . ها أهم يجتمعون اجتماعا ليس من عندي من اجتمع عليك فإليك يسقط . هأنذا قد
 خلقت الحديد الذي يفتح الصم في النار ، ويخرج آلة لعنمه ، وأنا خلقت المهلك ليحرب . كل آلة

وقيدار هو: ابن إسماعيل صلى الله عليه ، وهو جد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ونبايت: هو أخو قيدار ، وأولاده شديداً القلب .
ومن كتاب أشعياء: « سكان البادية والمدن وقصور آل قيدار يسبحون ، ومن رؤوس الجبال ينادون ، هم الذين يجعلون لله الكرامة ، وينهون تسبيحه في البر والبحر ، يرفع علما لجميع الأمم ، فيصفر لهم من أقاصي الأرض ، فإذا هم سراع يأتون »^(١) . وقيدار بن إسماعيل هو جد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ونداؤهم بالتلبية من رؤوس الجبال ، وتسبيحهم لله عز وجل هو الذي ظهر من المسلمين ، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم هو صَفَرُ لمواسم - أي: نادى - فاتوه مسرعين .
وفي الإنجيل: قال المسيح صلى الله عليه وآله وسلم للحواريين: « أنا ذاهب وسيأتيكم الفيرقليط »^(٢) . روح الحق الذي لا يتكلم من قبل نفسه ، إنما هو كما يقال له ، وهو يشهد علي به »^(٣) .

صورت صدك لا نتح ، وكل لسان يقوم عليك في القضاء نعلمين عليه . هذا هو موات عبدي الرب ، وبرهم من عندي يقول الرب » . سفر أشعياء ٥٤ : ١ - ١٧ .
(١) هذا النص بالمعنى من النصير المذكورين سابقا نص الإصحاح الخامس من أشعياء . ونص الإصحاح الرابع والخمسين من أشعياء .

(٢) الفيرقليط - بكسر الفاء -: كلمة عبرانية معناها: أحمد ، صلى الله عليه وآله وسلم . وفي كتب النصارى يكتبونها بفتح الفاء ليكون معناها: المحامي ، والمؤيد ، والشفيع ، والثابت عن عمره ، وهكذا . وهذا النص في إنجيل يوحنا في الإصحاح الرابع عشر وما بعده ، ومكتوب بدل فيرقليط كلمة: « المَعْرَى » ، بضم الميم وفتح العين تشديد الرأي مكسورة .

(٣) هذا النص بالمعنى في إنجيل يوحنا ، ونص العبارات التي اقتبس منها المؤلف بالمعنى هو: « إن كنتم تسمونني فاحفظوا وصاياي ، وأنا أطلب من الأب - الله - فيعطىكم معزيا - فارقليط - آخر

وفي حكاية يوحنا عن المسيح صلى الله عليه: « الفيرق لبط لا بيجيكم ما لم أذهب ، فإذا جاء وبخ العالم على الخطية ، ولا يقول من تلقاء نفسه شيئا ، ولكن مما يسمع به يكلمكم ، ويسوسكم بالحق ، ويغيركم بالحوادث والغيوب » (١) .

وفصول كثيرة في التوراة والزبور والانجيل .

وعن أشعياء وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين غير ما ذكرنا . لكننا اقتصرنا على هذا القدر ، لأن فيه كفاية . وهذه الفصول

، لم يكت معكم إلى الأبد ، روح الحق الذي لا يستطيع أن يضل ، لأنه لا يراه ولا يعرفه » . إنجيل يوحنا ١٤ : ١٥ - ١٧ .

« ومن جاء المعزى الذي سأرسله أنا إليكم من الأب روح الحق ، الذي من عند الأب يبين فهو يشهد لي ، وتشهدون أنتم أيضا لأنكم معي من الابتداء ، قد كلمتكم هذا لكي لا تعثروا ، سيخرجونكم من المجمع ، بل تأتي ساعة فيها يظن كل من يقتلكم أنه يقدم خدمة لله . وسيفعلون هذا بكم ، لأنهم لم يعرفوا الأب ولا عرفوني . لكني قد كلمتكم هذا ، حتى إذا حانت الساعة تذكرون أبي أنا قلته لكم . ولم أقل لكم من البداءة لأني كنت معكم . وأما الآن فأنا ماض إلى الذي أرسلني ، وليس أحد منكم يسألني : أين تمضي ؟ لكن لأني قلت لكم هذا ، قد ملأ الحزن قلوبكم . لكي أقول لكم الحق إنه حير لكم أن أنطلق ، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي . ولكن إن ذهبت أرسله إليكم . ومن جاء ذاك يمكت العالم على خطية ، وعلى بر ، وعلى دهنونة ، أما على خطية فلاهم لا يؤمنون بي . وأما على بر فلائي ذاهب إلى أبي ولا تروني أيضا . وأما على دهنونة فلا أن رئيس هذا العالم قد دين . إن لي أمورا كثيرة أيضا لأقول لكم ، ولكن لا نستطيعون أن نحصلوا الآن ، وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه لا يتكلم من نفسه . بل كل ما يسمع يتكلم به ، ويغيركم بأموال آتية . ذاك يمجدي لأنه بأحد مما لي ويغيركم » . إنجيل يوحنا ١٥ : ٢٦ - ٢٧ ، و١٦ - ١ ... إلخ .

(١) هذا النص في التعليق السابق .

يُقرُّ بها حفاظ أهل الكتاب ، وليسوا ينكرون منها إلا اسم نبينا صلوات الله عليه ، ويتأولون النبوءات تأويلات ظاهرة الفساد .

ومن المعلوم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تلا عليهم: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] ، وتلا حكاية عن المسيح صلى الله عليه: ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦] ، وتلا: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) ﴾ [آل عمران] ، وتلا: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٢٠] .

فلو لم تكن هذه الآيات من عند الله عز وجل ، ولم يكن اسمه مكتوبا في كتبهم ، ولم يكن أحبارهم عالمين بذلك ، لم يكن صلى الله عليه وعلى آله وسلم يورد عليهم ذلك ، لأنه لا يزيدهم إلا نفارا عنه ، ونحققا بتقوله ، حاشاه من ذلك .

فإن قيل: هذا الذي حكيتكم من كتب الأنبياء صلوات الله عليهم صحيح ، وهذه الصفات موجودة في تلك الكتب ، إلا أن الموصوف بها لم ينجى بعد بته (١) .

(١) هكذا يقول اليهود إلى اليوم في سبوات التوراة عن محمد صلى الله عليه وآله وسلم . ويلقبون النبي صلى الله عليه وآله وسلم بلقب: المسيح المنتظر ، كما يلقبون أنبياءهم وعلمائهم ومنوكهم ، ليوهوا الناس أنه سياتي من بني إسرائيل .

قيل له: أرأيتم إن جاء مَنْ تدُّعونه ، ثم أنكروه منكر . ما يكون برهانكم عليه ؟

فإن قيل: إذا جاء أنى بالمعجزات . فمهما قالوا في ذلك فهو جوابنا .

ثم يقال لهم: إذا أتى مَنْ توجد فيه الأوصاف المذكورة ، فيجب أن نعلم أنه هو الذي بشرت به الأنبياء صلوات الله عليهم ، لأنه لا يجوز أن يعرفنا نبي من الأنبياء أنه يأتيكم رجل حاله كذا وصفته كذا . فإذا أتاكم فافعلوا به كذا ، من تصديق أو تكذيب ، ثم يأتينا رجل بتلك الصفة ، ولا يكون هو مراداً بذلك الخير ، بل يكون المراد غيره ، والمقصود سواه . لأنه لو كان ذلك كذلك ، كان ضرباً من التليس ، ويجب أن يمنع الله عز وجل منه . وفي هذا إبطال هذا السؤال .

فإن قيل: يَبَيَّنُوا أن تلك الأوصاف حاصلة لنبىكم صلى الله عليه وآله وسلم ؟

قيل له: ما جاء في التوراة: « جاء الله من سيناء ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبل فاران » ، لا التباس في أن المراد بقوله: « واستعلن من جبل فاران » هو ابتعائه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لأن جبال فاران لا إشكال في أنها جبال مكة ، ولم تظهر عبادة الله عز وجل وتسميحه وتخليه ، وخلع الأصنام والأنداد بمكة ظهوراً انتشر في الآفاق ، وتعمله الركبان ، إلا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، كما أن ظهور ذلك بظهور سيناء ، لم يكن إلا بموسى صلى

الله عليه ، وظهوره بساغير لم يكن إلا بعيسى صلى الله عليه ، وفي ذلك ثبوت أن هذه البشارة كانت بشاره بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، لأنه لو جاز أن يقال ذلك في موسى وعيسى صلى الله عليهما ، لجاز في محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وأنت إذا تأملت الأوصاف التي ذكرناها وبيناها ، وجدت جميعها في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصفاً وصفاً . فيتين لك أنه الموصوف بها . فإذا ثبت ذلك ، ثبت أنه المشير بها ، لأن خلاف ذلك مما لا يجوز في حكمة الله الحكيم عز وجل .



ذكر ما قيل في أمره صلى الله عليه وآله وسلم على سبيل التأكيد

اعلم أن الفصول التي ذكرناها في هذا الباب ، من العلماء من ذكر كثيراً منها على سبيل الاستدلال على صحة نبوته صلى الله عليه وآله وسلم ، وإن كان الأوضح أن ذكرها على سبيل التأكيد والإيضاح ، لما تقدم من الأدلة والبراهين أولاً .

وإن كان ما ذهب إليه أولئك العلماء - رحمهم الله - ليس ببعيد

فمن ذلك: ما اختص به صلى الله عليه وآله وسلم من الأحوال التي اجتمعت فيه على وجه لم يصح أنه اجتمع في أحد ، على ما نقل وذكر ، كالحكم الذي رسخ فيه صلى الله عليه وآله وسلم ، فإنه من مولده إلى مبعثه ، وإلى أن اختار الله عز وجل له دار كرامته ، مع اختلاف الأحوال عليه ، وتقلب الأمور لديه ، ومباشرته ما باشره ، من دعاء أعدائه إلى الدين مع غلظتهم عليه ، وإظهارهم الجفاء له من كل وجه أمكنهم ، ووجدوا السبيل إليه ، لم يقع منه ما ينسب إلى الخدة ، أو يُعدّ من الخفة ، أو يجري مجرى الترقّ والطيش .

ومن تتبع أخباره صلى الله عليه وآله وسلم وعلى وآله وأحواله ، عرف ذلك ونعقّه .

هذا مع أن أحداً ممن ادعا الحلم ، وانتسب إليه ، لم يغل في كثير من الأوقات مما يجري مجرى الخدة والترقّ . كأحنف بن قيس ، ومعاوية

لعنه الله ، وغيرهما . فقد حكى على كل ، ولكل منهم أمور منكورة من ذلك .

ثم اختصر صلى الله عليه وآله وسلم مع ذلك بالصبر في مواطن الجزع ، على وجه لم يسمع بمثله لغيره ، فقد جرى عليه في أول مبعثه صلى الله عليه وآله وسلم ما لا يخفى على حامل أثر ، ولا ناقد خبير ، من الأذى ما يطول ذكره .

ثم جرى على عمه حمزة بن عبد المطلب رحمة الله عليه بمراى منه ومسمع . وجرى عليه صلى الله عليه وآله وسلم في نفسه يوم أحد من الكفار ما جرى . وجرى عليه من المنافقين قبل ذلك وبعده ، ما هو مشهور عند أهل الآثار . ومع ما كان يقاسيه من الضر والجوع ، ويقاسي معه أهل عنايته وهو في أثناء نكد الأحوال ، لم ينفد صبره ساعة من حياة ، ولم يظهر لأحد ضيق صدره ، ولا جزع لشيء من ذلك .

ثم كان صلى الله عليه وآله وسلم من الوفاء ، بحيث لم يدع عليه عدو مكاشح ، ولا منابذ مكافح ، خلاف ذلك ، لظهور الأمر فيه ، ثم انضم إلى ذلك الزهد الخشن ، الذي لم يُرتب فيه ، فإنه صلى الله عليه وآله وسلم ملك العرب ، وأقصى اليمن إلى أقصى الحجاز ، وإلى عمان ، ثم توفي صلى الله عليه وآله وسلم ، ولم ينقل أنه ترك عينا ولا ورقا .

ولا كان بنى دارا ، ولا شق نhra ، ولا استبقى عينا .

واستأثر الله به ، وعليه دين ، وكفن صلى الله عليه وآله وسلم في ثيابه التي كان يبعد الله فيها .

وحاله في ذلك أجمع ، كانت مشهورة عند أوليائه وأعدائه ، لم يختلف فيه اثنان ، ثم كان مع ذلك أشد الناس تواضعا . كان يأكل على الأرض ، ويجلس عليها ، ويلبس الخلق ، ويمشي في الأسواق ، كواحد من العامة ، ويجالس المساكين . وروي أنه كان يقول: « إنما أنا عبد أكل كما يأكل العبيد ، وأشرب كما يشرب العبيد » (١) .

ثم كان مع ذلك أشجع الناس ، وأقواهم قلبا ، وأثبتهم وأشدهم جماحا ، ما فرّ قط ، ولا خاف ، ولا كان منه ما اتفق للشجعان من حوله (٢) ، أو قوته .

ويوم حنين لما ولّى أصحابه مدبرين ، ثبت هو الثبات الحسن في نفر من عترته ، حتى رجع إليه أصحابه ، وأظفروا الله على أعدائه . ويوم أحد لما شاع في أصحابه القتل الذريع ، وجرى على حمزة صلى الله عليه ما جرى ، ثبت أحسن الثبات ، ولم يولّ القوم دبره ، ولم يقف موقفا - مع قلة تجلد أصحابه وكثرة أعدائه - إلا ثبت ، ولم يعرض له فيه اضطراب ولا عجز ، ثم انضاف إلى ذلك كرم عفوه ، وعظيم صفحه ، مع كثرة الأعداء عليه .

(١) طقات ابن سعد ١ / ٩٢ .

(٢) الحول: القوة .

فإنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يقف من أحد ، ولا وقف مع أحد موقف الغتاط الحق ، بل كان يعفو ويصفح ، ثم لا يتبع ذلك متاً ولا أذى ، ولا يفسده بتغيير أو تكدير ، وأظهره الله بأبي سفيان بعد تمثيله بعمه حمزة عليه السلام ، وبذله الوسع في معاداته ، فلم يَلْقَه إلا بأحسن صفح ، وأكرم عفو ، وتجاوز عنه أحسن التجاوز ، ولما أظهر الاسلام أكرمه بقوله: « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن » (١) .

ولم يشف غيظه من أحد من أهل مكة ، مع ما كان منهم صلى الله عليه وعلى آله ، وإلى أصحابه من الأسباب القبيحة ، وطلبهم دمه ودماء أصحابه ، وتسفهم عليه وعليهم ، ولم يكافئ أحدا منهم على سوء صنيعه ، وقبيح فعالة . ولم يعاتب أحداً منهم على ما كان منه ، ولم يوافقه (٢) عليه ، وقال لما قام فيهم خطيباً: « أقول كما قال أخي يوسف صلى الله عليه: لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم » (٣) .

ثم انضاف إلى ذلك حسن العشرة ، مع القريب والبعيد ، والولي والعدو . وخفض الجناح ، ولين الجانب ، وبُعدده عن الغلظة والفظاظة ، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] .

(١) أخرجه الطيالسي في مسنده ٣٢١/١ (٢٤٤٢) ، وإسحاق بن راهويه في مسنده ٣٠١/١ .

(٢٧٨) .

(٢) في المخطوط: يوافقه . والصواب ما أثبت .

(٣) أخرجه أبي داود في سننه ١٦٣/٣ (٣٠٢٤) ، والحاكم في مستدركه ٦٢/٢ (٢٣٢٨) .

فتأمل - رحمك الله - هذه الخلال التي خصَّه الله بها ، وأبانه
بفضائلها دون الناس كافة ، فبئس^(١) ذلك على أنه صلى الله عليه وعلى
آله مراد لأمر جسيم ، وخطر^(٢) عظيم ، كما قال الله عز وجل: ﴿
وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾ [الفلم] ، وقال: ﴿اللَّهُ أَغْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ
رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] .

ومن ذلك ما اشتهر وعرف من أحواله صلى الله عليه وعلى آله ،
أنه لم يكن في مولده ومنشأه وخروجه إلى ناحية الشام - حين خرج -
يخالط أهل الكتاب ، ولا يشتغل بمدارسهم ومجالستهم ومجاراتهم .
وأن قومه الذين كان نشوؤه معهم ، وبين أظهرهم ، لم يكونوا
يتعاطون شيئا من علوم أهل الكتاب ، بل لم يكونوا يعرفون شيئا منه ،
فهو صلى الله عليه وعلى آله لم يفارق قومه في مقامه ولا طَعَنه ، ولا
شيء من أحواله .

ثم إنه صلى الله عليه وآله أتى بالأقاصيص التي كانت في كتبهم ،
من قصة إبليس مع آدم صلى الله عليه ، وسائر أقاصيص آدم ومن بعده
إلى قصة المسيح صلى الله عليه ، وسردها وتلاها على ما في كتبهم ،
ولم ينكر أهل الكتاب إلا يسيرا .

فكيف يجوز أن يكون عرف تلك إلا من جهة علام الغيوب ؟

(١) في المخطوط: فبئس . ولعل الصواب ما أثبت .

(٢) الخطر: الشرف .

وكيف يرتاب في ذلك مَنْ علم مِنْ حاله أَنه لم يكن يشتغل بعلوم أهل الكتاب؟ كما يعلم أَنه لم يكن يشتغل بعلوم التحميم والهندسة والفلسفة ، وهذا مما ذكره بعض العلماء على سبيل الاستدلال به .
فأما ما ذكره على سبيل التأكيد فمما لا مرية فيه ولا شبهة ، والحمد لله . وقد نبّه الله عز وجل على ذلك ، بقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) ﴾ [العنكبوت] .

ومن ذلك سلامة القراءان وما ^(١) أتى به صلى الله عليه وآله وسلم من الشرائع ، عن التناقض والتدافع ، واستمرارها على طريقة واحدة ، وأنها لا ترداد إلا تأكيداً وبياناً ، مع الفحص والبحث وشدة التقيب على أحواله ، وكثرة إيراد أحناس الكفار للشبه . سيما الملحدة ، فإنهم لم يدعوا شيئاً يجوز أن يخرج في تعريف شبهة أو تخيل ، إلا قاموا به وقعدوا ، وأوردوا وذكروا ، طمعا في إطفاء نور الحق ، ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُثَمِّمُ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) ﴾ [التوبة] .

وقد نبّه الله جل ذكره على هذه الحملة ^(٢) بقوله: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢) ﴾ [النساء] .

ومن ذلك أَنه صلى الله عليه وآله وسلم كان من أول مبعثه إلى أن اختار الله له دار كرامته ، كان على غاية قوة اليقين ، وانشراح الصدر

(١) في المخطوط: مما . ولعل الصواب ما أنت .

(٢) كذا في المخطوط .

، والتشدد في الأمر الذي كان يدعو إليه ، والاستهانة بجميع أعدائه والمخالفين ، لا يعني ، ولا يضعف منته " ، ولا تهن قوته ، ويغالب قومه من السماء .

كما روي أن ذويه من قريش لما شكوه إلى عمه أبي طالب ، يلتمسون منه التزول عما هو فيه من الدعاء إلى الله ، وسب آلهتهم ، وتسفيه أحلامهم ، وبذلوا له الرغائب على ذلك . قال صلى الله عليه وعلى آله : « لو جعلت الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، ما تمأونت فيما أدعو إليه » " .

ثم استمر على ذلك مع كثرة ما لقي من الأذى والتكذيب ، وفي أحوال الخوف والرغبة من الأعداء . هذا مع حصافته " وثبات لُبّه ، وإصابة رأيه .

ومن المعلوم أن العاقل الحازم إذا عرف من نفسه أنه مختصر في أمر يدعيه ، ومتحيل فيه ، عَلِمَ أنه لا حقيقة لما يذكره ، ودفع مع ذلك إلى موافقة أعدائه له ، وامتحنهم إياه ، ونجّتهم عن أحواله ، ونقيرهم عن أسرارهم ، يلين بعض اللين ، ويستعمل بعض التملق في كثير من أوقاته ، بل عامة أحواله ، وإن خشن جانبه في وقت تجلّد ألاله في آخره ، وإن أبدى الثبات وقوة النفس في حالة ، راوغ وداهن في أخرى .

(١) مَثَلُ الشَّيْءِ: صلب ، ومثا الظهر: مكثفا الصلب عن عجز وشمال من عصب ولحم .

(٢) سيرة ابن هشام ١ / ٢٨٥ .

(٣) المحصافة: كمال العقل .

وأحواله صلى الله عليه وعلى آله حرت على خلافه . فدل ذلك على أنه كان صادقا في قوله ، وثقا بربه ، نافذا في بصيرته ، ماضيا على المنهاج الواضح صلى الله عليه وعلى آله .

ومن ذلك أن العرب لم تنزل معروفة بالأنفة ، وشدة الحمية ، مشهورة بالتكبر والتعاضم ، ولذلك قط لم يجمعهم على الطاعة ملك منهم ، ولم يخضعوا لعظيم من عظمائهم ، ولم يدينوا لأحد منهم .

خلاف سائر الأمم ، فإن أمة من الأمم لم تخل من ملك منهم يصرفها ، وعظيم يدير أمورها منها ، ولم يكن ذلك إلا لأن اجل من العرب كانوا يعتقدون من أنفسهم أحوالا من الكبرياء ، تمنعهم عن أن ينقاد بعضهم لبعض ، لعزة نفوسهم ، وقوة قلوبهم ، وظهور فضائلهم النفسية .

ثم دانوا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالطاعة ، وخفضوا له جناح الذلة ، وخضعوا تحت أحكامه ، وتصرفوا على قضايا أوامره ونواهيه ، جارفين عاداتهم العادية ، ومخالفين سجاياهم القديمة ، ويجلُّون أن يكونوا فعلوا ذلك إلا لأنه صلى الله عليه وآله وسلم بهمهم وقهرهم بحجته ، وقطع معاذيرهم بآياته المعجزة ، ودلالاته الواضحة .

وهل يكون لنقض العادة إلا مثل ما اتفق في أحوالهم ، والخضوع بعد الاستكبار ، والانقياد بعد الإباء؟! ولهم الإصابة والفهم البين ، والرأي الثاقب ، والبصيرة الثابتة؟!

ثم رُزق صلى الله عليه وعلى آله ما لم ينقل أن أحدا من الأنبياء صلوات الله عليهم رزق من الأصحاب الذين كانوا أعلاما مثله ، نحو أمير المؤمنين عليه السلام ، الذي بهر بفضائله الكافة ، واجتمع فيه ما تفرق في غيره من المناقب والمحاسن .

فإن عُدَّ الفقهاء كان عليه السلام فقيها منعما ، وعالما مقدما .
وإن ذكر الزهاد كان زاهدا حشنا ، قد طوى دون الدنية كشحا ، وأعرض عنها صفحا .
وإن ذكر القراءان (١) كان حافظا غير مدافع ، قارنا بل مقرنا غير ممانع .

وإن ذكر الشجعان كان شجاعا بطلا ، بكر ولا يفر ، ويقبل ولا يدبر .

ثم من دونه من العلماء وكبار الفقهاء ، مثل عبد الله بن عباس في فقهه ، المتقدم في علمه . وكان يقال فيه : « إنه رباني هذه الأمة » (٢) .
وعبد الله بن مسعود ، الفقيه الزاهد ، الذي قيل فيه : « كتف ملئ علما » (٣) ، وروي عنه أنه قال : « [ما كنت أحسب] أن في أصحاب

(١) لعلها: القراء .

(٢) عن محمد بن الحنفية أنه كبر على بن عباس أربعة وقال: « هلك رباني هذه الأمة » .

أخرجه الحاكم في مستدركه ٣ / ٦٢٦ (٦٣١٠) ، وابن عمرو الشيباني في الاحاد والمناسي ١ / ٢٨٨ (٣٨٣) ، وأحمد بن حنبل في فضائل الصحابة ٢ / ٩٥٢ (١٨٤٢) .

(٣) رواه ابن حجر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بلفظ: إنك لعلام معلم .

الإصابة ٢ / ٣٦١ .

محمد صلى الله عليه وعلى آله من يريد الدنيا ، حتى أنزل الله عز وجل : ﴿ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢] .

ثم زيد بن ثابت ، ثم معاذ بن جبل ، ثم عمر بن الخطاب الذي لم يُشك في فقهه ، وعثمان بن عفان الذي لم يُرتب في حفظه للقرآن ، ثم عبد الله بن عمر ، ثم حذيفة بن اليمان ، ثم الزهاد مثل سلمان الفارسي ، فإنه مع زهده كان معدودا من الحكماء والعلماء . وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « سلمان منا أهل البيت » .^(١)

ثم أبو ذر الغفاري ، الذي صعب على الزهاد اقتفاء أثره في الزهد ، وعثمان بن مظعون ، وعمار بن ياسر ، إلى سائر أصحاب الصفة . ولو ذكرنا فضلاءهم وعلماءهم وزهادهم حتى نستوفي ذكرهم ، وشرعنا في وصف تدقيقهم النظر في الفرائض ، لطال الكتاب ، ولأدى ذلك إلى الخروج عن الغرض الذي قصدناه .

ثم إنهم حازوا هذه الفضائل ، بل وحصلوا هذه المآثر في مدة يسيرة ، لأنه لم يكن بين مبعثه صلى الله عليه وعلى آله ، إلى أن اختار الله له دار كرامته ، غير ثلاثة وعشرين سنة .

فتأمل - رحمك الله - ما ذكرت من أحوالهم ، وكيف بلغوا ما بلغوه في هذا الأمد القصير ، لتعلم أن ذلك كان بتوفيق من الله . نبّه به

(١) أخرجه أحمد ، وابن أبي شيبة . وابن أبي حاتم ، وابن جرير . الدر المنثور ٢ / ٣٤٩ .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک ٣ / ٦٩٢ ، والطبرانی في المعجم ٦ / ٢١٣ (٦٠٤٠) .

على نبيه المختار في صدق ما ادعاه ، بل لا يبعد أن يقال: إن ذلك آية بيّنة ، ودلالة محققة .

ومن ذلك تخصيص الله عز وجل إياه صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالذرية الزاكية ، والسلالة الطاهرة . فإنه منذ مضى الحسان صلوات الله عليهما وإلى يومنا هذا ، لم تطلع الشمس إلا على عدة من فضلاء نجباء من أولاهما عليهم السلام ، يرشحون للإمامة ، ويوهلون للزعامة ، فيدعي أولياؤهم وأصحابهم أنهم أفضل أهل الزمان ، ويسلم لهم أعداؤهم ومخالفوهم المنحرفون عنهم أنهم من جملة الفضلاء . لأن الحسن صلوات الله عليه مضى عن الحسن بن الحسن ، وزيد بن الحسن ، وهما لم يُشك في فضلهما .

ومضى الحسين صلوات الله عليه عن علي بن الحسين ، وهو الأوحد في علمه وزهده وعبادته ، وزين العابدين وحالته مشهورة . ثم مضى هو عن نجباء مثل محمد بن علي الباقر العالم ، وزيد بن علي الشهيد ، وقد ورد في ذكرهما وفضلهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما ورد .

وعبد الله بن الحسن ، المشهور بالعقل والعلم ، وأخوه " إبراهيم بن الحسن وغيره . ثم كان بعدهم أولاد عبد الله بن الحسن ، وهم نجوم يهتدى بهم ، مثل محمد بن عبد الله النفس الزكية ، وإبراهيم بن عبد الله

، وإدريس بن عبد الله ، وموسى بن عبد الله . كل منهم مشاراً إليه
بأنواع من الفضل .

ومثل جعفر بن محمد الصادق ، وموسى بن جعفر ، ومحمد بن
جعفر ، ويحيى بن زيد (١) ، والحسين بن علي بن الحسين صاحب الفتح .
وليس في هؤلاء صلوات الله عليهم إلا من ثبتت إمامته ، أو صلح
للإمامة .

ثم بعد هؤلاء القاسم بن إبراهيم ، وأخوه محمد بن إبراهيم ، وعلي
بن موسى بن جعفر ، وأحمد بن عيسى بن زيد ، وعبد الله بن موسى
بن عبد الله ، والحسن بن يحيى بن الحسين بن زيد . وهؤلاء أيضا ليس
فيهم إلا من كان إماما ، أو صلح للإمامة صلوات الله عليهم ، وعلى
هذا جرت أحوال هذه العترة الزكية قرنا بعد قرن إلى يومنا هذا .

فتأمل - رحمك الله - عجيب صنع الله في هذا الباب ، وتنبهه
على عظيم محل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله ، فإنك إن قسّمت
بني هاشم أجمع - وأولاد الحسن والحسين بطنّ منهم ، وهم آل عباس
، وآل أبي طالب ، من ولد عقيل وجعفر - وضمت إليهم أولاد علي
عليه السلام ، من غير الحسن والحسين ، وهم أولاد محمد - يعني ابن
الحنفية - وعمر والعباس . فهذه العترة الذين هم ذرية النبي صلى الله
عليه وآله وسلم ، لم تجد في الجميع من الفضلاء والنجباء ، ما تجد في
هؤلاء عليهم السلام ، وإذا قارنتهم ببني أمية بأسرها ، بل جميع آل عبد

(١) في المخطوط: يحيى وزيد . ولعل الصواب ما أثبت .

مناف ، وهم قبيلة مثل بني هاشم في الكثرة ، أو يكونون أكثر منهم ، ثم قايست بين جميعهم وبين ذرية الرسول صلى الله عليه وعلى آله ، فإنك لا تجد في جميعهم من الفضل ما تجد في هؤلاء .

ثم أزيدك بياناً ، قس جميع قريش - وهم قبائل عدة ، وبني هاشم قبيلة من تلك القبائل ، وأولاد الحسن والحسين بطن من بني هاشم - بهم ، فإنك لا تجد في جميع قريش ما تجد في هؤلاء صلوات الله عليهم ، فليشرح صدرك أن الله حل وعز أكرم نبيه صلى الله عليه [وآله وسلم] بأن جعل في ذريته من الفضل ما لم يجعله في سائر القبائل ، مع كثرة عددها ، وقلة عدد هؤلاء ، ثم مع ذلك قد خصوا بحشمة في النفوس واثقة ^(١) ، وهيبة في الصدور راسخة ، يشترك فيها أعداؤهم وأولياؤهم ، لا يمكن لهم دفعها عن أنفسهم ، وذلك مما لا يجوز أن يكون اتفق إلا بلطف من الله ، يلطفه لهم ، تعظيماً لأمر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، وتنبيهاً على عظيم محله صلى الله عليه وآله وسلم .

ومن ذلك ما اختصت به هذه الأمة من العلوم الجمية ، التي لم تختص بها أمة من الأمم ، فإن المتكلمين منهم ، عبروا في وجوه جميع المخالفين كالفلاسفة ، وفرق الثنوية ، من الدياصنية ، والماتونية ، وكاليهود والنصارى . وأبرؤا ^(٢) عليهم ، ونصروا الحق ، حتى لا تجد أحداً من هؤلاء إذا ناظر متكلماً من المسلمين إلا مجتهداً مشهوداً . ولا

(١) في المخطوط: وثقة . ولعن الصواب ما أنت .

(٢) كذا في المخطوط .

يكاد يجري معه شوطاً^(١) أو شوطين ، إلا أن يكون استعان على علمه بشيء من كلام متكلمي الاسلام .

ثم الفقهاء الذين أصلوا أصول الفقه وفروعه ، دققوا وأتقنوا ، وبلغوا من ذلك المبلغ الذي لا تخفى مرتبته على أحد من العلماء ، وليس لغير أهل الكتاب شيء منها . فإنهم صنفان: يهود ، ونصارى .

أما النصارى فليس لهم من الحلال والحرام ، إلا اليسير الذي لا يؤبه له . فإنهم يقولون في حوادثهم على أحكام التوراة .

وأما اليهود مع كثرة التوراة ، فليس لهم من الفقه إلا ما يكاد يبلغ عُشرَ عُشر ما للمسلمين .

ثم القراء من المسلمين ضبطوا أصول القراءات ووجوهها ، ضبطاً لا يحكى أقله عن أحد من أهل الكتاب ، ثم التُّحاة منهم ضبطوا الإعراب ، وفرعوا وأصلوا ، كما ترى . وليس ذلك إني هذا الخبير لن شيء من الأمم .

ثم تأمل نقل أصحاب الحديث وضبطهم له ، واختصاصهم منه بما لم يختص به أحد من الأمم .

ومن ذلك استمرار دعواه ، وظهور شريعته صلى الله عليه وآله وسلم ، ونطيقهم شرق الأرض وغربها ، لا تزيدهم الأيام إلا قوة وبقاء ، ولا تكسبهم مر الأعوام إلا هدوءاً وثباتاً ، بل لا يحاول تضعيف شيء منها يحاول إلا عاد مغلولاً ، ولا غالبها مغالب إلا عاد مغلوباً ، ولا

(١) في المخطوط: شوط . والصواب ما أنت .

بعبادها معادٍ إلا قصمه الله وأهلكه ، حتى يجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا .

فتأمل - رحمك الله - بعد النطق "" في الأدلة التي ذكرناها ، والآيات التي بينها ، هذه المحاسن التي اختص بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في نفسه أولا . ثم ما اختصت بها ذريته عليهم السلام ثانيا ، ثم ما اختص بها أصحابه ، ثم ما اختصت بها دعوته ثالثا . لتعلم أنه رسول مرسل ، ونبي مبعث صلى الله عليه وآله وسلم ، وأي عاقل يتأمل هذه المحاسن التي ذكرنا اليسير منها من جملة الكثير ، فيُخَيَّلُ إليه الشيطان أنها أجمع حصلت على سبيل الاتفاق ، مع أن مثلها لم يحصل لبشر إلا خذله الله وأضله ، لعدوله عن طلب الرشد والهدى ، واتباعه الغي والهوى .

وهل يكون في نقض العادة ، أبلغ من أن يختص بشر بما لم يختص به أحد قبله ولا بعده !!!

ثم الكتاب والحمد لله رب الأرباب ، العزيز الغلاب ، ﴿ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (٨) | آل عمران .



الفهرس

٣	-----	مقدمة
٦	-----	المعجزة بين الرسالة الخاتمة والرسالات الأولى
٧	-----	مقترحات كافرة
٩	-----	حقيقة الاعجاز المادي
١٢	-----	النبي الانسان
١٣	-----	بين النبوة والعبقرية
١٣	-----	العباقره
١٥	-----	الأنبياء
١٧	-----	مسك الختام
١٩	-----	موئل البطولات
٢٠	-----	الوصفُ بالعبقرية
٢٢	-----	ترجمة المؤلف
٢٣	-----	ترجمة المؤلف
٢٤	-----	المؤلف
٢٤	-----	أبوه
٢٤	-----	أمه
٢٤	-----	مولده
٢٥	-----	نشأته

- ٢٥ ----- شيوخه
- ٢٦ ----- تلامذته
- ٢٧ ----- مؤلفاته
- ٢٨ ----- من مؤلفاته:
- ٢٩ ----- علمه
- ٣٧ ----- شعره
- ٤٠ ----- ورعه وزهده وحلمه
- ٤٢ ----- جهاده
- ٤٣ ----- منهجه في الحكم
- ٤٧ ----- وفاته
- ٤٨ ----- هذا الكتاب
- ٥٢ ----- [الباطنية]
- ٦٢ ----- الباب الأول
- ٦٢ ----- البيان عن إعجاز القرآن
- ٦٣ ----- الكلام في أن التحدي قد وقع
- ٦٤ ----- الكلام في أن التحدي قد وقع
- ٨٥ ----- الكلام في أن معارضة القرآن لم تقع
- ٩٨ ----- [قرآن مسيلمة الكذاب]
- ١١٦ ----- الكلام في بيان أن الإعراض عن المعارضة إنما كان للتعذر
- ١٢٩ ----- الكلام في بيان أن القرآن يجب أن يكون معجزاً إذا تعذرت معارضته
- ١٧٤ ----- الكلام في بيان ماله كان معجزاً
- ١٩١ ----- الكلام في بيان أن القرآن في أعلى طبقات الفصاحة
- ٢٣٢ ----- الكلام في ذكر ما في القرآن من الإخبار عن الغيوب

- الكلام في ذكر ما في القرآن من الإخبار عن الغيوب-----٢٣٣
- ذكر جملة من المعجزات التي وردت لها الأحاديث-----٢٥٥
- ذكر ما وجد في الكتب المتقدمة من البشارات بالنبي سر-----٢٨٦
- ذكر ما قيل في أمره صلى الله عليه وآله وسلم على سبيل التأكيد ٣٠١
- ذكر ما قيل في أمره صلى الله عليه وآله وسلم على سبيل التأكيد ٣٠٢
- الفهرس-----٣١٧